أمين الزاوي

الخلّان

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

روايـة

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
Editions Difaf

scanned by
jamal hatmal

الخلّان

طبع في لبنان

الخلّان

رواية

أمين الزاوي

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

الطبعة الأولى

1440 هـ - 2019 م

ردمك 978-614-02-1687-7

جميع الحقوق محفوظة

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com
هاتف بيروت: 9613223227+

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
9 شارع محمد دوزي برج الكيفان
الجزائر العاصمة
هاتف 0776616609
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيّة وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الناشرين**

الإهداء

إلى الخلان:

أحمد زبانا وفرنوند إيفتون Fernand Iveton

وموريس أودان Maurice Audin...

اختلفتم في الديانة واجتمعتم على الوطن.

أمين الزاوي

لا يشـعر الإنسـان بإحسـاس الخيانـة إلا إذا كـان عاشـقًا صادقًا!

أمين الزاوي

دوخة

"أفولاي... أفولاي... أفولاي" مبتهجًا، صحتُ يا صاحبي وأنا أستقبله على عتبة العيادة.

حدّقت فيه، ولست أدري لماذا في اللحظة نفسها نظرتُ إلى الساعة المعلقة في المسمار المثبت على حائط الرواق الضيق، الذي يؤدي إلى غرفة الكشف الطبي في عيادتي التي فتحتها بعد الاستقلال بستة أشهر. الساعة تشير إلى الثامنة والنصف صباحًا، بالأحرى الثامنة وأربع وثلاثين دقيقة. العقارب الثلاثة تتراقص كالعادة دون اعتبار لوجودنا. كلما نظرت إلى هذه الساعة تساءلت: متى يا ترى بدأ الإنسان يعدّ الزمن؟ ما معنى الدقيقة وما معنى الثانية؟ ومن حدد طول الساعة وحجم الثانية والدقيقة؟

هذه الساعة الجدارية بعقاربها التي تجري ونحن أمامها نجري ونعدّ ونعدد ونعيد العدّ ونمضي، الأيام والشهور والسنين والقرون، ما معنى الواحد وما معنى الاثنين والمئة؟ وهُمٌّ على

وَهْمٍ! هذه الساعة أهدتني إياها رفيقة مجاهدة جلبتـــها معهـــا في واحدة من عُمْراتها أو حجاتها، فمذ الاستقلال أصبحت عمراتها متكررة وحجاتها كثيرة، بل تكاد تكون سنوية. قالت لي وهـــي تقدم لي الهدية: "هذه الساعة صينية الصنع، إنتاج من بلد شيوعي لكنها مع ذلك مباركة؛ لأنها مستجلبة من أرض مباركة مشـــى عليها النبـــي محمد خاتم المرسلين".

نظرت إليه قائلاً: "أهلا السي أفولاي..."، أيام الثورة ومحنة الجبل كنا نطلق عليه اسم "السي قادة".

لم يكن هو، أفولاي الذي أعرفه، عيناه فيهما شيء غريب!! وتذكرت أيامنا بمرها وحلوها وملحها.....

اللفت والقيلولة

أنا أفولاي:

طفلاً، كنت لا أحب أكل اللّفت مطبوخًا.

وكنت أيضًا أمقت ساعة القيلولة.

اللّفت والقيلولة للكبار فقط. أنا أحب المشمش وقهوة العصر والجري حافيًا فوق تراب الساحة العمومية الدافئ، فأثير الغبار من خلفي كالشيطان.

لماذا لا أذكر من كلام أمي لالة رقية بنت الخلوي سوى هذه العبارة، التي ما فتئت ترددها بمناسبة وبدون مناسبة وبصوت عال في حضرة والدي داود رشدي، وأمام الجيران نساء وذكورًا، شيوخًا وشبابًا: "أنت كنزي، ولا كنوز قارون تعادل وجودك". ثم تحتضنني بقوة حتى بلوغي الرابعة عشرة ويزيد.

ظلّت تردد عبارتها تلك حتى آخر أيامها. ماتت أمي رقية بنت الخلوي ولم تتجاوز الخمسين من عمرها، وعلى لسانها

عبارتها المفضلة: "أنت كنزي.. أنت كنزي، ولا كنوز قارون تعادل وجودك". ولشدة هوسها بكنزها، الذي هو أنا، وخوفها عليه، فقد نسيت ساعة صعود روحها إلى باريها أن تنطق بالشهادة، لولا أن أحد الحاضرين من حولها رفع لها سبابتها وقالها نيابة عنها وكررها ثلاث مرات، لولا ذلك لماتت كافرة ولَغُلِّقَت أبواب الجنة في وجهها السمح الجميل.

كنت أستغرب هذه العبارة التي تعشقها أمي، مع أنني أنا المقصود بذلك، فأقول بيني وبين نفسي: ما الكنز فيّ؟ وإذا كنت أنا "الكنز الذي لا تساويه كنوز قارون"، فلماذا يا ترى نعيش فقراء؟ ولماذا تطبخ لنا اللفت لسداد الرمق وأنا الذي يكره اللفت كرهًا شديدًا؟

"أنت كنزي"، كانت هذه العبارة هي الترس الذي لطالما وقاني من شرر سهام غضب والدي السيد داود رشدي التي يرسلها عليّ، كلما اقترفت سلوكًا غير لائق في عينيه وما أكثر ذلك، فبمجرد أن تسمع أمي صوته قد ارتفع تترك ما في يدها وتسرع صارخة في وجهه: "إنه كنزي الذي منحتني إياه السماء، لا تمسسه ولا ترفع يدك ولا لسانك عليه". وتحتضنني، أشتم فيها رائحة اللفت أو البصل أو الثوم أو بهارات رأس الحانوت. وعلى الفور يبلع أبي غضبه، مهزومًا يشعل سيجارة، يسحب منها نفسًا أو نفسين عميقين مع تنهيدة حارة، ويغير مجرى الحديث وينساني، فيرتفع بداخلي منسوب درجة الكبرياء، وأقتنع يومًا بعد يوم بأنني بالفعل "الكنز الذي لا تساويه كنوز قارون".

من هو قارون هذا يا ترى؟

ملك له مال كثير كثير ذهب بالقناطير المقنطـرة.. تقـول أمي!

أحببت أمي لأنها جعلتني أدرك قيمتي مبكرًا، وكنت أحب والدي لأنه جعلني بغضبه أَزِنُ ما فيّ من خيرات ونِعَم أصبها على أمي، فترتسم البسمة على وجهها كلما اسودت الأيام في دارنا.

كان أبناء القرية ينادونني باسم "كنزي"، وقد نسي الجميع اسمي الحقيقي "أفولاي". أما أنا فكنت أكره أن يناديني أحـدهم بهذا الاسم باستثناء أمي، التي كنت أجد فيه وهي تنطق به نغمًا خاصًّا صافيًا.

بعد مرور سنوات، وحين بلغت الثالثة عشرة من عمـري، وقبل أن تبعثني أمي إلى أختها لمواصلة الدراسة في القرية الرئيسـية التي توجد فيها الثانوية الوحيدة في المنطقة، عرفت "لماذا أنا كنـز أمي الذي لا تساويه كنوز قارون"؛ فأنا وحيـدها، لا أخ لي ولا أخت، وأكثر من ذلك أنني جئت قبل بداية سن اليأس لديها بسنة واحدة. وفي السنة الموالية حين اختفت عادتها الشـهرية نهائيًّـا، ودخلت في حالة من الكآبة والهستيريا، وزاد وزنها وقل بصـرها، وتعاظمت شهيتها لأكل البيض والفاصوليا وطحـين الخـروب، كانت تأخذني بين ذراعيها وهي ترتجف كأنما بها الحمى، قائلـة: "أنت كنزي.. أنت كنزي". تشهد على ذلـك عمـتي حليمـة رشدي التي كانت تفتخر باسمها العائلي وتقول لمن لا يريـد أن يسمع: "أنا بنت آل رشدي، من دم رشدي النقي الصافي، لست من دم الجراء اللقيطة آل الخلوي"، وكانت بذلك تقصد عائلـة أمي. كانت عمتي طويلة القامة، أطول من أخيها أي أبـي بمـا

يزيد عن عشرة سنتمترات أو أكثر، هي أطول سكان قرية حب-الملوك رجالاً ونساء. لم تتزوج عمتي حليمة رشدي و لم تعاشر رجلاً و لم تسافر يومًا خارج أسوار القرية، والرجل الوحيد الذي أحبته هو أخوها داود رشدي. كانت به معجبة و لم تكن تتردد لتقول العبارة التالية كلما سئلت عن كرهها للرجال وعن تأخرها في الزواج: "لو حلل لنا الله والرسول الزواج بإخوتنا لاتخذت من أخي داود زوجًا لي. هو الوحيد الذي يناسبني، رجل ونصف، حتى وإن كان أقصر مني طولاً". ثم تستغفر ربها، تُبسمل وتستعوذ من الشيطان، وتمضي إلى شؤونها. رفضت حليمة رشدي جميع من تقدم لخطوبتها، ظلت سعيدة بعنوستها وفخورة بها، هو اختيارها، قناعتها، تصرف أيام حياتها كالملكة، أميرةٌ تاجُها أبي، تسبح بأخيها داود في الصباح وفي العشية وعند المنام، حتى إن هذا الحب الأخوي الغريب أشعل حربًا بينها وبين أمي لمدة زادت عن ربع قرن، إذ كانتا لا تتبادلان الحديث طوال أيام السنة، ولا تقطعان هذا الصمت الإسمنتي بينهما إلا مع حلول أحد العيدين الدينيين، عيد الفطر أو عيد الأضحى، ففي صبيحة العيد تبارك الواحدة للأخرى العيد بكثير من القبلات والعناق الحار والاحترام والمحبة وطلب السماح، وفي صباح ثاني أيام العيد تعودان إلى المقاطعة المطلقة، تتموقع كل واحدة خلف متراسها، سلاحهما الصمت والنظرات والإشارات الحاملة للمعاني والمعاني المضادة. وكان داود رشدي، أي أبي، هو المستفيد من هذه الحرب الضروس بين المرأتين؛ إذ كانت كل واحدة منهما تبالغ في الاعتناء به كي يميل قلبه نحوها وتسلبه من الأخرى.

حين جئت الدنيا متأخرًا، أنا المدعو أفولاي رشدي، "أنـا كنزي الذي لا تعادله كنوز قارون"، استفردت عمتي بوالـدي واستفردت أمي بـ "كنزها الذي لا يفنى، أفولاي رشـدي". وبمجيئي توقفت فجأة الحرب التي دامت ربع قرن بين أمي لالة رقية بنت الخلوي وعمتي حليمة رشدي. وفي رمشة عين رفعت المتاريس ودخلت السهام الجراب وسكتت أصـوات المـدافع بينهما، بل إنهما تحولتا بقدرة قادر إلى ما يشبه الأختين الحنونتين، وبعدالة ورضا تقاسمتا الفضاء البيتي، كل واحدة اتخذت لها حيزها الخاص بها. يحتاج أبـي داود رشدي إلى شيء فلا يطلبه إلا من أخته أي عمتي، وعلى التو يجدها عند قدميه ملبية طلبه، وأحتاج أنا إلى شيء فتستجيب لطلبـي أمي حتى قبل أن أفصح عنـه، وهكذا عشت أنا في عسل أمي وعاش والدي في حرير عمتي.

وحين كبرت شعرت وكأن الحرب التي كانت بين أمي لالة رقية بنت الخلوي وعمتي حليمة رشدي انتقل لهيب نارها بـيني وبين أبـي.

أصبحت أغار من أبـي لأنني أشعر بأنه يعيش في هناء أكثر من هنائي وهو ممدد في حرير عمتي، التي على الرغم من طولهـا الزائد كانت جميلة وحريصة على نظافتها وأناقتها، ولها صـوت غنّاء شجي قادرة على تقليد أصوات كثير من الفنانين والفنانات العرب والأمازيغ، من أمثال ليلى مراد وفيروز وطاووس عمروش ونوارة وحنيفة، وتقلد بشكل مدهش أيضًا أصوات العصـافير، وتعرف أسماء أكثر من عشرين سلالة طير، كل طـائر باسمـه وبصوته. كنت أستمتع بصوتها وهي تحول حنجرتها إلى غابة من

غناء العصافير. في المقابل كنت أشعر بأن والدي داود رشـــدي يحقد علي لأنني سرقت منه زوجته نهائيًا؛ لأن غيابها جعله يحـــن إلى ساعات القيلولة التي فيها كانت تتأجج نار حبـــهما، وهـــو الذي عشقها وهام بها قبل الزواج، حتى أطلق عليه سكا القريـــة لقب "قيس". من أين جيء بهذا الاسم الغريب "قيس"؟ لا أحد أدرك معنى هذه التسمية ولا مصدرها. لقد رماه بها أحدُ الـــذين قرؤوا الشعر والكتب الكثيرة وعرف السياسة ومضى، ربما. ومن أجل الوصول للزواج بأمي رقية بنت الخلوي فقد عانى الكثير. لم يكن من اليسير إقناع أهلها بهذه الصفقة، خاصة عمها دحمـــان الخلوي الأعور الذي كان رجل دين، يحفظ القرآن كاملاً ذهابًا وإيابًا، والذي اشترط عليه أن يتوقف عن شرب النبيذ وعن لعب القمار الذي كان أبـــي مولعًا به، وقد غنم من ذلك بعض المال الذي اشترى به دراجة هوائية، وهي المركوب الميكانيكي الأول الذي دخل القرية فأدهش الجميع صغارا وكبارا، واقـــتنى بمـــال القمار بغلاً للحرث وبعض رؤوس الأغنام، وكسب منه مهر أمي وسافر إلى بلدان إفريقية بعيدة وأخرى شرقية بعيدة أيضًـــا. لا يتذكر أسماء البلدان ولكنه يتذكر جميع أسماء النساء اللواتي تعرف عليهن في هذه الأسفار. وقد حمل معه حـــين عـــاد إلى القريـــة حكايات وطرائف كثيرة وبعض التحف والهدايا الغريبة لخطيبته أمي رقية، كتلك الأفعى المجففة والمحشوة بالنخالة والتي لها رأسان وستة قرون، وزوج نعل مصنوع من جلد البشر الحقيقي، نعـــم نعل من جلد بني آدم، والذي بمجرد أن علم الفقيه دحمان الخلوي الأعور بذلك، أمر بتكفين النعل ودفنه في مقبرة المسلمين بوصفه

جزءًا من جسد بشر ميت، وقد صلى على الحذاء صلاة الجنازة.

كان والدي داود رشدي يشعر بأنني صادرت منه حقه في المبيت إلى جوار أمي رقية بنت الخلوي، وحرمته من مقاسمتها السرير الزوجي. وقد أصيب والدي بمرض غريب يسمى "فوبيا السرير"؛ إذ منذ أن جئت الدنيا "كنزًا لا تعادله كنوز قارون"، قررت أمي أن تتخذ لها سريرًا وحدها بعيدًا عن شخير والدي؛ فكنت أنا سلطان السرير، أبكي فتقوم مهما كان الوقت، ليلاً أم نهارًا، أول الليل أو مطلع الفجر، في الحر كما في البرد، لتجلس أمامي وتمنحني ما أريد وأكثر. وكان والدي الذي اتخذ من زاوية في الغرفة نفسها مكانًا للنوم، حين يشعر بحنين لجسد أمي يسحب مطرحًا من الإسفنج، يلقي به عند أسفل السرير وينام متكورًا على نفسه كأفعى باردة.

ولا تعيره أمي رقية بنت الخلوي أي انتباه.

جذور غيمة

أكره أكل اللفت المطبوخ.

وأكره ساعات القيلولة الطويلة. اللفت وساعة القيلولة للكبار فقط!

كان والدي حريصًا على أن لا أترك دراستي. كان يريدني أن أصبح ضابطًا بنجمة أو نجمتين. هي رغبة تسكنه منذ أن عين الشيخ رمضان الأعوج من قبل الإدارة الفرنسية قائدًا على قرية حب-الملوك. كان هذا القايد رجلاً مخيفًا، يمشي كالسهم على ساق من حديد، لا أحد يعرف كيف قطعت ساقه. كان والدي يريدني بنجمة أو نجمتين على الكتفين كي أدفع عنه ظلم "القايد" الشيخ رمضان الأعوج، والذي يشد على رقاب العباد بحبل متين لا ينقطع ولا يحول. كان والدي داود رشدي يحلم أن يراني واقفًا في لباس كاكي نظيف وبزوج حذاء عسكري خشن، أجوب أزقة قرية حب-الملوك فيرتعد مني القايد وتسبح

بـــي جماعته من لاحسي الصحون. أما أمي لالة رقيـــة بنـــت الخلوي فكانت تكره حتى أن تسمع كلمة "عسكر"، وتمقـــت الأسلحة وترفض الاستماع إلى أخبـــار الحـــرب الكـــبيرة أو الصغيرة، تهرب من مشاهدة تلك المناوشات التي تقع ما بـــين الجيران وتستعمل فيها العصي والهراوات والمناجل والمجرفـــات والفؤوس وغيرها. كانت تريد أن تحتفظ بـــي بالقرب منـــها. الحرب تقتل الحبيب والعزيز. تفضل أن أظل راعيًا للمعز، خادمًا للقايد الشيخ رمضان الأعوج، أقضي لـــه حوائجـــه المنزليـــة والخارجية، أسقي له بساتينه وأعتني بحمّام حصـــانه مـــرتين في الأسبوع وأرافق زوجته الأولى كل يوم جمعة، أشد حبل رصن البغلة التي تركبها، حتى باب المقبرة للترحم على أبيها الذي قبره بقبة كبيرة وببئر به ماء، قيل إن نبعه من عين زمزم التي حـــج إليها عشر مرات أو أكثر، وأشتري له تبغه المُعسّل، وأنفخ على نار مجمره، وأحضر له ماء وضوئه دافئًا، لا باردًا ولا ســـاخنًا، وأخبره بمواعيد رمضان بدقة، الإمساك والإفطار والسحور، من ليلة الشك آخر أيام شعبان إلى ليلة الشك آخر أيام الصـــيام، أخبره بتغير موعد ساعة الإفطار وساعة الإمساك دقيقة بدقيقة، أقف قبالة المسجد أنتظره متى ينتهي من صـــلوات التـــراويح، وأذكره بليلة القدر لأنها خير من ألف شهر، وأحمل له الشمعة كي يستدل في ضوئها على المكان الذي يقضي فيه حاجته، غير بعيد عن السور الخارجي لمزرعته الواسعة التي تقع على أطراف القرية، قبل أن يستعد لنومه وعند الفجر أيضًا... أقوم بكل هذا وأكثر ولا أذهب إلى الحرب.

الحرب مطحنة الأحباب.

كان والدي يكره القايد رمضان الأعوج، لا لظلمه ولا لكونه عميلاً للإدارة الفرنسية القاسية على الأهالي فحسب، بل لأنه كان يخاف من عينيه اللتين يرسلهما كالشرر على جسد أمي لالة رقية بنت الخلوي، كلما مر عندنا لمراقبة طبيعة غلة حقل القمح والشعير والذرة، وليعد بنفسه رؤوس الغنم والمعز تحسبًا للضرائب التي ستنزل علينا ككل سنة مع نهاية موسم الصيف. بداية شهر أكتوبر، كان القايد رمضان الأعوج يغتنم خروج والدي لقضاء شأن ما، فيجيء في غيابه ويدخل البيت راكبًا حصانه مرتديًا برنوسه الأحمر بنياشينه، ينادي على أمي فتخرج هذه الأخيرة على الفور وهي ترتجف، متعثرة في نعلها المطاطي، محاولة أن تستر سالفها الطويل الذي كان يميزها عن جميع نساء القرية، بأي منديل أو فوطة تصادفها في طريقها.

كان القايد رمضان الأعوج فخورًا بساقه الفولاذية التي تحدث موسيقى غريبة حين يمشي عليها فيثير انتباه جميع من حوله، مبتهجًا كثيرًا بأسنانه الذهبية الصفراء، أصفر لامع، نابان في الفك العلوي ومثلهما في الفك السفلي، يكشف عن ذهبه في حضرة أمي التي لم تكن ترفع نظرها إليه وهو على ظهر حصانه. كان يضحك ويكثر من الضحك كي تلمع أسنانه في فمه الواسع. وقد روّج القايد رمضان الأعوج في أوساط الفلاحين بأن أسنانه الصفراء الذهبية هي أسنان طبيعية، ينبتها الله في فم من أنعمت عليه فرنسا بمحبتها ورضاها، والقايد من هذه الفئة المحظوظة والمفضلة من الله ومن فرنسا.

وحين بدأ الناس في القرية ينسجون حكايات عن علاقة مشبوهة بين أمي والقايد رمضان الأعوج، زادت رغبة والدي في إرسالي إلى المدرسة العسكرية، قائلاً بحسرة وهو يشدني من كتفي ويهزني هزًّا، وقد كادت عيناه أن تفيضا دمعًا وتحشرج صوته:

- أريدك أن تكون بمسدس أو مسدسين وبنجمة أو نجمتين.

قارئ الرسائل

الجميع في القرية يقول عني بأن لي "رأسًا خفيفًا"، أي إن لي ملكة حفظ ولي ذاكرة قوية.

أصبحت، أنا أفولاي، أو "كنزي" كما تناديني أمي، وفي ظرف سنوات قليلة، الوحيد من أبناء القرية الذي يحسن القراءة والكتابة بالعربية والفرنسية. تعلمت اللغة الأولى في كتّاب القرية "قرية حب-الملوك"، من يا ترى سمّاها بهذا الاسم مع أن لا شجرة كرز تنبت ببساتين أهاليها؟ كل ما فيها من شجر هو التين والزيتون والخروب والدالية، من أين جاءها هذا الاسم إذن؟ لا أحد يعرف.

لقد تولى تعليمنا نحن أبناء قرية حب-الملوك والقرى المجاورة الفقيه أحمد أوحمدان، رجل هارب من بلاد الريف، يفتخر بأنه عرف الأمير المجاهد عبد الكريم الخطابي وشرب معه كأس شاي، وأنه حارب إلى جواره جيوش الإسبان وجيوش المخزن

الملكي، لا يستعمل هذا الفقيه اللغة العربيـــة إلا ســـاعة إقامـــة الصلاة، أو حين يختلي بنفسه لقراءة القرآن، أو حين يردد بعض الآيات كي يُحفِّظها للصغار الجالسين من حوله على الحصـــير المصنوع من الدّوم والحلفاء، والألواح بـــين أيـــديهم الصـــغيرة والقضيب الطويل في يده. يعتقد السي أحمد أوحمدان بأن العربية يجب ألا تلطخ بأوساخ الحياة اليومية، عليها أن تبقى لغة الجنـــة التي بها أنزل القرآن بآيات مصفاة كالعسل الحر، وأنها لن تعـــود إلى الجنة ملوثة من قبل أهلها يوم الحساب. أما في باقي أحاديثه اليومية فيستعمل الشلحية (تاشلحيت)، ومنه تعلمت هذه اللغـــة أي تاشلحيت. وفي ظرف أسابيع قليلة أصبحت أتكلمها بطلاقة حتى قبل أن أحفظ سورة الفاتحة، وأنا لا أزال أجلس على حصير الكتّاب. ولم تمض على ذلك سنتان حتى أصبحت مكلفًا بقراءة جميع الرسائل الواردة إلى أهالي القرية من ذويهم بفرنســـا، إذ لا توجد عائلة واحدة في الضواحي لا تملك أبًا أو ابنًا أو أخًـــا أو عمًّا أو خالاً أو قريبًا في ديار الغربة، على الضفة الأخرى مـــن البحر المتوسط، وأنا من يتولى كتابـــة الـــردود علـــى جميـــع المراسلات، أكتبها حتى دون الرجوع إلى صاحبها أو صـــاحبتها لطلب ما يرغب قوله لقريبه، فأنا أعرف جميع عائلات القريـــة، وأحفظ أسماء الأطفال والنساء والشيوخ، وأدرك ما قد يطلبـــه البعض من ذويهم في الخارج، كالسؤال عن الصـــحة وطلـــب إرسال بعض النقود لمصاريف رمضـــان أو أحـــد العيـــدين، أو إخبارهم عن موت عزيز أو ولادة طفل أو بنـــت، أو ذهـــاب أحدهم إلى الحج، أو موت بقرة أو عنزة، أو حفر بئر، أو سقوط

سقف بيت، أو مرض واحد... كنت أعرف القرية بتفاصيلها وأعرف حياة الأهالي ما ظهر منها وما خفي. وقد زادني اطلاعي على الرسائل التعرف إلى أدق الأسرار.. الحقيقة ليس للفلاحين أسرار كثيرة.

ثم تعلمت لاحقًا اللغة الفرنسية بمجهود واجتهاد خاصين، تعلمتها شفويًّا أولاً، وذلك من خلال الاستماع إلى أحاديث السيد أنطونيو غوميز، البرتغالي الثرثار الذي يروى أنه نزل بقرية حب-الملوك، قبل أن أجيء أنا هذه الحياة بسنوات، ليستقر وليبني فيها بمساعدة زوجته، وفي فترة قصيرة قياسية، بيتًا صغيرًا، لم يكن يملك حين نزوله بيننا سوى بغل وزوجته السيدة إيزيلدا غوميز الطيبة والجميلة الخجولة التي يعاملها كأنها ابنته. لكن لم تمض على إقامته سوى ستة أشهر حتى أسس مطحنة للحبوب أقامها على أطراف القرية على بعد كيلومتر أو أكثر بقليل، وما فتئت أن تحولت في ظرف أقل من سنة إلى فضاء يتجمع فيه يوميًّا ومنذ الصباح الباكر عدد من الفلاحين والأهالي، يقصدونها قادمين من كل القرى الصغيرة والمداشر المتناثرة المحيطة بقرية حب-الملوك، وذلك لطحن أكياس القمح أو الشعير لصناعة خبزهم وكسكسهم.

حين ازداد الطلب وكثر عدد الزبائن طلب السيد أنطونيو غوميز من أبي الاشتغال معه في إدارة المطحنة، وهو ما أسعده؛ إذ جعله ينفتح على عالم آخر ويرتاح من مشاهدة القايد رمضان الأعوج. ومن خلال علاقته بالبرتغالي تعلم والدي هو الآخر كثيرًا من الكلمات الفرنسية بلكنة برتغالية، وفي المقابل تعلم البرتغالي منه اللهجة العربية المحلية.

وبمرور الأيام نُسجَت بينهما صداقة عمّقتها أحاديثهما ونقاشاتهما التي لا تنتهي في أحوال البلد الاجتماعية والسياسية. بلد يشعر الجميع، يومًا بعد يوم، وكأنه يقف على حافة الهاوية؛ فالأخبار القادمة من المدن الكبرى وأيضًا تلك التي تحملها رسائل بعض المهاجرين ليست مريحة؛ فهي توحي وكأن أمرًا انقلابيًّا لا مفر منه يتشكل في الأفق.

هي الحرب ربما؟

خاطت الأيام علاقة عميقة بين والدي والسيد غوميز. لقد أصبحا لا يشاهدان إلا معًا، لذلك اندلقت ألسنة العامة في الأسواق والساحات العمومية، وكثرت تعاليق الأهالي على هذه العلاقة التي تجمع بين الرجلين، حتى إن بعضهم كان يقول مقسمًا بالله والرسول بأنهما شوهدا وهما يحتسيان كؤوس النبيذ والسبيرة معًا، ويأكلان الجبن الأزرق المعفن ولحم الخنزير المجفف وأشياء أخرى من المحرمات.

إلا أن حادثة مؤلمة ستهز فجأة هذه العلاقة وستزوبع هذه الصداقة، إذ ذات صباح، سهوًا أدخل السيد غوميز ذراعه الأيمن بين فكي الرحى بغرض تنظيف شفراتها الحادة من بقايا حبوب انزلقت إلى الداخل، وإذا بالمحرك يدور دون سابق إنذار ليطحن ذراعه حتى أطراف الكتف. نُقل السيد غوميز وعلى وجه السرعة وهو في حالة إغماء إلى قسم الجراحة الاستعجالية بمستشفى تلمسان العسكري، ولم يجد الأطباء الجراحون طريقًا لإنقاذ حياته سوى ببتر ذراعه اليمنى كاملاً حتى لوحة الكتف.

دخل أبـــي في حالة كآبة لفراق صديقه، ومعه فقد خفـــة الروح التي كانت تملأه منذ أن شرع في العمل بالمطحنة. كنـــت أزوره فأجده غارقًا في حزنه.

بعد العملية الجراحية، قضى السيد غوميز بضعة أســـابيع في المستشفى تحت الرعاية المشددة الجسدية والنفسية. وحينما شعر بحالته الصحية قد تحسنت قليلاً، عاد إلى قرية حـــب-الملـــوك مكسور الخاطر، وقد بدت على ملامحه آثار انهيار نفسي جارف. لم يتمكن من التصالح مع شكله الجسماني بـــدون ذراع، كـــان كطير مقطوع الجناح. اختفى عن أنظار زبائن المطحنة أزيد من ثلاثة أشهر، حاول فيها أن يسترجع ثقته بنفسه وأن يتصالح مع شكله الجديد، وهو الذي عرف بطرائفه ونكته وصخبه. في أول لقاء له مع والدي بعد العملية لم يتمكن مـــن رفـــع نظـــره إلى صاحبه. وأمام هذا الموقف الحرج بدا أبـــي هو الآخر مضطربًا. تعانقا وبكيا كطفلين، ومن يومها اختفت قهقهات السيد غوميز، وساد الصمت المطحنة، وعمّ الحزن زبائنها على ما آل إليه حال السيد غوميز من إحباط وعزلة. شيئًا فشيئًا وبإيحاء من الســـيدة إيزيلدا غوميز أصبح والدي يتولى جزء من إدارة المطحنة.

في غياب زوجها الذي انسحب من كل ما له علاقة مباشرة مع الزبائن، أصبحت السيدة إيزيلدا غوميز وبسرعة هي المركز، وهو ما عزز من إعجاب الفلاحين وتقديرهم لجديتها ونظامهـــا الصارم واحترامها للوقت وهوسها بالنظافة. كما أنها بدت أكثر تسامحًا من زوجها تجاه الفلاحين الذين لا يملكون مبلغًا يدفعونه مقابل طحن كيس القمح أو الشعير.

انتشر في القرية والمداشر المحيطة خبر انسحاب السيد غوميز من العمل من المطحنة جراء حادثة بتر الذراع، وتولي والـــدي مهمة التسيير إلى جانب السيدة إيزيلدا... ومع هذا الخبر اشتعلت نار الغيرة في قلب أمي لالة رقية بنت الخلوي.. الناس تعلق وأمي تشتعل.

تعددت زياراتي لوالدي في المطحنة، وكنت فخورًا إذ أجده مرتديًا وزرة زرقاء اللون، لباس من قطعة واحـــدة، الســـروال والقميص، وهو يحدث السيدة غوميز بفرنسية- برتغالية. كنت كلما زرته تأخذني هذه الأخيرة بين ذراعيها وتقول: "أنا مـــن سميتك أفولاي.. ستكون عبقريًّا مثل جدِّك أبوليوس..".

لم أكن أفهم شيئًا من معاني كلامها.. مـــن هـــو جـــدي أبوليوس؟

الأسئلة الكبيرة هي تجعلنا نكبر أكثر من الأيام والسنين.

مروج الفضة

أطاحت الغيرة بأمي. سكنت السرير، وتدهورت حالتها و لم أعد أنا "الكنز الذي لا تعادله كنوز قارون" لأرد عنها انهيار صحتها.

باتت أمي تهذي باسم السيدة إيزيلدا غوميز التي تقضي ساعات يومها كاملة، من الصباح حتى المساء، جنبًا إلى جنب مع أبي داود رشدي. وقد أصبح اسم البرتغالية على كل لسان لا يُذْكَر إلا مقرونًا باسم أبي وبأوصاف الطيبة والأخلاق والجمال. إنها امرأة تفيض أنوثة، تعتني كثيرًا بلباسها وبضفيرتي شعرها الذهبيتين، اللتين تحرص على أن تغطيهما بمنديل حرير لتقيهما من غبار الدقيق المتصاعد من المطحنة. وكان أحمر شفاهها ذو اللون القرمزي مثيرًا للجميع. كانت السيدة إيزيلدا غوميز أول امرأة تُرى في القرية بسروال دجين يشبه سراويل الرجال، وهو ما يعطيها إحساسًا بالثقة بالنفس.

منذ أن انسحب السيد أنطونيو من كافة الأشغال، مكتفيًا بين الفينة والأخرى بترتيب بعض الأوراق ومراجعة الفواتير والحسابات، قررت السيدة إيزيلدا أن تتولى بنفسها متابعة كل شؤون المطحنة. وبسرعة أصبحت تعرف الفلاحين جميعهم بل تعرف حتى أسماء زوجاتهم وأبنائهم وبناتهم وممتلكاتهم الصغيرة.

يعامل والدي السيدة إيزيلدا غوميز بكثير من الاحترام والرقة. ومع مرور الأيام نسجت بينهما علاقة تواطؤ، فكانت تحدثه وتشرح له بعض ما تقرأه في الصحف والمجلات، وهي الأحاديث التي فتّحت عينيه، شيئًا فشيئًا، على بعض الأحزاب السياسية الوطنية في الجزائر المستعمرة. ومن هذه البرتغالية سمع لأول مرة كلمة "الاستقلال" ووعي بُعدها، إذ قالت له ذات يوم وهي تتأمل بحزن عميق الفلاحين الفقراء الواقفين في طابور طويل أمام أكياس الشعير: "إذا استمرت الإدارة الفرنسية في هذه السياسة العنصرية، فإن أحداثًا أكثر عمقًا ستجرف البلد، أحداث أكبر من تلك التي وقعت في 8 مايو 1945. فرنسا ستفقد هذا البلد، فخصوم سياستها غير العادلة يتكاثرون يومًا بعد يوم، من المسلمين واليهود والنصارى، وستجد نفسها في يوم غير بعيد في حرب همجية تنتهي لا محالة بانفصال هذه المقاطعة عن المتروبول".

كان والدي يستمع إلى أحاديث السيدة غوميز كتلميذ في حضرة معلمته. ومن حواراتهما تحسنت لغته الفرنسية أكثر فأكثر، وكلما تكرست علاقته بالسيدة إيزيلدا كان يفكر في

مصير البلد وفي مصيري أنا ابنه، بل إنها هي التي كانت حريصة على متابعة تعليمي.

اللغة هي الطريق السالك إلى الأنثى. حين ترغب في الوصول إلى قلب امرأة عليك أن تتعلم لغتها، ونار الحب تُسهِّل وتُسرِّع من تعلم لغة المحبوبة محادثة وكتابة وصمتًا. وقد تمكن أبي من إتقان الفرنسية، خاصة حين بدأ في مساعدة السيدة إيزيلدا في متابعة الأوراق الإدارية الخاصة بالمطحنة، وهذا ما كان يزعج أمي ويؤرقها ويهدد صحتها ويرفع من منسوب درجة الشك لديها، فقد بدأت تتصور تفاصيل علاقة مشبوهة بين زوجها وهذه البرتغالية التي أكلت رؤوس الفلاحين الخاوية. إنهم هم الذين رسموا لها صورة مثالية في الانضباط والأخلاق العالية، والوفاء لزوجها المغفل الذي فقد ذراعه وأخذ جسده ينحف ويتآكل ويتلاشى قليلاً قليلاً.

كانت أمي تعتقد بأن أبي داود رشدي هو من دبر حادثة بتر ذراع السيد أنطونيو غوميز، بتآمر مع زوجته، كي يخلو لهما الجو.

تدير السيدة إيزيلدا غوميز المطحنة بيد من حديد، صباحًا باكرًا، في أيام الشتاء كما في الصيف، كان الجو قارسًا أو صهدًا كان، بانتظام يقف الفلاحون في صف طويل كصف تلاميذ السنة الثالثة ابتدائي، كل واحد بكيس حبوبه الجاهزة للطحن بين قدميه. في مثل هذا الوقت تكون السيدة إيزيلدا غوميز قد سبقت الجميع، بابتسامتها العريضة تصبحهم بالخير بالعربية وبالأمازيغية، ثم توزع عليهم كوبونات عليها أرقام

تسلسلية، كل حسب دوره وتكتب على كل كيس الرقم ذاته بطبشور أزرق، يبدأ بطحن أكياس حبوب القمح أولاً ثم يليه حبوب الشعير. يتابع والدي حركات السيدة غوميز متلصصًا على مشيتها التي تشبه الرقص، ثم وبإشارة منها يتقدم ليحمل على كتفيه الكيس الأول يضعه فوق صفيحة ميزان كبير. في اللحظة ذاتها تلقي السيدة إيزيلدا غوميز نظرة على أرقام مسطرة الميزان التي تحركها ذات اليمين وذات الشمال، حتى يرسو العقرب، تسجل وزن محتوى الكيس على طرف بطبشور أحمر، ثم وبإشارة من عينيها الزرقاوين في اتجاه والدي الذي لا تنام له عين في مثل هذه اللحظات، يرفع هذا الأخير الكيس ثانية على كتفه، وكي يفرغ الحبوب في محقن المطحنة عليه أن يتسلق سلمًا حديديًّا من ست درجات. بهدوء تختفي الحبوب في بطن المطحنة، لتنزل بعد لحظات من الجهة الأخرى في الكيس نفسه، والذي يكون قد وضع في فوهة الأنبوب الذي منه يخرج الدقيق. تحت نظرات السيدة غوميز يوزن الكيس ثانية، لتتأكد من أن وزن الدقيق هو نفس وزن الحبوب قبل الطحن، لا زيادة ولا نقصان. في الوقت نفسه يكون والدي قد صب كيسًا آخر في المحقن، تنادي على صاحب كيس الدقيق الجاهز برقمه وباسمه، فهي تعرف الجميع حتى من خلال نوعية أكياسهم. يسحب المعني كيسه، يدفع ثمن الطحن، وإذا لم يكن معه ما يدفع تخرج قلمًا من جيب مئزرها الأزرق، وتسجل قيمة الدَيْن على سجل كبير موضوع بعناية على طرف مكتب صغير علته بعض طبقات غبار الدقيق.

قَلَّتْ زيارات السيد غوميز إلى المطحنة، بل أصبحت نادرة. لم يعد قادرًا على تحمل نظرات الفلاحين إلى ذراعه المبتور ولا إلى سماع هدير محرك المطحنة. كلما دار المحرك تصوره وكأنما يدور ليفرم لحم ذراعه الثانية ويطحن عظمها. لمرات حاول مقاومة هذا الصوت لكنه بدأ يصاب بحالات هوس غريبة، حين يزور المكان لا يبرح كرسيه ملتزمًا مكتبًا صغيرًا موجودًا في أقصى المحل، في الزاوية اليمنى المقابلة مباشرة للباب، ثم شيئًا فشيئًا أضحى يخاف من صوت محرك المطحنة، يضع قطعتي قطن مبللتين في أذنيه للتخفيف من هديره، يتجنب المرور بمحاذاة الآلة قدر المستطاع، ثم لاحقًا انتقل للجلوس بعيدا إلى ظل شجرة وحيدًا حيث لا يصله صوت المحرك، وحتى إن أدركه يكون مخففًا، يقرأ الكتب ويدخن غليونه من الصباح حتى ساعة الغذاء، حيث يلتقي بالسيدة إيزيلدا زوجته يتناولان على عجل ما تكون قد حضرته البارحة ليلاً. تعود هي إلى شغلها في المطحنة وينسحب هو إلى ظل شجرة الزيزفون، يغير نظارته ويغرق بين صفحات كتابه الجديد.

ضرب السيد أنطونيو غوميز سياجًا على نفسه، دخل في دهاليز عزلة غريبة، يتجنب لقاء الأصدقاء ويتحاشى الحديث إليهم، وانقطع نهائيًا عن زيارة مقهى إسحاق الكوفاني التي كان لا يغيب عنها خاصة سهرات ليلة السبت، حيث في أرجائها كانت تسمع قهقهاته وتعليقاته ونقاشاته السياسية التي يدافع فيها وبشراسة عن الطبقة العاملة وعن الفلاحين وعن اليسار الإسباني والبرتغالي.

وجود والدي يوميًّا في المطحنة، في انسجام مع السيدة إيزيلدا غوميز، دفع الفلاحين إلى نسج تفاصيل قصة حب بين داود رشدي والسيدة إيزيلدا غوميز. وبسرعة تم تداولها بين الأهالي والنفخ فيها، كل راوٍ يضيف ما يحلو له من عنده، وهو ما زا من غيض والدتي وغضبها الذي وصل بها إلى مطالبة والدي بالتخلي نهائيًّا عن العمل في المطحنة، قائلة بصوت عالٍ: "إذا لم تقطع هذه المطحنة ذراعك الأيمن ثم الأيسر كما فعلت مع السيد غوميز، فلا محالة ستقطع شيئًا آخر من جسمك يوجد بين فخذيك!".

كانت أمي متيقنة بأن السيدة إيزيلدا غوميز قد بدأت في التسلل إلى قلب زوجها لتسكنه وتستقر فيه، لتسحبه لاحقًا إلى سريرها فتمنحه من ثمرات جسدها، ثم تأكل رأسه بعد أن تدفن زوجها المغفل والمجنون. ومع كل مساء، وبمجرد أن يتجاوز والدي عتبة المنزل عائدًا من عمله في المطحنة حتى تسرع أمي لتتشمم رائحته، محاولة العثور على ما يمكن أن يكون قد علق من بقايا البرتغالية على جسده أو لباسه أو شعره.

لم يعد أبي ليخفي إعجابه بذكاء البرتغالية وطيبتها، ولا يتردد في تعداد خدماتها الكثيرة التي تقدمها مجانًا للفلاحين الفقراء، ويمدح ثقافتها الواسعة التي تخرجها من أطنان الصحف التي قرأتها ولا تزال تقرأ أخرى.

لم تأكل الغيرة قلب أمي فقط، إنما وصلت ألهبة نارها الحامية إلى قلب السيد أنطونيو غوميز الذي ازداد هذيانه؛ فكان يستيقظ في منتصف الليل أو عند الفجر، يكشف على ما بقي

من ذراعه المبتور أمام زوجته ويصرخ قائلاً: "إنه ينام في سريري، الغريب ينام في سريري".

تأخذ السيدة إيزيلدا غوميز زوجها بين ذراعيها، تضمه برفق إلى صدرها، ثم تبكي معه بكاء مرًّا. يشهق الرجل كطفل ضائع في زحام شارع كبير، ثم يدفن رأسه في حضن زوجته ويستسلم للنوم، تتأمل وجهه الذي نحف وبرزت عظامه وتبدأ السيدة إيزيلدا في التفكير في والدي، تهجم عليها صورته، تحاصرها من كل الجهات، وبقدر ما كان زوجها يغرق في نوبات الهذيان المستمر كانت هي في المقابل تغرق في حضور والدي الجسدي والمعنوي، تُشدّ إليه بما يملكه من انضباط وأخلاق، وأيضًا لفتنة عضلاته المفتولة ولرائحة عرقه المثير.

كلما أحس والدي باقتراب لحظة سقوط السيدة غوميز في حضنه هاجمته صورة أمي فيتراجع، ثم يفكر في السيد غوميز فتبرد فرائصه، يبادلها الحديث فيرتجف جسدها الموسوق، تجتازه رعشة غريبة فتفقد أثر الريق في فمها ويظهر في صوتها إيقاع نغم غريب، تنظر إليه بعيني قطة بزرقة تشبه زرقة محيط سحيق بأمواج مخيفة قادرة أن تقلب أي بارجة واثقة بربانها، يخاتل نظراتها. كلما قاربا الوقوف على حافة السماء لا يجد والدي مخرجًا، وبطريقة مهذبة وغير مباشرة، سوى أن يذكرها بزوجها صديقه السيد أنطونيو غوميز مسترجعًا تفاصيل ذلك اليوم الذي فرم فيه محرك المطحنة ذراعه، وكيف أنه سمع صراخه الذي لم يسمع صراخًا مثله سوى صراخ لالة رقية يوم وضعت طفلها الوحيد الذي هو أنا، أفولاي رشدي أو كنزي. يطيل الحديث في وصف

تفاصيل يوم الحادث ويوم الولادة فتخمد نارها، تلـــمّ شـــعرها الذهبـــي ثانية في منديلها، ويبس ريق الوله في حنجرتها وتذهب لشأن ما وكأنما تؤجل المحاولة ليوم آخر.

الغواية بمعاركها؟

كان والدي، ودرءًا لما قد يقع وما تخطط له السيدة إيزيلدا غوميز يطيل الحديث معها أيضًا عن مستقبلي، وعـــن انشـــغاله بتعليمي، فهو يريدني مؤكدًا ذلك للسيدة غوميز ولـــدًا متعلمًـــا محصنًا قادرًا أن يسافر ويعيش في بلاد الغربـــاء، أن أصـــبح في مستوى الاسم الذي أطلقته عليّ السيدة غـــوميز "أفـــولاي أو أبوليوس". ويوم صارحها بأنه يريدني أن أصير عسكريًّا بنجمتين أو ثلاثة على الكتفين وبمسدس على الجنب، وبدبابة يسحق بهـــا القايد رمضان الأعوج، نظرت إليه وبهدوء قالت له وكأنما تعرف الحكاية بتفاصيلها: "أنت تريد أن تثأر لشـــرفك مـــن خـــلال ابنك؟".

حين سمع منها هذه العبارة أخذها لأول مرة بين ذراعيـــه، كانت ترتجف، ساخنة، جمرة.

كُرومْ-موزْ (متعهد دفن الموتى)

كانت السيدة إيزيلدا غوميز هي من أقنعت والدي بضرورة إرسالي إلى بيت خالتي مرجانة لمواصلة تعليمي الثانوي. خالتي مرجانة هي الأخت التوأم لأمي، تسكن في القرية الرئيسية باب النهار، وهو ما لم تعارضه أمي؛ فوجودي بين أحضان أختها التوأم يعني أنني في أمان تام، وهو ما يبعدني عن فكرة الثكنة والحرب التي تدور في رأس أبي والتي يرغب في إرسالي إليها، وهو ما يجعلها أيضًا تتفرغ لحكاية أبي مع إيزيلدا غوميز. وخالتي مرجانة تشبه أمي تمامًا، وتلبس مثل ما تلبس أمي، وصوتها شبيه بصوت أمي، وكانت تعشق أغاني الراي كثيرًا وتدخن خفية عن زوجها، وهي عادة لم تستطع التخلص منها منذ المراهقة. قد يتسامح الرجل الجزائري مع أي خطأ ترتكبه المرأة إلا تدخين سيجارة، فهذه من الكبائر التي لا يمكن التسامح معها؛ فتدخين سيجارة هو هدر للشرف أكثر حتى من الزنا.

في عين الجزائري: أن تدخن المرأة فهي مسترجلة وأكثر من زانية.

كانت خالتي مرجانة على خلاف دائم مع زوجها، بل على قطيعة شبه كاملة معه، فهي تنام في غرفة مستقلة أتقاسمها معها منذ نزلت بهذا البيت، ولا يلتقيان إلا للحظات حميمة، يقومان بافتراس بعضهما بعضًا على مطرح من الإسفنج مرمي في ركن بالصالون، يكون ذلك عادة ساعة القيلولة، قبل موعد عودتي من الثانوية. لاحظت ذلك إذ فاجأتهما على الأقل ثلاث مرات متتالية، ممددين فوق المطرح عاريين في وضعية الذئب والفريسة. من الذئب ومن الفريسة؟ كان ذلك في المناسبات التي يتغيب فيها أحد الأساتذة؛ مما يضطر الإدارة إلى إخلاء سبيلنا قبل الوقت بساعتين. وعلى الرغم من مرور سنوات تجاوزت العشرين على زواجهما إلا أنهما لم يرزقا بذرية، لا ذكر ولا أنثى.

يشتغل زوج خالتي "متعهد دفن الموتى"، ويطلق عليه في القرية اسم "كْروكْ-مورْ" (Croque-mort). وقد نسي الجميع اسمه الحقيقي بل ما عادوا يتذكرونه أصلاً. أما هو فقد تصالح بشكل كامل مع لقبه هذا ونسي هو الآخر اسمه الذي أطلق عليه يوم ولادته والمثبت في الوثائق الرسمية: السعيد أحردان.

لم تكن خالتي مرجانة على علم بطبيعة وحقيقة وظيفة زوجها قبل قرانها به. وقد فوجئت بذلك في اليوم التالي ليلة العرس حين أخبرها بذلك، وكان الفأس قد وقع في الرأس!

منذ الليلة الثالثة لزواجهما بدأت خالتي تشعر بالخوف والنفور من زوجها لرائحة غريبة تطلع من جسمه؛ فهي لم

تستطع استيعاب هذا الواقع الجديد الذي وجدت نفسها فيه. وقد بدأ النوم يهرب عن عينيها كلما همت إلى سريرها الزوجي متسائلة: "أهذا الذي يتمدد إلى جوارها، يقضي ساعات عمله اليومي، من الصباح حتى المساء، في تغسيل الأموات ونقلها ودفنها؟ أيعقل أن تكون لقمة عيشها وقطرة الماء التي تبلل بها ريقها من بركة الموتى وسخائهم؟". ما أن تفكر خالتي مرجانة في هذا الأمر حتى تنهار في نوبات بكاء طويلة، لتجد نفسها وحيدة في منتصف الليل واقفة على سطح البيت بسيجارة في الفم محدقة في النجوم أو في الفراغ.

"كْروكْ-مورْ" زوج خالتي رجل مدمن على تناول المشروبات الكحولية وتدخين الحشيش بكميات كبيرة، وربما هو السبيل الذي سلكه في بداية مساره المهني كي ينسيه التفكير في ماهية عمله الفجائعي هذا "متعهد دفن الموتى". كان الأمر صعبًا في السنوات الأولى، أما اليوم فقد تصالح كْروكْ-مورْ تمامًا مع وظيفته بل أصبح سعيدًا فيها وبها، وما إن يدخن سيجارة الحشيش الأولى حتى يتحول إلى كائن شفّاف ورائع، يرقص ويغني كالطفل وحده في الصالون، ويصبح رقيقًا مع خالتي مرجانة، يقبلها ويحتضنها أمامي، لا تنزعج منه ولا تتجاوب معه، تعامله كطفل طائش، ومع السيجارة الثانية يشرع في رواية سلسلة قصص الموتى الذين أشرف على دفنهم هذا اليوم، حكايات عجيبة لكن أكثرها، فيما أعتقد وهو ما كانت تؤكده خالتي، من صنع خياله الثري، فكثيرًا ما يخلط بين قصص أفلام يشاهدها وتفاصيل حياة أموات ردّ عليهم التراب. فعلى لسان

كْروكْ-مورْ حكايات الأموات العشاق واللصوص والأتقياء والمجهولين والتجار والصيادين، من الديانات السماوية الثلاثة من المسلمين والنصارى واليهود، كل يوم له حكاياته ولكل حكاية سيجارها من الحشيش، ولها ضحكتها وصمتها. كان ممثلاً وهو يحكي. في البداية كنت أشمئز لحكايات زوج خالتي، ولكن شيئًا فشيئًا بدأت أجد فيها متعة غريبة بل أنتظرها بشغف كل مساء، حتى إنني حلمت ذات ليلة أنني أصبحت "متعهد دفن الموتى" في مدينة كبيرة لم أتعرف على اسمها، وكنت سعيدا جدًّا في حلمي. ومن يوم الحلم ذاك أخذت أتشمم برغبة كبيرة رائحة تبغه الخاص التي لم أكن أعرف طبيعتها، لمرات عديدة كنت أستيقظ في منتصف الليل فأجد خالتي مرجانة تبكي وتعض على الوسادة بأسنانها، أفتح عيني نصف فتحة وأراقبها وهي على هذا الحال، أرتجف خوفًا، وأنتظر متى ستهجم علي لتفترسني. كنت متيقنًا أنني سأفتح عيني ذات صباح فأجدها قد التهمت طرفًا من جسدي النحيل!

يومًا بعد آخر بدأت أتصالح مع جو البيت الجديد هذا، بل إنني بدأت أشعر بالسعادة. أقضي خمسة أيام من الأسبوع عند خالتي في قرية باب النهار وأعود إلى بيتنا في قرية حب-الملوك يوم السبت والأحد، وكذا أيام الأعياد الوطنية والدينية وفي فترة العطل المدرسية الشتوية والربيعية والصيفية.

الذنب

السنوات تمضي بسرعة غريبة، هذه هي سنتي المدرسية الأخيرة التي أقضيها عند خالتي، سنة اجتياز امتحان البكالوريا، كل ما في الثانوية عادي جدًّا. زوج خالتي كْروكْ-مورْ يعتقد بأن المدرسة مضيعة للوقت، فالخبز يجيء كالقدر منذ ساعة المولد. أما أمي وخالتي فكانتا تريان عكس ذلك تمامًا؛ إذ إنهما كانتا تحلمان أن ترياني ذات يوم قريب ببزة طبيب أو معلم أو شرطي، المهم أن لا تأكلني الحرب، وذلك كان حلم جميع الآباء في القرية، باستثناء أبي.

كنت سعيدًا في المدرسة عند خالتي مرجانة وزوجها كْروكْ-مورْ، وأول سعادة عميقة شعرت بها هي ذلك اليوم الذي ركبت فيه ولأول مرة في حياتي سيارة، إنها سيارة نقل الموتى، والجلوس في المقعد الأمامي إلى جانب زوج خالتي كْروكْ-مورْ وهو في طقمه الأسود وربطة عنقه التي تمنحه بعض

الأبهة والاحترام، حين يكون خلف المقود يتلبس حالة من الوقار والجد، أحب زوج خالتي لأنه هو من علمني المبادئ الأولى للقيادة، لمرات كثيرة وفي ساعة الفراغ، كان يسمح لي بالجلوس في مقعد السائق خلف المقود وممارسة القيادة لأمتار وهو بجانبي يراقبني ويقهقه معلقًا: "سترثني في المهنة يا ابن داود". نعم مع كْروكْ-مورْ كنت سعيدًا جدًّا في سيارة نقل الموتى، أو وأنا أستمع إلى عشرات من حكاياته عن الموتى. ومعه وخفية عن خالتي مرجانة جربت السيجارة الأولى، سيجارة من ذلك التبغ الخاص، كان يقول لي وأنا أشد السيجارة بين أصابعي وأعض عليها بين أسناني: "اسحب نفسًا، اسحب نفسًا عميقًا يا ابن رقية بنت الخلوي". وأسحب نفسًا كما يأمرني، ثم أسعل وينفجر ضاحكًا مقهقهًا كالطفل.

"السيجارة كالمرأة وكالسيارة عليك أن تكون فنانًا في قيادتها، بين الفن والدقة". كان لا يفتأ يكرر ذلك كلما سمح لي بقيادة سيارة نقل الأموات لبعض أمتار أو كلما لففت سيجارة من تبغه الخاص!

"السيجارة والسيارة كالمرأة...". هذا أول درس تعلمته من كْروكْ-مورْ زوج خالتي.

ومع زوج خالتي شربت أول جرعة بيرة، وإذ وجدتها مرّة وكنت أعتقد أن مذاقها حلو كمذاق كوكاكولا أو أفضل، قاطعتها و لم أعد إليها إلا بعد سنوات عديدة من ذلك.

هذا الصباح التحقت بقسمنا تلميذة جديدة على الرغم من أننا على أبواب اجتياز امتحان شهادة البكالوريا، أستاذ الأدب

واللغة الفرنسية السيد ألبير جيرار القاسي والمتشدد في معاملتنا، والذي لا يتوقف لحظة عن الصراخ والتهديد حين يخاطبنا، ها هو يحدث القادمة الجديدة بصوت خافت، ناعم، فوجئ جميع التلاميذ لهذه المعاملة الغريبة للغريبة.

التلميذة الجديدة التي لها صدر بنهدين نافرين بدت خجولة، ضائعة، مرتبكة ومترددة، الأستاذ الذي تحول هذا الصباح بقدومها إلى كائن رقيق وشفاف، وهو الذي ظل ثلاث سنوات خلت جلفًا وقاسيًا علينا، اختار لها مكانًا في الصف الأول مقابل مكتبه المنتصب على مصطبة صغيرة مرتفعة قليلاً على مستوى أرضية القاعة، وضعها تحت عينيه الرحيمتين!

من طاولتي حيث أجلس في الصفوف الوسطى كنت أراقب التلميذة الجديدة، وكأنها كائن يحط على قسمنا من كوكب آخر. تدير رأسها ذات اليمين وذات اليسار لتتعرف إلى تفاصيل القسم، وباستغراب تتفحص بين الحين والآخر وجوه التلاميذ الذين يحيطون بها، ضفيرتها الصفراء التي تشبه حزمة سنابل القمح الناضج تنزل على ظهرها كشلال ضوء، قبل أن نشرع في الدرس قال لنا الأستاذ: "نرحب اليوم بتلميذة جديدة تلتحق بقسمنا واسمها: ساندرين بيجار".

لست أدري لماذا أثار فضولي وجود هذه التلميذة التي التحقت بقسمنا، وقد تجاوزنا منتصف السنة الدراسية ونحن في الثلث الأخير منها. لم تمض أيام كثيرة حتى عرفت من زوج خالتي كْروكْ-مورْ، الذي له علم اليقين حول كل ما يتحرك في قرية باب النهار، بأن ساندرين بيجار هي ابنة أحد القادة

العسكريين الكبار والمسئولين عن المنطقة الغربية، والذي تم نقله إلى هذه الجهة في إطار سياسة المواجهة الاستباقية لحركة يحضر لها بعض الفلاحين والشغيلة والبطالين وبعض السياسيين والنقابيين، والتي تجسدت من خلال ما يصدر عنهم من خطابات وطنية معادية لفرنسا، وقد أصبحت، كما يقال ويروج، تهدد النسيج الاجتماعي وتثير البلبلة وتشوش على السلم الاجتماعي.

تحضر التلميذة ساندرين بيجار في سيارة عسكرية بسائق يرافقها صباحًا حتى باب الثانوية، ثم ينتظرها عند الثانية عشرة ليوصلها إلى البيت، ثم يعود بها إلى حصة الزوال. وفي المساء مع انتهاء اليوم الدراسي يكون الدور على أبيها الذي ينتظرها محاطًا بمجموعة من حراسه العسكريين. لم يمض وقت طويل حتى أصبح جميع التلاميذ، خاصة من العرب والبربر والبرتغاليين، يخافون الاقتراب منها أو التحدث إليها، لا لشيء إلا لأنهم علموا أن أباها عسكري كبير يتحرك بمسدس أو مسدسين على جنبيه، وقيل إنه شوهد أيضًا وهو يسوق دبابة مجنزرة وسط شوارع القرية.

بدأت التلميذة ساندرين تشعر بحالة من العزلة؛ فالتلاميذ جميعًا يتجنبون صداقتها أو الاقتراب منها خوفًا من أبيها الذي يقود دبابة وله مسدس أو مسدسان! تُرى وحيدة في الساحة ساعة الاستراحة، لا أحد يكلمها أو يتجرأ لدعوتها إلى المشاركة في لعبة ما. هذا الوضع أثارني ودفعني، لست أدري لماذا، إلى التقرب منها والحديث إليها، بسعادة غامرة وغير متوقعة استجابت لمبادرتي، وقد عثرت أخيرًا على من يكلمها ويسألها

عن عائلتها وعن المدينة التي جاءت منها. لقد وجدها ثرثارة، حين تبدأ في الحديث عن أخيها جان بيير لا تتوقف، تذكر أسماء لعبه وحكايته مع الكلب سنوبي الذي ينام معه على السرير نفسه، متعانقين الفم في الفم، وأن سنوبي يعرف كيفية فتح الباب الخارجي، وكذا فتح صندوق البريد الذي يسحب منه يوميًّا الجريدة وما يصل عنوانهم من بريد عائلي، ويعرف السباحة ولا يخاف من الغرق لا في النهر ولا في البحر، ثم تنتقل إلى الحديث عن أصدقائها الذين فارقتهم في مدينة كولومب بشار بالجنوب، وتبدأ في تعداد أسمائهم واحدًا وحدًا، من البنات والأولاد، منهم النجيب ومنهم الكسول، ومنهم الشجاع والجبان. وكانت تقف عند كل واحد عارضة تفاصيل شخصيته وحكايات أسرته، وأنها كانت عضوًا في الفرقة الموسيقية لمدرستها، وحلمها أن تغني ذات يوم على منصة قاعة الأولمبيا بباريس. أنا لا أعرف لا باريس ولا قاعة الأولمبيا هذه!

شيئًا فشيئًا بدأت ساندرين بيجار تشكل حضورًا مهمًّا في حياتي اليومية المدرسية، ونحن على أبواب نهاية السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية، أحسست أنني أتعلق بها، وبدأت هي الأخرى ما إن تنزل من السيارة حتى تسرع ركضًا إلى الساحة بحثًا عني، وأكون أنا الآخر في انتظارها بشغف. تسحبني من يدي لنختلي جانبًا تحت شجرة الخروب الموجودة في أقصى الساحة التي تتوسط الثانوية. تمنحني قطعة شوكولاتة أو حلوى ثم تنطلق، حتى دون أن أسألها، في الحديث عن أمها صوفيا الإيطالية الأصل والتي أدخلوها السنة الماضية إلى مستشفى الأمراض العصبية بمدينة

وهران، وأن أمها لها صوت غنائي مبهر وقد كـــان حلمهـــا أن تكون مغنية أو راقصة باليه، وهي تعشق الفلكلور الصـــحراوي كثيرًا، خاصة موسيقى الإمزاد والقناوي المنتشـــرة في الجنـــوب بشكل عام، وفي مدينة كولومب بشار حيث كانوا يقيمون منذ أزيد من عشرين سنة، ثم دون رابط أو سبب تنتقل للحديث عن أخيها جان بيير الذي لم ينم الليلة الماضية نظرا لأوجاع ضـــرس العقل، ثم عن أبيها الذي يكره العرب والبربر والبرتغاليين مُرَبِّـــي البغال والحمير، وعن استعداده لقتل كل من يعارضه أو يقف في طريقه، وأن أمها وجدّها تخشيانه كثيرًا، وأنها شاهدته بأم عينها يهدد بعض العسكريين بمسدسه ويعذبهم في الساحة تحت شمـــس صيف كلومب بشار الحارقة... أحاديثها هذه كانـــت تخـــيفني لكنها لم تستطع أن تبعدني عنها. يحدث مرات وأنـــا ممـــدد في الفراش إلى جانب خالتي مرجانة أن أتصور والدها وهو يفاجئني معها ونحن في خلوتنا وهي تمنحني نصف علبـــة الشـــوكولاتة، فيخرج على الفور مسدسه ويطلق مئة رصاصة على رأســـي، ثم يركب سيارته صحبة ابنته ساندرين ويعود إلى بيته ليســـتمع إلى موسيقى كلاسيكية من محطة إذاعية إسبانية، ثم أتخيل زوج خالتي كْروكْ-مورْ يدخل المدرسة ليسأل عن سبب تأخري فيجـــدني ملقى على الأرض مضرجًا بدمي، لا يفاجئه موتي؛ لأن المـــوت قُوتُه، يحملني حتى دون أن ينزع السيجارة من فمـــه، يكفـــنني ويدفنني وفي المساء يحكي لخالتي حكاية الميت الجديد. ثم أتأسف لأنني لن أكون معهما كي أسمع حكاية موتي لأنني ساعتها أكون ممددًا في قبري الذي اختاره لي بعناية كْروكْ-مورْ زوج خالتي!

هذا اليوم، فرحتنا كبيرة وغير عادية، ساندرين وأنا وجميع التلاميذ، لقد أخبرنا المعلم السيد برنار جيرار بأن قافلة السينما المتنقلة ستحط غدًا مساء في الساحة العمومية في وسط القرية، وأننا جميعًا مدعوون وأولياؤنا لحضور العرض السينمائي. صرخنا جميعا وبصوت عال واحد: "سينما.. سينما.. سينما".

في صباح اليوم التالي، باكرًا، شوهدت سيارة دفن الموتى، يقودها كْروكْ-مورْ تجوب شوارع القرية وأزقتها ليعلن هذا الأخير عبر مكبر الصوت المربوط على سطحها عن استضافة القرية بعمدتها وسلطتها العسكرية لقافلة السينما المتنقلة، وتدعو المواطنين إلى حضور العرض السينمائي مع إشادة كبيرة بالفيلم المبرمج، كان صوت زوج خالتي مثيرا في مكبر الصوت، وقد شعرت بافتخار وسعادة وأنا أسمعه.

كما كان منتظرًا فقبل منتصف النهار حطت القافلة رحالها بساحة القرية الرئيسية، بباب النهار. كانت القافلة متكونة من شاحنة كبيرة وسيارتين صغيرتين ومجموعة من الرجال والنساء، استقبلها رئيس البلدية عند مدخل القرية وقدم التحية للمسئول عنها، وما هي إلا دقائق حتى انتشر في الساحة الرئيسية رجال بلحى وشعور طويلة، يشربون البيرة من القنينات الزجاجية مباشرة ويدخنون بشراهة ويتكلمون بأصوات عالية، وثلاث نساء نحيفات يرتدين سراويل دجين وعلى رؤوسهم قبعات من تبن.

في المساء، طلبت من خالتي مرجانة أن ترافقني لمشاهدة العرض السينمائي فوافقت على الفور؛ فخالتي امرأة فضولية وهي مثل أمي لا ترد لي طلبًا، بل شعرتُ كأنها هي الأخرى كانت

ترغب في مشاهدة هذا الفيلم الذي انتظر الجميع وصوله إلى القرية منذ أزيد من أسبوع. لم أعرض على كْروكْ-مورْ المجيء معنا؛ لأنه كان قد دخل في أجوائه الليلية بما فيها من سجائر تبغه المفضل وكؤوس النبيذ.

حين بلغنا الساحة العمومية، خالتي وأنا، والتي يقام فيها العرض، وجدناها غاصة تقريبًا بالجمهور، جلسنا في الصفوف الخلفية على مقعد جماعي طويل مصنوع من حطب، في حين كان الآخرون من الفرنسيين والمسؤولين بالبلدية والإدارة المحلية وبعض القياد من الأهالي ببرانسهم الحمراء يجلسون في الصفوف الأمامية، على كراسٍ فردية مريحة. كنت سعيدًا بوجود خالتي مرجانة إلى جانبي، وكانت هي الأخرى فرحة بمثل هذا الجو الذي يريحها ولو إلى حين من مجلس زوجها كْروكْ-مورْ.

انطلق عرض الفيلم بصورة لمجموعة من الفرسان على ظهور خيول مثيرة يركضون فوق إزار أبيض كبير ثُبِّتَ على جدار بناية البلدية، أحد الفرسان يحمل في يده حطبًا مشتعلاً عند الطرف، يركب حصانًا قويًّا، فجأة يخرج علبة سجائر من نوع وينستون، يفتحها ثم يشعلها مباشرة بواسطة الحطبة التي بطرفها لهب، يسحب نفسًا من السيجارة ويقول بفرنسية: "نكهة رائعة؛ وينستون أفضل وأجود السجائر العالمية". ونصفق نحن الذين يتفرجون في الخلف كما صفق الذين في الأمام، قلت في نفسي "ليست أفضل من سيجارة كْروكْ-مورْ!" بعد ذلك ظهرت امرأة جميلة على الإزار نفسه، لتعرض علبة أقراص "أسبرو" دواء سحري ضد أوجاع الرأس وآلام الأسنان!".

أراقب ملامح وجه خالتي مرجانة التي تتابع بلهفة الصور المتلاحقة، وفي الوقت نفسه كنت أبحث عن ساندرين من بين هذا الحضور المكثف. وقفت وأطلقت نظري على رؤوس الجالسين في الصفوف الأولى، وقبل أن يصرخ أحدهم فيّ من الخلف طالبًا مني أن أجلس لأنني حجزت الرؤية عنه وأفسدت عليه متعة المشاهدة، في رمش البصر ميزتها من بين الحضور بضفيرتها الصفراء الذهبية، كانت تجلس في الصف الأول إلى جانب أبيها الذي بدا في لباسه العسكري محاطًا بعمدة القرية، وبعض أعوان الإدارة الغامضين المخيفين والقياد الأهالي ببرانسهم الحمراء ونياشينهم المثيرة. عدت إلى مكاني بعد أن تأكدت أنها هنا، نسيت الشريط وبدأت أفكر فيها، فجأة توقف العرض، وقال أحد التقنيين بصوت عال دون مكبر الصوت:

"Entracte استراحة ربع ساعة"، لا أدري كيف تسللت ساندرين ما بين الحضور المكثف لأجدها تقف إلى جانبي، بيني وبين خالتي، وكأنما كانت تعرف موقعي بين هذا الحشد وبكل دقة.

كانت ساندرين سعيدة برؤيتي، وأنا أيضا كنت سعيدًا بوجودها، وخالتي أيضًا كانت سعيدة بل فخورة وهي تسمعني أكلم ساندرين بالفرنسية. كعادتي أخذت بكف يدها وضعته بين راحتيّ المتعرقتين، دافئًا وجدته. خالتي تسرق النظر إلينا وهي تشهد أني كبرت وأصبحت لي فتاة من نصيبي. فجأة وإذا بوالد ساندرين ينزل كالصاعقة علينا بطوله الشاهق وأزرار بزته العسكرية الذهبية تلمع في ضوء المصباح العمومي، صرخ فيها بفرنسية عسكرية: "ساندرين، ساندرين، مكانك".

سحبت ساندرين كفها الذي جمد على الفور وقد كان جمرًا قبل لحظات، واختفت من أمامي، تسللت ما بين الحضور تحت نظرات والدها الشرسة التي أرسلها تجاهي حارقة كالنّبالم.

عاد الجميع إلى أماكنهم، ساد الصمت للحظات، ثم بدأ عرض القسم الثاني من الفيلم. لم أعد أتابع الأحداث، ضاع مني خيط الحكاية، نسيت تفاصيلها واختلطت عليّ أدوار الشخوص فيها:

"تلميذ اسمه فرانسوا يعشق ممرضة اسمها ماترت تكبره بسنوات، تشتغل في مستشفى عسكري، تكون قد خطبت لشاب التحق بالحرب العالمية الثانية، في غياب العشيق تعيش حياتها بجنون مع عشيقها التلميذ، جميع من بالقرية يعرف علاقتهما، تحبل منه، إلا أن الحرب تضع أوزارها، بهزيمة الفاشية، يعود الخطيب المجند إلى القرية، يجد خطيبته في عيادة الولادة، تموت ساعة الولادة...".

لم أكن أتابع هذه الأحداث التي شدت خالتي بقوة حتى إنها لم تستطع إخفاء دموعها السخية، خاصة مع لحظات الولادة وموت البطلة. كنت أفكر في والد ساندرين ذي القامة العالية وكيف أنه لم يطلق على رأسي مائة رصاصة أو أكثر ومثلها على خالتي. حين انتهى الفيلم سحبتني خالتي مرجانة في الظلام وهي لا تزال تكفكف دموعها وانطلقنا بسرعة نحو البيت، قائلة: "سنجده، تعني زوجها كْروكْ-مورْ، قد نام دون وجبة عشاء". مع أن زوجها كان باردًا تجاهها إلا أن لخالتي قلبًا من حليب.

كانت حزينة أن ينام كْروكْ-مورْ دون تناول عشائه. لم أكن أستمع إلى ما كانت تقوله، بل كان رأسي مملوءًا بصورة والد ساندرين المخيفة.

لم أستطع أن أنام تلك الليلة، كنت أترقب طلوع أولى خيوط ضوء النهار، ومتى تحين ساعة الالتحاق بالمدرسة للقاء ساندرين، قلت في نفسي: ربما يكون قد قضى عليها والدها؟

صباحًا، وصلت قبل الوقت بكثير، وقفت عند باب الثانوية، متعبًا، وحيدًا متسمرًا على بعد بضعة أمتار أراقب قدوم السيارة السوداء التي تُقِلّ ساندرين يوميًّا، وما هي إلا لحظات حتى ظهرت، وكالعادة نزلت منها كالفراشة وضفيرتها الذهبية ترقص على ظهرها متدلية حتى خصرها، دخلت، دون أن تعير وجودي انتباهًا، أسرعت خلفها، حين لمحتني وببرودة كلمتني دون أن تمنحني كفها الصغير الدافئ كي أحضنه في راحتي، كما كانت تفعل كل صباح، قالت لي دون أن ترفع نظرها فيّ: "هل لك ذنب نابت مكان العصعص؟". لم أرد، لم أفهم، لكنها أضافت قائلة: "قال لي أبي البارحة، حين شاهدني واقفة إلى جانبك ويدي في يدك، أن علي أن أحذر من هذه الكائنات العربية والبربرية، فهي كما القرود تنبت لها أذيال طويلة مكان العصعص".

انسحبت خطوات إلى الخلف، لمست مؤخرتي، ركزت أصبعي على آخر فقرة في العمود الفقري، بحثًا عن ذنب قد يكون نابتًا ولم أنتبه إليه. وغادرت الثانوية على الفور.

قررت أن لا أعود إلى هذا المكان نهائيًّا.

حين دخلت على خالتي، رميت بالمحفظة جانبًا وقلت لهـا: "لن أعود إلى الثانوية ثانية"، لم تقل شيئًا وكأنما كانت تنتظر هذه اللحظة، جمعت ثيابـي وبعض أغراضي القليلة وقررت العـودة إلى قريتنا حب-الملوك، إلى بيت أمي وأبـي. لم تقـل شـيئًا، كانت مستمتعة بسيجارة بين شفتيها، وأخيرًا نطقت لتقول لي: "هل خفت من أن ينبت لك ذنب مكان العصعص يا ابن أختي التوأم؟"

المشي حافيًا

حين دخلت على أمي، ولم تكن تتوقع عودتي في مثل هذا اليوم، فلا اليوم يوم سبت ولا هو يوم أحد ولا هي بداية أيام العطلة المدرسية الصيفية، التي لا يزال يفصلنا عنها قرابة ثلاثة أشهر، نظرت إليّ، ولم تُبد استغرابًا، عانقت أختها مرجانة وقبلتها عدة مرات على الحنكين وعلى العنق، وبكتا، وبكيت معهما دون أن أعرف لماذا كانتا تبكيان ولا لماذا أنا الآخر كنت أبكي؟ مع ذلك فكرت وقلت بيني وبين نفسي أليس كْروكْ-مورْ هو من يكون السبب في هذه المندبة؟

نظرت إلى أمي لالة رقية بنت الخلوي وأختها مرجانة الجالسة بمحاذاتها، تعجبت لتشابههما المطلق، أول مرة أراهما تجلسان جنبًا إلى جنب، ولأول مرة أقدر حجم التشابه بينهما، في كل شيء، في اتساع العينين ولونهما اللوزي، واستدارة الوجه وطول الأنف، ولون البشرة المائل إلى البياض الحليبي، والخصر

المبروم مع بروز في الوركين وانحناءة الكتفين قليلاً، الشيء الوحيد الذي تختلفان فيه هو شكل الأقدام.

ألقيت بالحقيبة الجلدية التي تحوي بعض ملابسي، وبالمحفظة التي فيها دفاتري وكتبي غير بعيد من قدمي أمي، التي كانت تسأل أختها وتكرر السؤال نفسه بين الحين والآخر عن بطنها الخاوي الذي لم يكن رحيمًا بها، والذي خانها ولم يمنحها ذرية. سمعت أمي تقول ودمعها لا يزال ينهمر وهي تحتضن أختها مرجانة التوأم بين الفينة والأخرى وتمطرها بسيل من القُبُلات: أليست تلك المهنة الملعونة لزوجك، مهنة "متعهد دفن الموتى"، هي السبب في هذا البطن الفارغ اليابس، يا ابنة أمي ورفيقتي في ظلمة الرحم تسعة شهور؟ أليس من يعيش للموت ومن الموت لا يمكنه أن يمنح الحياة؟

كانت خالتي مرجانة حزينة وصامتة، تسمع كلام أختها أو لا تسمع، تفكر في الفراغ وهي تنظر إلى أصابع قدميها بتأمل عميق، كأنما هي تصلي. تختلف أمي عن خالتي في شكل أصابع القدمين، فأصابع أمي بها اعوجاج وتشوه على مستوى الأظافر، قدما أمي أكبر حجمًا من قدمي خالتي، فهذه الأخيرة لها قدمان صغيرتان مثل قدمي "ساندريللا"، التي قرأت حكايتها ثلاث مرات أو أكثر وأظفارها مقصوصة ومرتبة ونظيفة. أحب رائحة قدمي خالتي، في الشتاء حين كنا ننام على سرير واحد كنت أسحب على رأسي الغطاء الصوفي "البورابح"، حتى أتنفس رائحة قدميها التي ينبعث منهما عطر الصابون الحلبي أو الفاسي أو التلمساني.

تركت أمي وخالتي غارقتين في صمت يقطعه نوبات بكاء وتبادل القبلات، وأسرعت نحو الخارج. أشعر بأنني تخلصت وبشكل نهائي من المدرسة، أنظر إلى السماء العالية ثم إلى السهوب التي تمتد أمامي، وأشعر برغبة عارمة في الجري في الطرقات المغبرة. أريد أن أجري دون توقف، أجري حتى الأفق الذي لا أفق بعده، هناك بعيدًا، لم يكن أي أحد في الزقاق، قرية حب-الملوك فارغة، غبار وريح ساخنة ونهيق حمار قادم من أطراف البيوت يكسر الصمت. وجدت في نهيق الحمار كثيرًا من الأنس والحنان، الآن يبدو لي أن نهيق الحمار مريح كثيرًا. خلعت حذائي، تركته عند عتبة الباب ومشيت حافيا على الأرض الساخن ترابها، شمس أبريل حادة، شعرت وكأنني عدت إلى أناي، إلى مرآتي التي افتقدتها أو كدت. دخلت مرة أخرى في جسدي استعدت حرارة دمي، استرجعت قلبي وثبّت عيوني في محجريهما ومشيت على الأرض التي تمنحني الاتزان وحرارة الوجود.

الآن أشعر بحب عميق لقرية حب-الملوك، بعيدًا عن مدرسة ساندرين.

مرة أخرى، وبعد أن تأكدت من فراغ المكان من حولي، لا بشر ولا حيوان، أدخلت يدي تحت السروال، تحسست مؤخرتي باحثًا عن ذَنَب قد يكون نبت لي مكان العصعص. شعرت بشيء صلب وغريب فعلاً يتشكل بآخر الحلقة السفلى من العمود الفقري، وتذكرت ساندرين وكفها المتجمد في كفي الساخن.

ومن لحظتها بدأت أنتظر ظهور ذَنَب لي، كذنب القـــرد، وشغلني كيف أخفيه، وهل يمكنني بتره دون أن أموت؟

وأنا في الخارج أمشي حافي القدمين، أمشـــي وأفكـــر في "الذنب" الذي ينمو أعلى مؤخرتي، عند الحلقة الأخـــيرة مـــن حلقات العمود الفقري. وجدت نفسي ودون ســـابق تفكـــير، أمشي في اتجاه المطحنة الموجودة على أطراف القرية، أمشي قليلاً ثم أتوقف أدخل يدي تحت السروال وأتحسس العصعص. أجلس على حافة الطريق وأشرع في عدِّ النمل العربـــي والرومي وهو في صفوفه الطويلة المنظمة، التي تقطع الطريق الترابـــي بكل أمان ودون خوف، النمل العربـــي أسود اللون والرومي أحمر اللون، النمل العربـــي صغير الحجم والرومي كبير الحجم، كنت أريـــد أن أخبر أبـــي داود رشدي بأنني هنا، أنني وصـــلت إلى نهايـــة مرحلة وأريد أن أبدأ أخرى. كنت أريد أن أقول له إن من ينتمي إلى الكائنات التي لها ذنب مكان العصعص لا تليق بها المدرســـة. لقد خلقنا للغابة، كنت أنتظر أن أسمع منه عبـــارات الغضـــب واللعنة بكل ألوانها تهطل عليّ، وكنت أتوقع أنه ســـيمد يـــده ليصفعني لأنني قررت رسم مصيري كما أريده، وذلـــك بتـــرك المدرسة نهائيًّا دون الرجوع إليه واستشارته. وفجـــأة شـــعرت بالخوف من ردة فعله فقررت العودة أدراجي إلى البيت، وأترك لأمي أو خالتي مرجانة أن تتولى إخباره بقراري هذا. جلســـت وسط الطريق أراقب سطور النمل وهـــي تتحـــرك في انتظـــام عجيب، قمت ثم خطوت بعض أمتار عائدًا إلى البيت، ثم فجأة نظرت إلى قدمي العاريتين فوجدت شكل أصابعي شبيهة بأصابع

خالتي مرجانة، فعدلت عن فكرة العودة. لقد مـــنحني شـــكل أصابع قدمي وحركة النمل قوة عجيبة فقررت حل هذه العقدة مع أبـــي دون تأجيل، أن أرتاح من هذا الحمل، أن أكون حرًّا كالنمل، أن أخبره بقراري ثم لأستحم في جهنم غضبه، عاصفة وتُمرّ.

حين وصلت المطحنة حافيًا، كانت الساعة قـــد جـــاوزت منتصف النهار بقليل، لم يكن هناك أحد من الزبائن، المحرك نائم كعادته في ساعة القيلولة، صمت. على أطراف أصابعي دفعـــت دفة الباب الذي كان مردودًا دون قفل، خطوت نحو الـــداخل بعض أمتار، رائحة القمح والشعير والمازوت تملأ الفضاء، صف الأكياس يمتد من عند قدم المطحنة حتى الباب الخارجي. في مثل هذه الساعة يتوقف المحرك ما بين الثانية عشرة والواحـــدة زوالاً، استراحة محرك المطحنة، وهي في الوقت نفسه ساعة تناول الغذاء بالنسبة إلى أبـــي وللسيدة إيزيلدا غـــوميز. خطـــوت بعـــض خطوات أخرى داخل المحل، لا أحد في المكان، لا أبـــــي ولا السيدة إيزيلدا غوميز. أردت أن أنادي على أبـــي داود رشدي لكني شعرت بلساني ثقيلاً، وكأنما قُدّ من خشب أو خـــزف، ثم فكرت في مغادرة المكان، العودة أدراجي إلى البيت. حين هممت بالخروج سمعت ضحكة خافتة مصحوبة بحمحمة أنثوية خفيفـــة تجيء من أحد الأركان. سرت حتى آخر الفضاء، دفعت بـــاب أول غرفة صادفته أمامي، وإذا بـــي في حضرة والدي عاريًا تمامًا وهو يعصر جسد السيدة إيزيلدا غوميز، التي كانت تصرخ عاليًا كأنما هو يريد قتلها.

التفت والدي خلفه، وهو فوق السيدة، وإذ لمحني صرخ قائلاً: "من جاء بك هنا وفي هذه الساعة أيها القرد؟".

بعنف، صفقتُ الباب من خلفي ثم انطلقت، هربت من المنظر، عدت مسرعًا إلى البيت. لم تكن هناك سطور النمل في طريقي، خفت أن يلحق بي أبي فيأكل رأسي، لكن عبارته: "من جاء بك إلى هنا وفي هذه الساعة أيها القرد؟" ظلت ترن في أذني، وذكرتني بما سمعته من ساندرين: "هل لك ذنب مكان العصعص كما للقرود؟".

أدخلت يدي تحت السروال وبدأت أتحقق من ذنب القرد الذي ينبت لي، شعرت بالتراب ساخنًا تحت قدمي الحافيتين.

مديح الخيانة

بدا والدي داود رشدي معكر المزاج، هذا الصباح. قبل أن أخطو خارج البيت، أخذني من كتفي، نظر في عمق عـــينيّ، لم يتكلم، ظل صامتًا للحظات، سالت من عينيه دمعتان، مدّ يده إلى جيبه أخرج بعض أوراق نقدية، حاول أن يدخلها في جيب معطفي، رفضت تسلمها فأصر عليّ فأخذت منها ورقتين حتى دون أن أعرف قيمتهما. على مضض قبلتهما وأنـــا أفكـــر في شكل أصابعي قدميّ حافيتين في تراب تلك الظهيرة الســـاخن، وأستعيد صورته عاريًا وهو ينهش جسد السيدة إيزيلدا غوميز، وأستعيد صورة صفوف النمل العربـــي والرومي على طريقي إلى المطحنة، حملت حقيبة بها بعض ثياب خفيفة على كتفـــي، وتفاديت توديع أمي التي انهارت صحتها وأصـــبحت تهـــذي وتقول أشياء غريبة غير مترابطة، كان صوتها الباكي يصل حتى الباب الخارجي لمنزلنا العائلي، مرتبكًا انسحبت على أطـــراف

أصابعي وأنا أفكر في شكل أصابع خالتي مرجانة.

تواريت.

مشيت ذات الطريق الذي مشيته يوم اكتشفت والدي عاريًا، لكن النمل لم يكن هناك وأنا لم أكن حافي القدمين. كنت حافي القلب هذه المرة، فكرت في أن أعرج على المطحنة لأودع إيزيلدا لكني خجلت من نفسي لأنني كنت شاهدًا على ما كانت تفعله مع والدي، ثم أسقطت الفكرة من رأسي ربما لأنني لم أكن حافي القدمين، ولأن صفوف النمل لم تكن بالطريق الترابي. تابعت طريقي، الجو ربيعي مع نسمة هواء باردة قليلاً، وقفت قرب ظل شجرة صفصاف عتيقة أنتظر الحافلة العمومية التي تمر بالقرية مرة واحدة في اليوم. كان هناك بعض المسافرين ينتظرون أيضًا، رجال ونساء وأطفال وأقفاص دجاج وبعض العفش وسلال الغلال. تأخرت الحافلة أكثر من ساعتين عن موعدها، وتأخرها ليس بجديد، فهي تمر ما بين العاشرة والثانية زوالاً! حين ركبت واتخذت لي مقعدًا في الصف الأخير، شعرت لحظتها وكأنني ذاهب إلى ضياع، أحسست بالرَّجُل الجديد ينبت داخلي، كبرت بسرعة عجيبة، زاد عمري سنوات كثيرة ما بين لحظة الانتظار ولحظة الركوب! ودعت سن المراهقة نهائيًّا وأنا أصعد درجات الحافلة، دخلت في عمر آخر، سكنتُ شخصًا آخر لست أنا الذي كنتُه! أقلعت الحافلة المتهالكة، أنا أيضًا أقلعت، غادرتُني، نظرت إلى الصفصافة وإلى سماء القرية شعرت وكأني غيمة بجذور مبعثرة في الفراغ، أخذتني رغبة حادة في البكاء، لكن شهيق أمي الذي في أذني وارتجافة صوت والدي وأنا

أحدق في وجهه لأول مرة بعمق كأنما كنت أريد أن أحتفظ بصورة له في ذاكرتي، ربما تكون الصورة الأخيرة. انتبهت إلى أن شيبًا غزا شعر شاربه الفوضوي، صورة والدي جعلتني أكثر إصرارًا في المضي نحو الضياع الإيجابي، أن أغرق في متعة الاختفاء في انتظار الصحو القادم. تمنيت أن أكبر بسرعة؛ فالموت في سن متأخرة من العمر خير منه في سن المراهقة أو الشباب، لماذا يا ترى أفكر في الموت؟

الحافلة تسير وأنا أقول بيني وبين نفسي: "لن أعود إلى قرية حب -الملوك إلا بنجمة أو نجمتين على الكتفين، وأن ضياعي هذا أفضل من مواجهة هزيمة أبي وخوف أمي أمام القايد رمضان الأعوج".

مع آخر صورة لاحت أمام عيني لآخر بيت اختفى فجأة خلف التلال، وأنا أغادر القرية، تمنيت أن أعود ذات يوم إلى هذا المكان بمسدس مغروز في الحزام، فأفاجئ القايد رمضان الأعوج فوق سرج حصانه، أسحب المسدس وببرودة دم من ينتقم لأمه أطلق عليه سبع رصاصات، لماذا سبع رصاصات لست أدري؟ يهوي من فوق ظهر الحصان كحائط انهار تحت عنف زلزال، ومع صوت الرصاصات أسمع زغرودة تخترق سماء القرية، أطلق النار عليه وأنا أردد في نفسي: "تنظيف البلد من الاستعمار يبدأ بالإجهاز على الخونة من أبناء جلدتنا أولاً". ثم أشاهد سيارة زوج خالتي كْروكْ-مورْ متعهد دفن الموتى، ينزل منها مبتسمًا في طقمه الأسود متخفيًا بوقار محترف، يكفن جسد القايد رمضان الأعوج ثم يرحل به في اتجاه المقبرة.

الإنسان يكبر بالأسئلة المحرجة العميقة، سؤال واحد قد يجعلك تكبر عشر سنوات بمجرد طرحه؟ بعض الأسئلة تعلمنا أكثر ما تعلمه لنا الأيام في هذه الحياة المعقدة.

السؤال محنة كبرى.

الحافلة تبلع الطريق شيئًا فشيئًا وبصعوبة تزحف كالسلحفاة في المرتفعات، والركاب من حولي صامتون، جميعهم، لا أحد يتكلم، لا أحد يضحك أو حتى يبتسم، حيرة على وجوه الجميع. فجأة توقف محرك الحافلة عن الشخير والزفير وهي تتسلق ربوة، انعطف السائق بالمركبة قليلاً إلى اليمين، نزل متبوعًا بالميكانيكي والذي يقوم بمهمة الجابي أيضًا، لا أحد من الركاب تحرك من مكانه. بعد لحظات صعد السائق وأُخبر الجميع بأن عطبًا أصاب المحرك وسيحاولان إصلاحه بالسرعة الممكنة. لم يثر هذا العطب أي تذمر لدى الركاب، نزل الجميع وكأنما كانوا في انتظار مثل هذه الاستراحة حتى ولو أنها قسرية. شعرت بالراحة وأنا أستنشق هذا الهواء النقي. ألقى الميكانيكي سيجارته أرضًا بعد أن سحب منها نفسًا عميقًا ثم سحقها بعقب حذائه. كشف عن المحرك برفع غطائه، تصاعد دخان أسود ممزوج برائحة المازوت والزيت المغلي فلوث الفضاء، واقفًا على رأس أصابع قدميه الصغيرتين، بدا لي الميكانيكي قصير القامة، بالكاد يصل رأسه إلى المستوى المطلوب كي يدخل ذراعيه في أحشاء المحرك المعطوب، اختفى رأسه الأصلع نهائيًّا في بطن المحرك، ظل هناك، وبعد ساعة تقريبا رفع رأسه الذي بدا كبيرًا غير متناسب مع جثته، وكأنما ازداد حجم رأسه. كانت ذراعاه القصيرتان ملطختين بالزيت والشحم

الصناعي الأسود، وما هي إلا لحظات حتى دار المحـــرك، فبـــدا ارتياح على وجوه الركاب. وابتسم الميكانيكي بخبث وافتخـــار وأشعل سيجارة ثانية.

عاد الجميع إلى مقاعدهم وواصلنا الرحلة في اتجاه مدينـــة وهران التي لم يسبق لي أن دخلتها من قبل.

أتصور منظر أمي لالة رقية بنت الخلوي وهي تضرب على فخذيها وتجذب شعر سالفها صارخة: "سيأكل العسكر كنـــزي الذي لا تعادله كنوز قارون، ستأكله الحرب الغولة". أراها تغرق في فراغ سحيق، في جنون، وأكبر أكثر، أتسلق جبـــل العمـــر بسرعة فائقة وأنا أسمع صوتها المعطوب.

الكنز الغالي الذي كنته في عيني أمي والذي ظلت تحـــافظ عليه كبؤبؤ العين كل هذه السنين، ها هو يُسَلَّم لقمة سائغة إلى ثكنة عسكرية، يقدم هدية إلى "العسكرية الفرنسية" بكـــل مـــا تحمله هذه الكلمة من دلالات الموت والحرب والـــدم والعنـــف والكراهية والخيانة.

الحافلة تتقدم، ووصية والدي داود رشدي تـــرن في أذني: "تبدأ الحرب ضد فرنسا الاستعمارية أولاً من تصفية الخونة مـــن جلدتنا، والذين انحازوا إليها والتزموا صفوفها".

وها أنا ذا سأكون بعد ساعات عسكريًّا تحت رايتها؟

من الخائن يا ترى؟

من هو الخائن، ألست أنا أيضًا صورة أخرى للقايد رمضان الأعوج؟

إنه السؤال الذي جعلني أكبر بعشر سنوات في رمشة عين!

الحكاية وما فيها

كنت أعتقد دائمًا، وأنا طفل صغير، بأن والديّ لالة رقية بنت الخلوي وداود رشدي اللذين وُجدت في أحضانهما سيظلان معي إلى الأبد، وأنني سأجدهما إلى جانبي متى ارتحلت وحيث حللت، ومتى بكيتُ ومتى ضحكتُ، سعدتُ أو حزنتُ، وأنهما سيظلان تحت تصرفي متى احتجت إليهما، فهما المرفأ الآمن الأبدي الذي ألتجئ إليه متى تعبت من سفر، وأنهما سيكونان دليلي الخالد إلى طريق قد يضيع من تحت قدميّ أو إلى حضن دافئ قد أفقده في زحام الحياة العنيد.

لم أكن أتوقع يومًا أنهما سيتوقفان عند نقطة ما من طريقنا المشترك، وأنهما لن يستطيعا مواصلة المسيرة معي، وأنني سأنظر خلفي وبجانبي فلا أجد أثرًا لهما، وأنهما سينسحبان من الوجود ولا يبقى منهما سوى حكاية في أذني ترن وشبح في ذاكرتي المرئية يعذبني، وستظل ملتصقة بذاكرة أنفي بقايا ذلك

العطر العجيب، عطر بسيط لا أعرف اسمه، والذي كانت تفضله أمي. عطر يذكرني بعطر الجلنار أو زهر الرمان المتفتح في صحن منزلنا البسيط.

التفت من حولي وأنا أكبر وأهوال الحياة تكبر قليلاً قليلاً لأجد أناسًا آخرين كثيرين، غرباء، يشاركونني الطريق. يركبون العربة واحدًا بعد الآخر، وقد يركبون مثنى وجماعات، يلتحقون بالمسيرة ويمشون إلى جانبي، وبعضهم يشترك معي في أيامي وفي حكايتي، بل إنهم يحيكون بعض تفاصيل فصول حياتي هذه التي أرويها لكم، فهي جزء من حياتهم أيضًا.

بصمة الإنسان حكايته.

الرجل حكاية شوكية ومشوكة.

كل رجل هو قبل كل شيء عبارة عن حكاية ملفوفة في ورق الأيام.

يوزن الرجل بمدى تأثير الحكاية التي هي مرآته على المرأة التي تتربع على قلبه، والرجل دون حكاية ساخنة كالجمرة ليس جديرًا بالحب.

المرأة تعشق الرجل لحكايته أولاً، لا لطوله ولا للون عينيه ولا لماله، ولكل رجل حكاية يعض عليها بأسنانه القوية، حكاية هي السر، والحكايات كالرجال بعضها باردة المفاصل كيوم شتوي قطبي شمالي، وبعضها حارة كما هي سخونة رمال صحراء الربع الخالي.

يُعْرَفُ الإنسان من حكايته لا من بصمات أصابعه.

وهذه بصماتي!!

ابتسامة الملازم

قضيت الليلة الأولى في وهران بحمّام بحي المدينة الجديدة، بعد منتصف الليل يتحول الحمّام إلى مرقد شعبي، يهجم عليه المتشردون والسراق والباعة المتجولون وضائعون السبيل وبعض الريفيين... توضع المطارح الإسفجية على طول قاعة الاستراحة ولكل واحد مطرحه، غالبية الزبائن متعودون على المكان فهم يعرفون بعضهم بعضا، ولا أحد يتطاول على مكان الآخر، الحارس المشرف على المرقد الحمّام رجل خمسيني بعين واحدة، لا يتوقف عن الصراخ مطالبا كل من يدخل بتسديد الديون التي عليه.

لم أستطع أن أغمض عيني، توسدت حقيبتي التي بها بعض أغراضي وأوراقي الرسمية، وانتظرت حتى أُذّن للفجر، فصاح الرجل الأعور بالزبائن لإخلاء المكان، فالحمّام يبدأ في استقبال المستحمين مباشرة بعد أداء صلاة الفجر.

خرجت إلى الشارع، جلست في مقهى كان قد سبقني إليه بعض الزبائن من سائقي الطاكسيات والحافلات والحمّالون والغرباء. طلبت فنجان قهوة بالحليب مع سفنجة ساخنة مغمسة بمربى المشمش.

حين أعلنت المذيعة على أمواج الإذاعة من جهاز راديو يرسل بصوت عال موعد نشرة أخبار السابعة، تركت مقعدي وتوجهت نحو الثكنة راجلا، فهي لا تبعد عن هذا المكان إلا ببعض شوارع.

.....

دخلت عليه في مكتبه، قادني إليه أحد عسكري الحراسة الذين استقبلوني عند الباب الخارجي، مكتب متواضع تتصدره خارطة كبيرة ملصقة على الجدار إلى يمين الملازم، رفع عينيه نحوي، لم يطلب مني الجلوس، دون مقدمات قال لي:

- أنا النقيب ليفي النقاوة زمرمان، قائد هذه الثكنة.

سكنني خوف من كلمة "الكولونيل"!

- ما اسمك؟

قلت له:

- اسمي أفولاي رشدي، كنت أريد أن أضيف ولكني ترددت "... وأمي تسميني كنزي".

قال وهو يتفحص ملفي:

- من أي مدينة جئت؟

قلت له:

- من قرية حب-الملوك، غير بعيد عن مدينة تلمسان.

وتذكرت العسكري والد ساندرين، وخفت أن يطلب مني أن أنزل سروالي كي يتأكد من أن ليس لي ذيل ينبت في مكان العصعص، عند آخر فقرة في العمود الفقري.

حين سمع كلمة "تلمسان" ارتسمت آثار ابتسامة خفيفة على طرفي عينيه، تغيرت ملامحه، شعرتُ بـبعض الطمأنينة لابتسامته، ثم ما فتئ أن اختفى شعور الارتياح هذا. لا يبتسم هؤلاء العسكريون خاصة في وجه من هم أقل رتبة منهم، في وجه من ينبت لهم ذنب كالقرود، إلا ومن وراء ذلك احتقار.

يبدو النقيب ليفي النقاوة زمرمان في العقد الرابع من عمره، لكن جسمه النحيف والرياضي وقامته القصيرة تظهره أصغر بكثير من ذلك، وكأنه شاب تخطى العشرين بقليل. سألني وهو لا يزال يقلب بهدوء كبير أوراق ملفي بين يديه: ما الذي دفع بك إلى التفكير في الالتحاق بالحياة العسكرية الفرنسية؟ قالها بنبرة حزينة، وكأنما يقرأ تفاصيل مصير سيئ ينتظرني في منعطف السنوات القليلة القادمة.

كنت أريد أن أقول له: "إنها التلميذة ساندرين ابنة عسكري ضابط مثلك هي من دفعتني لذلك". ثم جالت في خاطري نظرات والدي وهو يهزني من كتفي مرددًا عبارته الحادة: "أنت حارس شرفنا". لكنني قلت له شيئًا آخر تمامًا: "تعجبني الحياة العسكرية بانضباطها، إضافة إلى ذلك فأنا بدون عمل وقد تركت الدراسة منذ فترة".

- لماذا تركت الدراسة؟ قال لي النقيب ليفي زمرمان.

قلت له: "أردت مساعدة والدي في عمله العضلي بالمطحنة".

- هل لكم مطحنة؟ قال الملازم.

قلت له: "لا لا.. إن المطحنة ملك للسيد والسيدة غوميز، والسيدة إيزيلدا غوميز امرأة طيبة تحبني كثيرًا، فبمجرد أن علمت أنني تركت المدرسة شغلتني إلى جانب والدي. كنت أقوم بكل شيء في المطحنة، من كنس غبار الدقيق إلى تنظيف المحرك، مرورًا بمرافقة السيد غوميز في جولاته المسائية في القرية، والذي فقد عقله وأصبح يهذي في الشارع. كنت أخاف من عباراته التي كان يطلقها عاليًا أمام الناس في حق والدي بأنه استولى على زوجته إيزيلدا، وأنه سيشتري مسدسًا وسيطلق عليه ذات قيلولة. هي حالات انهيار نفسي تنتابه بين الفينة والأخرى، ولكن بقدر ما كان السيد غوميز عنيفًا في بعض الأوقات كان أيضًا رقيقًا وشفافًا في أحيان أخرى، يمنحني كتبًا للقراءة ويعطيني خفية عن زوجته أوراقًا نقدية كثيرة، لكني كنت أرجعها للسيدة غوميز في اليوم التالي، خوفًا من اتهامي بأنني أسرق نقود زوجها، مع ذلك كانت تصر أن أحتفظ بها. لا أحبذ أن يكون مصيري كمصير والدي في مطحنة يأكل غبار الدقيق رئتي، أو يفرم المحرك ذات يومي ذراعي كما حصل للسيد غوميز".

كان النقيب يستمع لما أقوله باهتمام، ويسجل بقلم رصاص بعض الملاحظات على ورقة بيضاء، والملف لا يزال مفتوحًا أمامه، تحت عينيه.

بعد مقابلة دامت نحو نصف ساعة أو أكثر، نادى النقيب ليفي النقاوة زمرمان على جندي يبدو في سني تقريبًا، كان واقفًا بسلاحه عند مدخل المكتب. قدم هذا الأخير التحية العسكرية للكولونيل الذي أمره بمرافقتي إلى جناح الفرقة الثانية، وأن يعرفني قبل ذلك على بعض مرافق الثكنة، وبالفعل مررنا على ساحة التدريبات، ثم ساحة الرماية، ثم جناح الذخيرة العسكرية فجناح الإطعام، ثم جناح المرقد والعيادة. بعد الجولة مررنا بمخزن الملابس والأغطية، سبقني الجندي المرافق إلى الداخل، استقبلنا عسكري متقدم في السن، سلمه الجندي ورقة، وضع العسكري الشيخ نظارته ثم تفحصها بدقة، نظر إليّ دون أن يتكلم وكأنما يقيس بعينيه طولي وعرض كتفيّ، اختفى داخل المحل الكبير، وبعد لحظات عاد محملاً بين ذراعيه ألبسة عسكرية وزوجي أحذية وغطاء شتويًّا وحقيبة كبيرة فارغة، وضع الكل أمامه، ثم شرع في إدخال الأغراض في الحقيبة وهو يسجل ذلك في سجل كبير موضوع فوق طاولة خشبية عتيقة.

لم ينبس بكلمة واحدة، نظر إليّ ثم ناولني القلم الذي كان بين أصابعه، وطلب مني أن أوقع أسفل قائمة الأغراض التي انتقاها لي من المخزن، وقّعت وكتبت اسمي وتاريخ اليوم.

غادرت المخزن صحبة الجندي الذي رافقني حتى مدخل الإقامة، أي المرقد الخاص بالجنود. استقبلني مجند آخر قادني إلى سريري، الأسرة الحديدية كلها ثنائية أي من طابقين، واحد مثبت فوق الآخر. أشار إلى الخزانة الحديدية الخاصة بي وسلمني مفتاحها، ثم اختفى، نظرت إلى الأسرّة المنظمة بعناية،

وعلى الفور وضبت أغراضي في الخزانة. وشعرت بإحساس غريب: "ها أنا مستقل عن أسرتي، أوقّع أشياء بكل مسئولية، أملك مفتاح خزانة خاصة وسرير وأغراض باسمي".

هكذا بدأت إيقاع حياة جديدة في الثكنة، انقلاب جذري، وجوه غريبة من حولي وأخرى تنزلق إلى ذاكرتي، حين ارتديت لأول مرة اللباس العسكري نظرت إلى شكلي في المرآة لم أجد نفسي فيه غريبًا، وكأنني كنت ألبسه طوال العمر، كان اللباس جاهزا في رأسي منذ أن واجهتني ساندرين بعبارتها: "هل لك ذيل نابت مكان العصعص؟".

منذ يومي الأول في الثكنة، ومنذ الدقيقة التي ارتديت فيها اللباس الكاكي، ومنذ التدريبات الرياضية العسكرية الأولى، التي كنا مطالبين بالقيام بها في غابة السباع البعيدة عن الثكنة بعشرة كيلومترات ابتداء من الساعة الخامسة صباحًا، كل ما كنت أنتظره وبشغف كبير هو تلك اللحظة التي سأتناول فيها بين يدي مسدسًا.. مسدسًا حقيقيًّا. مسدس برصاص حي قادر أن يمنح الموت وأن يعيد الشرف المهدور، شرف أمي، وقادر أن يخلصني من هذا الذيل الذي ينبت أعلى مؤخرتي كما للقرود. كنت أقول في نفسي كلما وضعت رأسي على الوسادة: "متى سأغرز مسدسًا في حزامي وأمشي كما يمشي والد ساندرين؟ متى سأطلق أول رصاصة؟ على من سأطلق أول رصاصة؟ وأفكر في القايد رمضان الأعوج، أشعر بحرارة غريبة تتسلق جسدي، بأسراب نمل تمشي في رأسي.

يا إلهي، كم أنا سعيد ها هنا!

بسرعة أصبحت واحدًا من الجميع، مع شعور بنغزة غريبة في الجهة اليمنى للصدر بين الحين والآخر كلما انتبهت إلى الجنود الذين من حولي في قاعة التدريبات أو في المطعم أو المرقد. هذه النغزة كانت تؤلمني وتفسد عليّ الاندماج الكامل مع الآخرين، كلما حاولت أن أتصالح مع المكان الذي أنا فيه أشعر بغربة جديدة، لكن يوم مسكت مسدسًا بيدي ثم لاحقًا قطعة كلاشنكوف شعرت بسعادة ما، سعادة غريبة، وبدا لي الجنود من حولي كائنات تؤثث حياتي التي لم تصبح فارغة.

تصالحت أكثر فأكثر مع هذا المكان ومع بعض الرفاق المجندين، مع أن نوبات النغزة الحادة لم تفارق صدري، خاصة كلما تذكرت أبي داود رشدي وأمي رقية بنت الخلوي. في فترة وجيزة تعلمت القيادة وأصبحت قادرًا على أن أسوق سيارة جيب عسكرية كتلك التي كان يركبها والد ساندرين.

كلما جلست خلف مقود سيارة جيب لأوصل القائد ليفي النقاوة زمرمان في مهمة عسكرية ما في المدينة أو لمنزله، وقد أصبحت لاحقا سائقه المفضل، تذكرت تلك الليلة التي أرعبني فيها الضابط والد ساندرين بنظراته المخيفة، ليلة عرض الفيلم السينمائي الذي قدمته قافلة السينما المتنقلة على جدار بناية البلدية في الساحة العمومية لقرية باب النهار، فيلم لا أذكر من تفاصيل قصته شيئًا، مع أنه كان أول فيلم سينمائي أشاهده في حياتي، ولكن خالتي مرجانة تتذكر كل تفاصيله ولا تتذكر في المقابل شيئًا عن العسكري الكبير الذي أرعبني.

أفكر في الطفلة ساندرين كلما وضعت يدي على مقـــود سيارة الجيب العسكرية خضراء اللون. لم أستطع أن أنساها يومًا، صورتها وهي تمد لي يدها الصغيرة كي أحتضنها في راحتي كفي الكبيرتين لا تزال موشومة في ذاكرتي البصرية. وكلما دخلت إلى الحمام كنت أجد ساندرين تنتظرني تحت مرشاشة الماء تضحك بعفوية وبصوت عال تقهقه، أنظر إليها ثم أنظر إليّ، أمد يـــدي بخجل لأتحسس مكان العصعص كمن ينتظر أن ينبت له ذنـــب كذنب القرد، وأشعر بنغزة في صدري قوية.

الخليل

أوغسطين قيران، مجند قادم من أقصى الشمال الفرنسي إلى وهران ليؤدي الخدمة العسكرية، كما يؤديها الجميع من شباب جيله في المتروبول وفي المستعمرات.

سبقت أوغسطين إلى هذه الثكنة بعام وشهرين، وقد أصبحت أعرف تفاصيل الحياة فيها بدقة، فيها قمت بالتدريبات الرياضية، وفيها أُهِنتُ مرات كثيرة من قبل قادتني العسكريين، وفي سجنها قضيت ليالي وأيامًا عقابًا لي على تصرف طائش، وفيها أيضًا تعلمت قيادة الشاحنات العسكرية الضخمة، وفيها أيضًا تعلمت وبإتقان الرماية النارية الحقيقية، الرماية بالرصاص الحيّ، تحصلت على أعلى علامة في الرماية من بين كل مجندي دفعتي، بل رتبت الأول من بين الثلاث دفعات الموزعة على الثكنات الجهوية كلها. الضابط الذي كان يعلمنا اندهش لدقة التصويب التي أتمتع بها، كنت قادرًا على إصابة الهدف وأنا

معصوب العينين، قادرًا على إصابته وأنا أديـر لـه ظهـري. وتعلمت أيضًا رياضة ركوب الخيل ولم تثرني كثيرًا، كنت أميل إلى قيادة السيارات العسكرية والدبابات أكثر من ركوب الخيل وتطويعها. وفي الثكنة خارج أوقات التدريبات والالتزامـات الإدارية، كنت أفضل الذهاب إلى المكتبة الغنية بشتى المراجـع، حيث أقضي بعض الوقت في قراءة كتب التـاريخ والجغرافيـا وعلم النفس، لكني كنت أجد نفسي منشغلاً كثيرًا بـالخرائط، لست أدري لماذا عشقت كتب الخرائط، أقضي السـاعات في تدقيق مواقع البلدان وتحديد مواقع المدن والأنهار والجبال. قرأت كثيرًا من الكتب المصورة بالخرائط، بل أعدت رسم كثير مـن الخرائط بدقة على أوراق كبيرة، رسمتها بألوان تضاريسها. وقد أثار ذلك استغراب الضابط المكلف بإدارة المكتبة، وهو يتـابع حرصي على كل تفصيل في الخريطة، وقد كتب تقريـرًا ينبـه القيادة إلى أن شغفي بالخرائط مدعاة للشك، أنا الأهلي المسلم. وقد وقفت أمام لجنة خاصة جاءت خصيصًا مـن العاصـمة لمساءلتي عن خلفية هذه الرغبة، ولم يمنعني ذلك من مواصـلة هوايتي في اكتشاف مميزات البلدان والمناطق والمـدن. وكلمـا دخلت المكتبة واتخذت لي مكانًا بين رفوفها تذكرت أبـي داود رشدي، الذي كان معجبًا بالسيدة إيزيلدا غوميز لأنهـا قرأت، كما كان يقول باستغراب وإعجاب، جبالاً من الجرائد والمجلات والكتب. يوم سمعت هذه العبارة من أبـي تخيلـت هذه السيدة صغيرة الحجم بجسمها الرقيق، جالسة أمام جبـل بحجم جبل زندل أو فلاوسن ولكنه من الكتب لا من صـخر

وحصى وتراب. أعجبني هذا التصوير كثيرًا وأصبحت أتمنى أنا الآخر أن أرسم جبلاً من الخرائط الملونة.

منذ وصول المجند أوغسطين قيران إلى الثكنة شعرت بنوع من الاستئناس لوجوده، حضوره فك عني بعض عزلتي، أنا الذي وجدت نفسي محشورًا بين شباب من أصول أوروبية تربى كثير منهم على ثقافة العنصرية والإقصاء. كنت كلما شعرت بالمهانة والتهميش أفكر في مغادرة الثكنة، لكن قبل أن أقرر هجرة الحياة العسكرية نهائيًا أتذكر عبارة والدي داود رشدي بصوته الشجي القريب من البكاء، وهو يشدني من كتفي يغرس نظره فيّ ويهزني قائلاً: "تحريرنا من الاستعمار الفرنسي يبدأ بالقضاء على عملائه من أبناء جلدتنا"، فأتحمل لذلك قساوة الحياة العسكرية بما فيها من عنصرية. أستعيد صورة القايد رمضان الأعوج وهو ينظر إلى أمي نظرة الذئب الجائع، وأتحسس قطعة السلاح إذا ما كانت بين يدي ثم أقرر أن أبقى، أن أواصل على أمل أن أعود لأحرر أمي والقرية من ظلم القايد.

مع مرور بعض الوقت، أصبح أوغسطين صديقًا لي، نقضي أوقات الاستراحة معًا نتجاذب أطراف الحديث عن الحياة والأسرة والمدن التي أعرفها على الخرائط، وعن البحار وجمال هذه المدينة التي سقطنا في حبها: وهران.

كنا نتحدث عن وهران بالدهشة نفسها، فلم تعد تخيفني كما في الأيام الأولى لوصولي إليها.

كنت كثيرًا ما أجلس قبالة المجند أوغسطين أراقب بإعجاب حركاته وحواره الصامت مع الألوان وهو يقف قبالة اللوحة،

تائهًا بين غموضها أمام سماء وهران الزرقاء وشمسها التي ليس لها نظير وهو يريد أن يقبض عليها في ألوانه.

أوغسطين طبيب وفنان تشكيلي هاو، جاء وهران المدينة المتوسطية قادمًا إليها من مدينة صغيرة سياحية اسمها ويسترهام، المطلة على بحر المانش الغامض، جاء لأداء سنوات الخدمة العسكرية، نقلته باخرة مع مجموعة من المجندين من دفعته. طوال الرحلة البحرية وهم يقطعون البحر المتوسط كانوا يغالبون الخوف من المجهول بترديد أغنيات حماسية وطنية، ظلوا يرددونها جماعيًّا كل ليلة حتى مطلع الفجر، في المطعم أو على سطح الباخرة وهي تمخر بهم هذا المدى الأزرق، ما بين مرفأ الإقلاع بمدينة سَاتْ القريب من مرسيليا إلى ميناء الرسو بمرسى الكبير العسكري القريب من وهران.

على متن الباخرة جان دارك، يحلو لأوغسطين أن ينسل من بين مجموعة الشباب المجندين القادمين من كل أنحاء فرنسا، الذين يقاومون خوفهم من مستقبل غائم في بلد مجهول، بعضهم بالمبالغة في احتساء البيرة والنبيذ وبعضهم الآخر يقتل وقت الإبحار في قراءات روايات بوليسية سخيفة، ساعات قليلة وسترسو السفينة في مرسى الكبير العسكري بوهران، وستطأ أقدامهم أرضًا هي في مخيلتهم امتدادًا لواحدة من حكايات ألف ليلة وليلة، التي سبق وأن قرؤوها في مقرراتهم المدرسية، حيث بلد الشمس والرمل والحريم والعطش والفِيَلَة وسحر مصباح علاء الدين العجيب.

مع أول خيوط الشروق صباحًا وقبل الغروب أيضًا، يحلو للشاب أوغسطين أن يستقبل الشمس ويودعها بتأمل يشبه صلوة

الصوفيين، يتخذ له مكانًا قصيًّا على سطح الباخرة، يظل هنـــاك لبعض الوقت يحدق بدهشة في زرقة السماء التي تختلف تمامًا عن لون سماء نورماندیا الرمادية الغائمة طوال أيام السنة، سماء حانية تكاد تلامس الأرض، فيشعر الإنسان بأن في إمكانه أن يمسسها بأطراف أصابعه، البحر هذا الذي يركبه، البحر الأبيض المتوسط، له رائحة تذكره بأريج زهر شجيرات الميموزا التي تنبت علـــى أطراف بعض البساتين، رائحة لا تشبه أبدًا رائحة بحـــر المـــانش المطل من الجهة الشمالية على سواحل الأراضـــي البريطانيـــة، المملكة العظمى، لبحر المانش رائحة تشبه رائحة وحل حظـــيرة الخنازير.

لم يكن أوغسطين يحمل في حقيبته من أمتعة سوى أصباغه ورزمة من الورق المقوى وأقلام وألوان، وأشرطة أغان فولكلورية نورماندية، وأخرى لإيديت بياف وجورج براســـانس وجـــاك بريل، وبعض صور عائلته وصورة كلبه روكي وقد أنهكه المرض والشيخوخة والذي توفي بعد ذلك بأيام، بالضبط قبل ثلاثة أشهر من تسلمه استدعاء التجنيد.

لم يستطع أوغسطين رسم هذه السماء التي فوق رأسه، التي خلفت في عينيه دهشة، كان مأخوذًا بها مما أنساه الفرشاة وقلم الرصاص والأوراق والوقت.

هذه السماء لمتعة النظر لا للرسم!

جينيالوجيا الخيبة

لم يكن الرسم مهنة المجند أوغسطين، هي هواية تأكل أحشاءه منذ الصغر. درس الطب، وتخرج طبيبًا عامًّا، مارس مهنته لمدة ستة أشهر قبل الالتحاق بالخدمة العسكرية، كان ذلك في قرية سانت-ماري-دو- مون (Sainte-Marie-du-Mont)، وهي أول قرية حررها الحلفاء من قبضة الرايخ الألماني. اشتغل في عيادة عمومية تطل على الساحة العمومية، ساحة 6 جوان 1944، وكلما نظر إلى هذه الساحة كره الحرب، واستعاد كثيرًا مما رواه له جده، وما قرأه وما شاهده من أفلام وثائقية عن فداحة الحروب، وعن الموت القاسي وعن الخراب والكراهيات التي تخلفها في النفوس وفي المدن. ليست هناك حرب عادلة أبدًا، كل الحروب مدانة وقبيحة، دينية كانت أو مدنية أو عسكرية.

وها هو ذاهب إليها، ربما؟ فالأخبار عن الجزائر المستعمرة التي كانت تصل حتى شواطئ المانش غير مطمئنة.

بعضهم يقول: "لقد بدأت الحرب في الجزائر يوم انتهت في باريس. بدأت بمظاهرات 8 ماي 1945 بسطيف وقالمة وخراطة والتي قمعت بالرصاص، بدأت الحرب في الجزائر في اليوم الذي احتفلت فيه باريس بانتهاء الحرب العالمية الثانية وانتصار الحلفاء على النازية".

وهو يعبر البحر شعر أوغسطين برغبة جامحة في إعادة قراءة رواية **العجوز والبحر** لإرنست همنغواي، التي يحتفظ بنسخة قديمة منها أهدتها إياه، بمناسبة عيد ميلاده العشرين، طالبة أحبها وتقاسما الحياة الجامعية معا لمدة ثلاث سنوات. في سنتهما الأخيرة وقبل التخرج بثلاثة أشهر، قضت في حادثة سير مروعة، دهسها قطار وهي تهم باجتياز خط للسكة الحديدية دون حاجز، كانت تحضر لامتحان التخرج، ومنذ ذلك اليوم أحب أوغسطين روايات إرنست همنغواي، ظل اسم هذا الكاتب مرتبطًا بذكرى عشيقته، و لم تفارق هذه النسخة يومًا حقيبة أسفاره ومحفظة دروسه الجامعية، يقرأ منها كل مساء تقريبًا بعض فقرات، حتى كاد يحفظ الرواية كاملة عن ظهر قلب، ومن كثرة تقليب الكتاب فقد اهترأت أوراقه وأصبح كأنما هو مخطوطة تعود إلى قرون خَلَتْ.

كان أوغسطين يساريًّا رومانسيًّا، لم يكن منتظمًا حزبيًّا في صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي، الذي كان يحتل مكانة كبيرة في الإعلام والنقابة والنقاش السياسي العام، ولكنه كان يقرأ بعض المنشورات الحزبية التي تقع بين يديه بطريقة غير منتظمة، باستثناء جريدة **لومانيتي** التي كانت تصل بانتظام صندوق بريد

جده السيناتور بيير قيران. كان الجد شيوعيًّا ثرثارًا، يؤمن بالشيوعية إيمانًا دينيًّا، ويحج كل سنة إلى موسكو كأنما يؤدي واجبًا دينيًّا، يأخذ له صورًا في الساحة الحمراء وأمام ضريح لينين. قضى الجد حياته عضوًا نشطًا في الحركات النقابية الخاصة بمناجم الفحم، حيث عمل على ما يزيد عن ربع قرن في أعماق خنادق مناجم الشمال الفرنسي، يقضي ساعات يومه في الاستماع إلى نشرات الأخبار، ينتقل بسمعه الثقيل من محطة إذاعية فرنسية إلى أخرى دولية، متعاطف مع القضية الفلسطينية وحركات التحرر الإفريقية، يشرع في احتساء البيرة في الساعة الحادية عشرة والنصف، ثم يتركها ليبدأ في تناول شراب الكالفا Calvaعند الساعة السادسة مساء. لم تكن جريدة **لومانيتي** التي يصر الجد كل سنة على تجديد اشتراكه فيها، من باب الوفاء، لتثير فضول قراءة أوغسطين كثيرًا، وكان جده يغضب منه لأنه لا يولي يوميته المفضلة العناية المطلوبة. ونزولاً عند رغبة الجد كان أوغسطين يقرأ بعض مقالات **لومانيتي** الثقافية والعلمية على قلتها.

حين يتحدث الجد بيير قيران في أي موضوع، مهما كان، من الطبخ إلى البحوث النووية والرحلات الاستكشافية الفضائية والأحوال الجوية والمقابلات الرياضية، لا ينسى أن يبدأ كلامه بـ: "كتبت جريدة **لومانيتي** اليوم عن... أو قالت **لومانيتي** البارحة، أو ذكرت **لومانيتي** كذا وكذا... أو أكدت **لومانيتي**...". لا يتحدث إلا واستشهد بجريدة **لومانيتي**، وإذا ما اعترض عليه أحد الحاضرين أو خالفه الرأي أو كذّب ما جاء في

الجريدة، يقوم على الفور من مجلسه، يختفي قليلاً بين رفوف مكتبته المرتبة في فوضاها، ثم يعود فرحًا مبتسمًا والجريدة بين يديه، يعرض أمام الجميع صفحاتها، حيث جل المقالات مسطر عليها بالأحمر والأزرق، فهو يقرأ ويعلّم على ما يراه مهمًّا أو مثيرًا أو ما يجب عليه إعادة نقله وبأمانة إلى أفراد الأسرة والأصدقاء على مائدة الغذاء أو العشاء. للجد السيد بيير نظارة خاصة يستعملها ساعة قراءة جريدة **لومانيتي**، لا يفتح الجريدة قبل أن يمسح جيدًا زجاج النظارة، ثم وبهدوء ملكي يلبسها!

هذه الليلة يجلس الشاب أوغسطين قيران في ركن بالبار الموجود في سطح الباخرة العسكرية جان دارك التي تقلهم إلى وهران. يصغي بعمق إلى أحد المجندين وهو يؤدي أغنية في مديح الحرية، وذكر عظمة فرنسا ومجدها؛ فيتذكر على الفور جده الشيوعي المناهض للفكر الكولونيالي، وينتبه إلى أنه وبعد ساعات قليلة سترسو سفينتهم على شاطئ بلد بعيد عن نورماندیا، بلد مستعمرة على الضفة الأخرى للبحر، وأن شعب هذا البلد الذي يسمى الجزائر فاقد حريته، ويعيش منذ أزيد من قرن والربع قرن تقريبا تحت القهر والتمييز.

كان يسمع صديقه المجند يغني، ولكن صوت همنغواي وفرانتز فانون هما اللذان كانا يسكنان رأسه. هذه الساعات الأخيرة على متن هذه الباخرة شرب فيها كثيرًا، شيء ما تحرك في داخله، إحساس بالرفض، صوت يدعو لمراجعة الذات. كان يستعيد بعض ثرثرة الجد وهو يتكلم عن العدالة والاشتراكية والتحرر، وأن ما قامت به بريطانيا في الهند وما تقوم به فرنسا في

إفريقيا وفيتنام هو استعمار وخرق لحقوق الإنسان، هذه المرة يشعر بحضور صوت جده قويًّا، مدويًّا في رأسه، ها هي ثرثرته تتحول إلى حكمة، وها هو صوته الشجي بعد الكأس الثالثة لمشروب الكالفا يسكن قلبه وفكره مع حنين غريب.

الباخرة تطلق صفير الاقتراب من الميناء، تهجم صورة الجد بيير عليه، تسكن خياله، يتذكر صباح موته حين دخلوا عليه وجدوه ممددًا فوق سريره، وجريدة **لومانيتي** بين يديه وقد سقطت على وجهه فأخفته، وكأنما هو من يخفي عينيه خلفها قصدًا كطفل يخاف أن تنهره أمه. جدران غرفته مزينة بصور ماركس وأنجلس ولينين وموريس طوريز وإلزا تريوليه وبول إيلوار والساحة الحمراء.. صور مظاهرات عمالية بأعلام حمراء وشعارات ضد البورجوازية وضد الشركات الرأسمالية العابرة للقارات.. الصور التي رافقته قرابة نصف قرن تبدو حزينة. حين رفعوا الجريدة من على صفحة وجهه، بدا مبتسمًا في موته وكأنما ينظر إلى تلك الصور التي تحيط به من كل جهة وهي تحتفل بالبروليتاريا.

كانت جدتي فرانسواز التي يطلق عليها جدي لقب "البورجوازية" واقفة عند رأس جدي، تخفي دمعة وحيرة. لم تكن تتوقع أن زوجها سيموت يومًا. من هم مثل جدي لا يموتون. ارتدت على الفور لباسًا جميلاً أسود اللون، يشبه لباس الممثلات الإيطاليات، وهو اللباس الذي أحضرته معها ضمن ألبسة العرس، جهاز العروس، كانت مستعدة لمثل هذه اللحظة منذ زمن. ولتمنح لحضورها وقارًا مبالغًا فقد لبست زوج قفاز أسود،

ووضعت شالاً حول عنقها وقليلاً من مساحيق التجميل على وجهها، وصبغت شفتيها بطبقة باردة من أحمر الشفاه القرمزي، الذي كانت تفضله خاصة حين تسهر في بار الحي مساء كل يوم سبت، أي عطلة نهاية الأسبوع. كانت واقفة وقفة مستقيمة عند رأس جثة زوجها حاملة حقيبة يدها، وكأنما هي على سفر مستعجل أو أن سائق تاكسي ينتظرها عند باب المنزل، أو كأنما تترجى زوجها كي يقوم من موته ليأخذ بذراعها ويخرجان في جولتهما المسائية، يمشيان المسافة ما بين ساحة البلدية حتى باب السوق المغطى، لتنتهي بهما خطواتهما في الأخير أمام كنتوار البار لشرب كأسي بيرة وتدخين سيجارتي غولواز، ثم العودة ثانية إلى المنزل متأبطة ذراعه للحاق بموعد بث المسرحية الإذاعية المسلسلة **البخيل**، على أثير الإذاعة الفرنسية الدولية.

كانت جدتي فرانسواز النورمادية تعشق جدي ذا الأصول الإسبانية عشقًا جنونيًّا، فيه الغيرة وفيه الخيانة، لا يشعر الإنسان بالخيانة إلا إذا كان يحب أحدًا حبًّا جارفًا. الشعور بالخيانة هو في الوقت نفسه شعور بالعشق للغائب.

امرأة نورمادية بورجوازية تتزوج شيوعيًّا إسبانيًّا، كان من الصعب قبول ذلك في أعراف العائلات النورمادية العريقة، المعروفة بزراعة التفاح وصناعة مشروب السيدر التقليدي الأصيل، لكن جدتي كانت امرأة ثائرة على تقاليد الأسرة المحافظة، تكره تناول عصير التفاح السيدر ولا تحب أكلة السناجق ولا الكرشة النورماندية التي تصنع بطريقة خاصة جدًّا، مع ذلك كانت لا تتردد في الاعتراف لجدي بأنها نامت مع

مصلح ومنظف المدفأة المنزلية الغازية، والذي أفسد بياض أغطية سريرهما بالسحم والرماد، وكانت سعيدة لذلك الرماد على الشراشف البيضاء التي تصعد منها رائحة الصابون المعطر. كانت جدتي تنتظر بداية كل فصل خريف، حيث يمر عامل التنظيف لتهيئة المدفأة لبرد الشتاء، ولكي يبث الفوضى ويترك الرماد على سريرها وفوق جسدها... وكان جدي بمجرد أن يعرف أن منظف ومصلّح المدفئات الغازية قد مرّ بالبيت، يشرب قنينة من شراب الكالفا، كأسًا وكأسًا وكأسًا، ثم يختفي من البيت أسبوعًا كاملاً لا يعود إلا وقد زادت في عمره سنوات كثيرة. أين يا ترى كان يختفي جدي في مثل هذه الغيابات السوية؟ يقال إنه كان يركب أول قطار يصادفه في المحطة، من قطار إلى آخر، لا يتوقف إلا في آخر محطة على الحدود الفرنسية الإسبانية، ومنها يركب حافلة إلى قريته المسماة **غرنيكا**، حيث يقيم ما بقي من أسرته على جبل غير بعيد، يقضي بعض أوقاته في ثرثرات ليلية مع شيوعيين متقاعدين يشربون النبيذ ويتحدثون عن ستالين وعن فرانكو، وفي النهار يتبع قطعان الحمير والمعز إلى المراعي في الضواحي، وفي ساعات القيلولة يجالس بعض العاهرات المغربيات اللواتي يقمن في الأنحاء يقمن بتحضير وطهي الخبز الأمازيغي التقليدي المحشو بالزيتون الأخضر، ويبعنه لزبائن البارات مع كميات من الحشيش المهرب من منطقة الريف.

ومع أن جدي كان يغار على جدتي البورجوازية كثيرًا، ويعرف أنها تخونه مرة واحدة في السنة مع عامل تنظيف المدفأة المنزلية الغازية، إلا أنه لم يستطع فراقها وظلا معًا حتى مات

وجريدة **لومانيتي** بين يديه. كان بعد أن يتطهر في غرنيكا من غيرته في سهرات مع العاهرات المغربيات، يعود إلى جدتي فرانسواز البورجوازية مستسلمًا، وكانت تستقبله بالأحضان باكية من الشوق إليه، وتقبله على فمه وكأنما كان على سفر برغبته وأنه لم يكن قد غادرها غضبًا أو حزنًا. كان يعجبها فيه أثر رائحة العاهرات على ألبسته الداخلية وعلى ياقة قميصه وفي فمه، وكانت تمنعه من الاستحمام مدة أسبوع حتى تستنفد تلك الرائحة بكاملها.

كانت مكتبة الجد الصغيرة والمتواضعة مثيرة بما احتوته من بعض الكتب السياسية الماركسية، ومنشورات الدعاية للطبقة البروليتارية والإشادة بنضالها التاريخي، وهي عبارة عن ثلاثة رفوف خشبية تتصدر مدخل الشقة، صنعها بيده وظل يعتني بها حتى حين ضعف نظره كثيرًا ولم يعد قادرًا على القراءة. كان يجلس أمامها يأخذ كتابًا يتعرف إليه من غلافه، يمسحه بيده ثم يبدأ في تصفحه ورقة ورقة دون أن يقرأ منه حرفًا. يظل أمام الكتاب ساعة أو ساعتين دون أن يقرأ منه حرفًا واحدًا. كان حين يجلس أمام مكتبته كأنما يصلي خاشعًا وعميقًا وصامتًا. يقول لجدتي ضاحكًا بحزن: "بعد فقدان البصر يمكنني قراءة الكتب وجريدة **لومانيتي** بتشمم رائحة الحبر على الأوراق، رائحة الحبر تتكلم، تنطق لمن يحسن الاستماع إلى أصواتها". أما جدتي فلم يكن شغلها ولا همّها هذه الكتب الماركسية ولا رائحة حبرها، لقد كانت مهتمة أكثر بألبستها وبالعناية بالسلحفاة التي تربيها منذ ثلاثين سنة، تطعمها الجزر وأوراق السلاطة الخضراء،

لكن بمجرد أن فقد جدي البصر أو كاد حتى شعرت هي الأخرى بنوع من الكآبة، التي تجسدت بشعور بالبرود تجاه الزيارة السنوية الخريفية المنتظرة لعامل تنظيف المدفأة الغازية. ورغم هذه الكآبة إلا أنها ظلت تعتني حتى آخر أيامها بجمالها وأناقتها ونظافة أسنانها. انطفاء رغبتها الجسدية التي تسبق موعد مجيء عامل تنظيف المدفأة عوضتها بالزيادة في شرب كمية كبيرة من الجعة، والاستماع إلى المسرحيات الإذاعية المسلسلة.

....

أخيرًا دخلت الباخرة العسكرية جان دارك ميناء المرسى الكبير غرب وهران، قلبي يدق، الباخرة ترسو وقلبي ينتفض، وأنا أفكر في جدي بيير قيران فتسكنني صورته جالسًا كالكاهن على كرسي من حديد عند أسفل رفوف كتبه الماركسية، وهو يمسح براحة كف مرتجفة على أغلفة أجزاء كتاب **رأس المال**، واحدًا بعد الآخر، كأنما يربّت على شعر عشيقته في غفلة ممّن حوله، في مكان عمومي يشبه قاعة انتظار بمحطة قطار ثانوية بقرية منسية.

البهية

كلما حدثني عن جده ازداد أوغسطين قربًا مني، إلى قلبي.

.....

لم يسبق لي أن عرفتُ مدنًا غير ويسترهام مدينتي الساحلية الغامضة التي بها ولدت ودرست وعُمّدتُ. ولاحقًا عرفتُ مدينة باريس التي فيها عشقت وفيها أيضًا درست الطب ومن جامعتها تخرجت طبيبًا عامًّا. طوال سنوات الدراسة الجامعية التي دامت ست سنوات، كنت أستقل قطار الخامسة والأربعين دقيقة صبيحة كل يوم اثنين من محطة كاين إلى محطة سان-لازار بباريس، رحلة تدوم ثلاث ساعات تقريبًا حين لا يكون هناك تأخر أو عطب ما، وأعود من ذات المحطة مساء كل يوم جمعة في الرحلة ما قبل الأخيرة لأقضي عطلة نهاية الأسبوع في أحضان الأسرة. أستمتع بكلام جدي عن شرور الجنرال فرانكو، وما قام

به ضد الشعب الإسباني وقوى المقاومة من الجمهوريين والشيوعيين والديمقراطيين، وعن فظاعة الحرب العالمية الثانية التي شارك فيها على شواطئ نورماندیا. وكان عضوًا في كتيبة الجنود الذين حرروا مدينة رانفيل القريبة من الساحل النورماندي يوم 6 جوان 1944، وهي أول مدينة تم تحريرها من قبضة الجيش الألماني النازي بمساعدة الكتيبة رقم 13 من الطيارين البريطانيين.

كنت أقضي عطلة نهاية الأسبوع في رسم بورتريهات لأفراد العائلة: الأطفال بشعرهم الأصفر، والفتيات بضحكاتهن المغرية، والنساء بحشمتهن الدينية، والرجال برغباتهم الشرسة في مزيد من المشروبات الكحولية القوية. وحده جدي الذي كنا نسميه "فرانكو"، نطلق عليه اسم عدوه اللدود حتى نثير غضبه أكثر. في البداية كان يغضب ولكن مع مرور الأيام استأنس بالاسم وتصالح معه. كلما هممت بوضع بورتريه لجدي كان يصعب علي التقاط شيء ما غامض يستقر في أعماق ماء عينيه، بذلك كان يبدو لي عصيًّا على التصوير؛ لأن شيئًا ما فيه يتبدل كل لحظة، بمجرد أن أقبض على خصوصية في ملامحه حتى تختفي لتظهر أخرى. كان رجلاً بأطياف متعددة، شبحًا، كائنًا هلاميًّا، مع ذلك هو أكثر أفراد الأسرة من رسمته في وضعيات مختلفة، غاضبًا، ضاحكًا، سكرانا، وهو يغني النشيد الأممي، وهو يرقص، وهو يقف وقفة تحية العلم، وهو يسب جدتي، وهو يغازلها، وهو يحلق وجهه، وهو يقلم شاربيه، وهو بطقم الكنيسة التي كان يكره الذهاب إليها يوم الأحد، وهو في المطبخ يحضر أكلة شعبية إسبانية أو باسكية أو قشتالية لا أحد يأكلها إلا هو، ومع أنه

كان أكثر الذين رسمتهم من أفراد العائلة، إلا أنني لم أنه في حياتي لوحة واحدة له، هناك دائمًا شيء ما ينقص في اللوحة...

يوم مات جدي كانت بغرفتي أزيد من خمسين لوحة من البورتريهات التي خلدته فيها، وقد قررت جدتي إتلافها كلها؛ لأنها تقول إنه لم يكن وفيًّا لها و لم يكن يحبها: "لو أنه كان يحبني لكان قد قتلني بمجرد أن يتخطى منظف المدفأة الغازية عتبة البيت".

كانت جدتي تشك في أن فرانكو أي زوجها كان على علاقة مشبوهة مع واحدة من راهبات الكنيسة، روسية الأصل، تدعي أنها من سلالة القيصر الذي حكم سان بيترسبورغ.

حين وصلت وهران ممتلئًا بحكاية جدي كان صباحها دافئًا، وزرقة بحرها مدهشة، المدينة تحرسها القديسة سانتا كروث التي ترفع ذراعيها للسماء في توحد معها، بجلال ينتصب تمثال السيدة القديسة على قمة الجبل المطل على البحر وعلى المدينة، متذرعة للإله طالبة منه أن يوقف الحرب التي يبدو وكأن شبحها المخيف يقبع على بعد شهور قليلة. من عشرات السنين والقديسة سانت كروث تستقبل وتودع قوافل البحارة الرائحين أو العائدين في غنائهم الشجي تارة، والصاخب تارة أخرى، وبغنائمهم الوافرة أو البسيطة، وتصلي لهم صباح مساء كي لا يأكلهم الموج وكي يكون خيرهم وصيدهم وفيرين.

.....

حسب الوصية، فتحت رسالة جدتي فرانسواز البورجوازية بمجرد أن وطئت قدماي أرض هذه المدينة الإفريقية التي بدت لي

على خلاف ما كنت أحمله من تصورات عنها، فلا جمـــال ولا فِيلة، ولا مروضو الأفاعي ولا أسود ولا فهود ولا أكلَة البشـــر، ولا بشر بأذناب كالقردة. مدينة وهران مدينة جميلة بمرفئها تشبه أجمل المدن الفرنسية، توأم مرسيليا ونيسْ وكانْ وغيرها.

قرأت رسالة جدتي التي لم تكن سوى عبارة عن جملتين:

"صلّ للعذراء وسامح خطيئة أمك التي أخفت عنك اســـم أبيك، فأنت ابن لأب من تلك القارة التي تنزل فيها اليوم".

فجأة تغير شعوري تجاه المدينة، وكأنني جئـــت إلى هـــذه المدينة لا لكي أؤدي الخدمة العسكرية، ولكن للبحث عن أبـــي الذي جرفته مياه الأزمنة وصمت النساء.

من لحظتها، ومنذ أول خطوة خطوتها فوق هـــذه الأرض، كنت كل من ألقاه أمامي من أهل البلد ممن أتصورهم في عمـــر والدي، من جيله، أحدق جيدًا في ملامح وجهه، وأحـــاول أن أقيم مقارنة بين شكلي وبين هذا الواقف أو المار من أمـــامي، في الطول ولون العينين والشعر، أنا متأكد أنني سألقاه إن ليس اليوم ففي غد.

الناس هنا يشبهونني!

جاءت ثلاث حافلات عسكرية نقلتنا على الفور من الميناء العسكري بالمرسى الكبير إلى إقامة عسكرية، عبارة عن مجموعة من الشاليهات توجد بوسط وهران عند مدخل الحي العربـــــي المسمى حي "المدينة الجديدة". وزعونا على مجموعات، ثم سلموا لكل واحد منا بعض الأغطية والألبسة والأحذيـــة العســـكرية، وتوجهنا إلى المراقد لنستريح من عناء السفر ودوخـــة البحـــر.

الوقت متأخر قليلاً، وضعت أغراضي في خزانة خاصة، وأخفيت بعناية رسالة جدتي في حقيبة أوراقي الشخصية.

في المرقد، على السرير الموازي لسريري، مجند ينام بعمـــق. حين دخلنا الغرفة استفاق للضجيج الذي أحدثه دخولنا، حيّاني بهدوء، بصوت ما بين النوم واليقظة.

قال الشاب الذي خرج من نومه وربما من كابوس: "اسمي أفولاي".

أجبته: "اسمي أوغسطين".

ساعدني على ترتيب أغطية السرير، الإزار والغطاء، صبحني بخير وعاد ليتمدد على سريره. كنت أعرف أنه غير نـــائم وأن النوم قد هجر عينيه.

الطحطاحة

طويلة تلك الليلة الأولى التي قضيتها تحت قبة سماء وهـــران المرصعة بنجوم إفريقية، بتُّ أراقبها من خلال النافذة المفتوحـــة، بدت لي السماء لأول مرة عامرة بالله.

كنت أشعر بأن المجند الذي يتمدد على الســـرير المجـــاور والذي قال إن اسمه "أفولاي" مستيقظ، يراقب حركاتي بنصـــف عين مفتوحة.

"أفولاي" اسم غريب؟

وأنا أغرق في السماء العامرة بالله، عاودتني رغبـــة جامحـــة لمداعبة الألوان، أخرجت لوحة صغيرة لجدي وهي الوحيدة التي جلبتها معي. نظرت إليه، كان وجهه مبتسمًا بكثير من الدهاء، وكأنه يضحك مني ومن فرانكو ومن هتلر ومن جدتي التي خانته مع منظف المدفئات الغازية.

حين استيقظت، أول صباح تحت سماء هذه المدينة المدهشـــة،

الساعة تشير إلى السادسة، لم أنم أكثر من ثلاث ساعات، صباح منعش ومشمس وسماء بعيدة في العلو الأزرق، أبعد من البارحة ونحن ندخل المدينة من بحرها، تجمع المجندون الجدد والقدامى في ساحة العلم، وقف أحد الضباط على مصطبة إسمنتية عالية قليلاً، قدّم نفسه قائلاً: "أنا النقيب ليفي النقاوة زمرمان". ثم شرع يخطب فينا بفرنسية بلكنة أهلية تشبه اللكنة الموريسكية أو المالطية، وبعد التحية نبهنا إلى أن الوضع الأمني غير مستقر هذه الأيام، في البلد، وأن هناك غضبًا شعبيًّا في أوساط الفلاحين والعملة والعاطلين، وأن تنظيمات سياسية انفصالية من الأهالي لا تفتأ تحرك هذا الغضب في اتجاه معاداة الإدارة وسلطة القانون، وأن الأمن العمومي أصبح مهددًا من قبل هذه المجموعات من الخارجين عن القانون الذين يؤمرون من قبل الشيوعيين السوفيات والصينيين.

أخرج ورقة وبدأ يقرأ علينا جملة من التعليمات التي يجب اتباعها حرفيًّا: عدم الخروج إلى الشارع بلباس عسكري إلا في ساعات العمل، تفادي الدخول إلى الأحياء الشعبية العربية قدر الإمكان، عدم الدخول في الأحاديث مع الأهالي إلا بما هو ضروري ومختصر، الحذر من مرافقة النساء المسلمات والانصياع إلى إغراءاتهن، لا ترتادوا المقاهي الشعبية ولا البارات التي يرتادها المسلمون واليهود بشكل مكثف.

وأنا أسمع هذه الأوامر، استعدتُ صورة جدي وهو يضحك ساخرًا من صورة فرانكو على جريدة **لومانيتي**.

التفتُّ إلى الجندي الواقف أمامي، وهو جاري في المرقد، أفولاي. كان نظره مثبتًا بين قدميه وهو يستمع إلى خطاب

الضابط. كان غارقًا في شيء بعيد، و لم يكن يعير هذا الكلام كبير اهتمامًا. انتهت مراسيم تحية العلم، انسحب الضباط والجنود من الساحة واتجهوا إلى المطعم لتناول فطور الصباح. كانوا يذرعون الساحة جماعات إلا الجندي أفولاي بدا وحيدًا، أثارني بوحدته، فتبعته وحين دخلنا المطعم تعمدت الجلوس إلى جواره، حين انتبه إلى وجودي بجانبه ابتسم لي وكأنما أدرك أن جلوسي بجواره ليس من باب الصدفة. حياني، ثم قال: "أنت المجند الجديد؟".

- نعم، من الدفعة التي وصلت البارحة.

قال وهو يشرب قهوته بهدوء غريب: "على كل نحن جيران في المرقد. يبدو أنك لم تنم البارحة، خطفتك سماء وهران بنجومها؟".

قلت له: "شهية طيبة". ثم أضفت: "هل أنت المشرف على المخزن؟".

أجابني: "أنا مساعد المسؤول عن المخزن".

قلت له مذكرًا باسمي: "أنا اسمي أوغسطين قيران".

"تشرفنا، أعرف، قلت لي ذلك ليلة البارحة". قال لي وكأنما أراد هو الآخر تذكيري باسمه، أو هو كسر للصمت وفتح باب الحديث: "اسمي أفولاي رشدي".

قلت له: "طعم القهوة مالح قليلاً. أليس كذلك؟".

قال: "ماء حنفيات المدينة فيه أثر الملح، والسبخة تزحف على المدينة وعلى الأراضي الفلاحية من الجنوب ومن الغرب".

وغادرنا المطعم كل إلى التزامه، أنا للتدريبات الأولية وأفولاي لعمله في المخزن.

تواعدنا أن نلتقي مساء.

ثرثرة حلاق

لا غربة في وهران. هذه المدينة تحتضن الغريب، تمنحه ثديها ليرضع حليبها فيصبح في اليوم التالي ابنها، كل من دخلها تبَنَّتْه.

يوميًّا عند الساعة الخامسة، بعد وقفة إنزال العلم بساحة الثكنة، أجدني أغير لباسي بسرعة، أنادي على أفولاي وننزل إلى حي الدرب الذي لا يبعد عن الثكنة سوى عشرين دقيقة مشيًا.

أول ما نمر بجواره ونحن ندخل حي الدرب حيث أرضية أزقته كلها مرصوصة بالأحجار الصلدة، هو صالون الحلاقة الرجالية الشهير والذي يحمل اسما شعريا "رقصة المقص" (La danse des ciseaux)، وهو أعرق محل حلاقة بشارع اللاك دوك الشعبي.

كيف سقطتُ في عشق هذا الحي الشعبي الضاج، بشارعه الغريب والمثير شارع اللاك دوك هذا؟ لا أعرف! لكن يومًا بعد يوم، بدأ شغفي بأرصفته بفوضاها المنظمة يزداد درجة

فدرجة، أزوره يوميًّا تقريبًا، أشعر وكأنني فارغ من الـــداخل إذا ما مر يوم أو يومان دون النزول للتجول فيه. ما شدني في هـــذا الحي أيضًا حانة صغيرة تحمل اسمًا مثيرًا وجميلا: "حانة السردين"، والتي تمتلئ عن آخرها ما بين الساعة الخامسة والثامنـــة، وقـــت الذروة، دخان كثيف وأحاديث عالية وأغنية جريحة تصعد مـــن آلة الفونغراف العتيقة، والمئات من قناني البيرة الفارغة والمملوءة موضوعة فوق الطاولات وعلى الأرض وعلى أطراف النوافـــذ. تقدم البيرة مع صحون الكاوكاو أو الحلزون المطبوخ في مـــرق حار، أو الفاصوليا البيضاء المطهية في مرق أحمر بالتوابل الحارة، بين الحين والآخر يهجم على الفضاء أطفال لا تتجاوز أعمارهم العاشرة، يحملون أطباقًا مصنوعة من الحلفاء عليها تشكيلة مـــن علب السجائر المحلية والأجنبية، لكن جميع الزبائن تقريبًا يدخنون نوعًا شعبيًّا واحدًا من السجائر اسمه "باسطوس". عـــالم هـــذه الخمارة مدهش، لا اعتداء ولا صراخ، إذا ما صادف وأن لامس أحد أحدًا بطريقة قد تبدو غير لائقة يطلب منه السماح، ويرفع قنينته تحية له قائلاً: "بصحتك" أو بالإسبانية "صَلودْ"، حين ترتفع درجة السكر درجات يتحول الزبائن إلى كائنات شفافة ورقيقة تشبه فصيلة الشعراء أو الأنبياء. هنا تختفي الـــديانات واللغـــات والأيديولوجيات والانتماءات السياسية والعرقية ويبرز الإنســـان بقيمه السامية.

مقابل "حانة السردين" هذه، على الرصيف المقابل مباشرة، يوجد محل "رقصة المقص" للحلاقة الرجالية، أين يجتمع يوميًّـــا الزبائن من كل الأعمار والأمزجة، لحلق اللحى أو قص شـــعر

الرأس أو الشوارب، يجيئون المحل من الأحياء الأخرى في المدينة ومن القرى المجاورة أيضا.

الحلاق الشاب خوليو، هكذا يناديه الجميع، رجل ثرثار بامتياز، وهو في ذلك لا يشذ عن عادة الحلاقين في العالم، ولكنه إضافة إلى هذه الصفة فهو يحسن العزف على العود الأندلسي، وحين لا يتكلم يغني بالإسبانية والفرنسية والعربية الوهرانية، يزين جدران الصالون بصور الفنانين الوهرانيين من أمثال أحمد وهبي وبلاوي الهواري وأحمد سعيدي ورينات الوهرانية وموريس المديوني والشيخ عين تادلس وبوعجاج والريميتي...

من الشاب خوليو تعلمت النطق بأولى الكلمات العربية الوهرانية، تعلمتها غناء حتى قبل أن أفهم معانيها، ومن يديه شربت أولى ألذّ كؤوس الشاي بالنعناع وبنبات الشهيبة أيضًا، هو من حبّب إلي هذا المشروب الذهبي.

حين ينطلق الشاب خوليو في الكلام عن الساسة والسياسة، لا أحد ينجو من لسانه السليط، يسب اليسار ويسب اليمين ويسب النقابة ويسب نفاق المتدينين، ويسب كسل وسلبية زبائن حانة السردين، ثم يضحك عاليًا ويعقب: "عفوًا زبائن حانة السردين أحبهم لأخلاقهم وعدم نفاقهم الاجتماعي". يخرج رأسه من خلف الستار المسدل على باب المحل وينادي أحد أطفال بائعي السجائر، يطلب منه علبة سجائر باسطوس ثم يضحك عاليًا.

الشاب خوليو تروتسكي الهوى، فوضوي، يحب الحياة بعفويتها، يحفظ الشعر الكثير ويؤمن بعالم عادل طاهر، يعيش فيه

الجميع متساوين وباحترام، اليهودي والمسيحي والمسلم والشيوعي والليبرالي واللائيكي واللاديني. يتناقشون، يختلفون، يتخاصمون ثم يسمعون الأغاني ويشربون قناني السبيرة المحلية "ألباو"، المصنوعة بماء وهران الذي فيه أثر الملح، وكؤوس الشاي وفناجين القهوة التركية المعدة على نار الجمر الهادئة.

جاء الشاب خوليو مدينة وهران مراهقاً، بعد أن أعدم فرانكو والده وأخاه الأكبر طالب الفلسفة في جامعة مدريد، واختفى عمه و لم يظهر له أثر واختطفت خالته الأستاذة الجامعية والمناضلة من أجل حقوق المرأة. هربت به أمه أنابيلا، أركبَهـا الرفاق وبكل سرية أول باخرة أقلعت، كانت لا تعرف حتى وجهتها، و لم تكن تتصور أبدًا أنها متوجهة إلى مدينة وهران. ما كان يهمها في المقام الأول أن ترحل مع آخر ما تبقى لها، الطفل خوليو وأخته خانين.

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

حين رست الباخرة في مرفأ وهران، وجدت أنابيلا في انتظارها مجموعة من رفاق درب زوجها، رفاق من الحزبين الشيوعيين الإسباني والجزائري، استأجروا لها غرفة في فندق متواضع لبضعة أيام، قبل أن يعثروا لها على شقة صغيرة مكونة من غرفتين وصالون ومطبخ وحمام بحي الدرب شارع اللاك دوك الشعبي، غير بعيد عن بناية "دار التسامح"، هكذا يسمي الوهرانيون ماخور مدينتهم: "دار التسامح" اسم مثير، (La Maison de Tolérance).

كان على خوليو وهو ابن الحادية عشرة تقريبًا أن يجد له حرفة تجلب بعض النقود لتغطية جزء من متطلبات حياة الأسرة؛ فكان أن اقترح عليه الهواري السويح وهو أحد رفاق المرحوم

والده، والذي كان من بين مستقبليهم في الميناء، أن يلتحق بمحل الحلاقة الرجالية "رقصة المقص"، لمساعدة صاحبه يعقوب القباج الذي بدأ يفقد ذاكرته، وقد أصيب بمرض غريب حيث أضحى ينام واقفًا وهو يحلق رأس الزبون. جاء خوليو لمساعدة يعقوب القباج في مسح الأرضية، وكنس الشعر، وتنظيف الأمشاط، والقيام بصوبنة لحى الزبائن قبل أن يتولى القباج حلاقتها، والتكفل بشراء ما يحتاجه صاحب المحل من شانبوان وصابون وشفرات الحلاقة، ويتولى شحذ السكاكين التي تستعمل في ترتيب أطراف الشعر جهة الرقبة والشوارب وخلف الآذان، ويُحضِّر عدة الشاي، وفوق ذلك وقبل كل هذا إيقاظ يعقوب القباج كلما نام واقفًا خوفًا من أن يجز رأس زبون ما.

كان يعقوب القباج صاحب المحل مغرمًا بالأفلام الهندية وأفلام الكاوبوي، وهي أكثر ما تعرضه العديد من قاعات السينما في المدينة، لا يخرج من قاعة عرض إلا ليدخل أخرى، ومن هوسه ببعض الممثلين والممثلات فقد كان يشاهد بعض الأفلام لمرات عدة في اليوم الواحد. ولانشغال السيد القباج بالعروض السينمائية وحبه لليلى مراد فقد بدأ يغيب عن محله؛ مما جعل خوليو يعوضه في توليه حلاقة شعر بعض الزبائن، وفي زمن قياسي استطاع أن يتعلم أسرار المهنة ويتقنها. ومع مر الأيام نسي الناس صاحب المحل الأصلي السيد يعقوب القباج، الذي اختفى بين كراسي قاعات العرض السينمائية، وبدؤوا التعود على رقصات مقص الشاب خوليو وعلى صوته وتعليقاته وعزفه الموسيقي.

كان خوليو رجل حفل واحتفال، مليء بالحياة، لا يصوم عن الغناء، تُسمع قهقهاتُه من الشارع، يعرف جميع سكان الحي تقريبًا بأسمائهم، من دخل الحي باحثًا عن شخص أو شيء أو محل يسأل عنه خوليو فله الجواب الشافي والدقيق. يحفظ مئات الطرائف والنكات الجنسية والاجتماعية والسياسية، عن المسلمين واليهود والنصارى، ولا يتردد في حكاية تفاصيل قصة أمه أنابيلا وهو يضحك ويقهقه، أمه التي نسيت بسرعة ذكرى والده المناضل اليساري الذي أعدمه فرانكو، لتسقط في أحضان صديقه الذي تقاسم معه أيام السجن ومحن الملاحقات الأمنية. ولأن أمه كانت سعيدة في أحضان عشيقها، فهو أيضًا كان سعيدًا لسعادتها، فالحياة أقوى وأكبر من الموت. لم يكن متأسفًا ولا ناقمًا ولا حاقدًا على تصرف أمه، بل كان يقول دائمًا: "إن المرأة التي تنجب خوليو عليها أن تعيش الحياة بكل عنفها الجميل". وينطلق في أداء أغنيته المفضلة: "أنابيلا، أنابيلا".

أشجار البستان الإسمنتية

كلما نزلت صحبة أفولاي إلى حي الدرب عرجنا على محل الشاب خوليو، لنسمع نكتة جديدة ونشرب كأس شاي، ولنعرف بعض الأخبار حول ما تخفيه قادم الأيام في هذا البلد الذي أصبحنا نشعر وكأن العرش فيه بدأ يهتز قليلاً قليلاً.

في صالون خوليو للحلاقة تعرفتُ إلى رجل غامض، اسمه الهواري سويح، رجل ثلاثيني، لكنه يبدو في صمته وهدوئه وكأنه تجاوز الخمسين. أول ما شدني إليه لغته الفرنسية الراقية التي يتحدث بها، يتحدث كالكتب، إضافة إلى تحليلاته السياسية الدقيقة وثقافته التاريخية العالية. تراه يتحدث عن أعمال الأدباء العالميين من فرنسيين وروس وأمريكيين وبريطانيين وألمان بكثير من الإمتاع والشعرية. يحلل ويقارن بين هذا الكِتاب وذاك، بين هذا الكاتب والآخر في المواقف وفي أساليب الكتابة. كان يجيء صالون الحلاقة "رقصة المقص" يوميًّا تقريبًا، يدخل الساعة الرابعة

والنصف تمامًا ويغادر الساعة السادسة والربع. يجلس على كرسيه المعهود في الركن المعتاد، يسحب جريدة **الجزائر الجمهورية** من تحت إبطه، يداعب بين يديه كتابًا جديدًا، يصمت قليلاً ثم يقول وكأنما حديثه موجه إليّ وإلى أفولاي أساسًا: "من لم يقرأ هـذه الكتب لن يفهم الدنيا". ثم يعدد عناوينها: رواية **القصر** لكافكا، **والإخوة كارامازوف** لدوستويفسكي، ورواية **الحارس في حقل الشوفان** لسالينغر، ورواية **الأم** لغوركي...".

لم أكن قد قرأت ولا عنوانا واحدا مما ذكره.

ثم يسكت لترتفع تعليقات الشاب خوليو عن أي شيء، وعن لا شيء. على رأس كل ساعة يطلب الهواري سويح من خوليو أن يرفع قليلاً من صوت المذياع، ويطلب ممن بالمحل من الزبائن دقائق صمت لمتابعة الأخبار على موجات الإذاعة الجزائرية بالفرنسية (RTA)، مسكونًا بالسياسة، مشبعًا كما يبدو من نقاشاته بالأفكار الوطنية القريبة من اليسار، يستشف من نبرة خطابه وكأن شيئًا ما يحضر في الأفق، وأن البلد على بعد أيام من محنة مُرَّة. كان دائمًا على وفاق مع تحليلات الشاب خوليو الذي يتولى توزيع أيضًا منشورات حزبية تصله بشكل سري مرة كل أسبوع.

هذا اليوم قال الهواري سويح ما أثار زلزالاً في رأسي وفي رؤوس الحضور من زبائن خوليو. قال ذلك بكثير من التأسف والحسرة والإصرار معقبًا على حديث خوليو حول أحداث 8 ماي 1945، التي لا تزال جراحها حية في ذاكرة الأهالي:

"لا يمكن أبدًا وضع الثقة في نظام شاركناه معاركه من أجل تحرير باريس وأوروبا بكاملها من قبضة النازية والفاشية التي

كانت تزحف وباء على العالم ساحقة كل أنفاس الحريات الفردية والجماعية، السياسية والاجتماعية والفكرية، ثم في نهاية المطاف وبعد أفول شبح الفاشية يقوم مقامها ويؤدي دورًا شبيهًا بدورها...

... لم يجد هذا النظام الاستعماري سوى مدينة الجزائر مقرًّا لحكومته بعد أن احتلت القوات الفاشية باريس. وبعد كل هذا ها هو الشعب الجزائري يجد نفسه اليوم أمام هذا النظام الذي ساهمنا في حمايته في وضع الضحية التي كَانَتها فرنسا قبل سنوات قليلة.

... بمجرد أن طالبنا باستقلالنا وبحرية بلدنا أطلق علينا ناره، لقد خان النظام الفرنسي العهد وانتهك مبادئ لطالما تشدق بها كالحرية والمساواة والأخوة، ولم يقرأ جيدًا درس مصير النازية. لقد مارس ضدنا الممارسات نفسها التي مارسها النازيون ضد أبناء باريس من قمع وتدمير واستعباد.

... الأمور ليست بخير، وأحداث 8 ماي 45 ستعود بشكل آخر وقريبًا جدًّا، ستكون شاملة وعنيفة. لقد تعب الشعب من القمع والتفقير والعنصرية، لقد أهين أبناؤه في كرامتهم وما عادوا باستطاعتهم التحمل أكثر، والإصلاحات التي ترفعها اليوم فرنسا هي ذر الرماد في العيون، وقد جاءت متأخرة ولا تستطيع أن ترد أو تحد من المجاعة والأمراض التي تفتك بالمزارعين في القرى وفي الأحياء الفقيرة للمدن الأوروبية".

يتحدث الهواري بحرارة وبوضوح، ينظر إليّ تارة وإلى أفولاي تارة أخرى، وكأنما الخطاب كله موجه إلينا فقط. في

صوته الحزين المتأمل في الوقت نفسه كثير من الثقة بمستقبل أفضل، مستقبل للأسف لن يأتي إلا على سكة من دم ساخن وقوافل من الشهداء.

يصمت ثم يقول بعد أن يشعل سيجارة: "الحرب قذرة حتى ولو كانت عادلة".

حين عرفت من خوليو أن الهواري يعمل صحفيًّا في جريدة **ألجي ريبوبليكان** (الجزائر الجمهورية)، وهو الذي لا يرى إلا حاملاً نسخة منها تحت إبطه، تذكرت جدي وجريدته **لومانيتي**.

حين عدنا إلى المرقد، لاحظت كأن شيئًا ما تغير في سلوك أفولاي، وهو يستعيد معي حديث الصحفي الهواري عن الحرب والنازية وباريس وسطيف وخراطة. خلعت ملابسي وارتديت البيجامة، وحين قابلت وجهي في المرآة كي أفرك أسناني وجدت ملامح الهواري مرسومة على ملامحي.

لم أستطع أن أنام، وقرأت للمرة الثانية رسالة جدتي التي على شكل وصية أو اعتراف:

"صلّ للعذراء وسامح خطيئة أمك التي أخفت عنك اسم أبيك، فأنت ابن لأب من تلك القارة التي تنزل بها اليوم".

قهوة بماء مالح

المدينة نساء وماء وسماء وغناء ووهران ماء مالح وتاريخ مالح أيضا!.

دخلت وهران والناس فيها لا تزال على ألسنتها بعض تفاصيل قصة الأب غابرييل لامبير مع هذه المدينة.

الوقت عصرًا أو على الأصح يميل نحو المغرب. أجلس كالعادة في محل الحلاقة المسمى "رقصة المقص". أستمع بكثير من المتعة إلى حكاية الماء الشروب الذي لم يصل حنفيات بيوت ساكنة وهران، الذهب الأزرق. كان الهواري السويح يقص الحكاية بتفاصيلها وكأنما يقرأها في كتاب، حكاية عن رحلة البحث عن الماء العذب الشروب لمدينة لطالما عُرفت بمائها المالح. المدن كما الرجال وكما النساء لها حكاياتها العجيبة والمثيرة، ووهران واحدة من هذه المدن. يقاس كرمُ المدينة وحسن ضيافتها وألق سحرها بمدى دهشة وتأثير حكايتها على من يدخلها.

ولوهران حكاية سمعتها هذا المساء، هي الحكاية التي جعلتني أسقط في حب وهران أكثر وأكثر، وأبحث في ملامح رجالها الذين أصادفهم في الشوارع والأزقة، والساحات العمومية والمقاهي الشعبية المليئة بالأهالي من عرب وبربر، عن ملامح واحد يشبه السمكري الذي خلفني في رحم أمي وهرب بعدته إلى إفريقيا.

يقول الهواري السويح وهو يشعل سيجارة من أخرى:

"... جاء الأسقف غابرييل لامبير مدينة وهران قادمًا إليها من ضواحي مدينة نيس، نزل بها كبطل معه حكاية خرافية، هاربًا بعشيقته كلارا التي تصغره بعشر سنوات أو أكثر. قصص رجال الدين تبدأ بعلاقتهم المثيرة والمتوترة مع المرأة. إنهم يخفون في صمتهم ووقارهم عواصف جنسية هوجاء وأمراضا سياسية غريبة، فقد أفقدت كلارا الجميلة الأسقف لامبير سلطته على عقله، فلم يجد حلاً سوى طريقة واحدة للقبض عليها في سريره، وهي اختطافها من زوجها الذي كان مدرسًا بمدينة عنابة التي زارها سنوات قبل أن يحلّ بوهران.

تقف شخصية الأسقف لامبير ما بين الدين والدجل والعلم. تخرج مهندسًا لكن قلبه كان في السماء، معلقًا في حب الله والمسيح وأشياء أخرى. بمجرد أن وطأت قدماه صحبة عشيقته المهربة أرض هذه المدينة، حتى استقبله الأهالي وعلى رأسهم عمدة المدينة بكثير من الترحيب والأفراح والسهرات والمآدب. لقد سبقته إلى هذه المدينة شهرته في معرفة طرق الوصول إلى اكتشاف منابع الماء العذب في أراض لم يكن أحد

يتوقع أن فيها ماء، وهو ما حققه من قبل في مدينة عنابة أو بونة، المدينة التي سقط فيها عاشقًا لكلارا فخطفها من زوجها المدرس، وهي الأرض أيضًا التي يرقد في كاتدرائيتها العظيمة المطلة على المدينة وعلى البحر القديس أوغسطين، أو جزء من جسده المبارك. لقد روجت كثير من وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة لعبقرية الأسقف غابرييل لامبير في الوصول إلى منابع الماء، ولو كان في أعماق صحراء الربع الخالي، كل ذلك من خلال مقالات بأقلام محررين معروفين لهم سلطة إعلامية ولهم قراء كثر، ومن خلال حوارات مطولة بدوريات شهيرة، مع صور بالألوان للأسقف بصليب على صدره في أماكن حيث الينابيع والآبار والخضرة والمراعي والأبقار والخيل والغلال والأفراح.

الماء سر السعادة ونطفة الحياة.

جاء مدينة وهران حاملاً رغبة في تحقيق حلم لطالما راود ساكنة المدينة: كيف الوصول إلى نبع الماء العذب الشروب وقد جف نبع بريدعة أو كاد، وما بقي منه أصبح مالحًا، وامتلأت شوارع مدينة وهران بباعة الماء الحلو الذين يصرخون بالإسبانية طوال اليوم بعرباتهم: "آقوا آقوا دوثي" (ماء، ماء حلو)، تنزل النساء إلى الشارع لشراء دلاء وقنينات لطهي الحمص أو لاستعماله في شرب الأنيزيت أو في إعداد القهوة.

لقد تأسست مدينة وهران، منذ قرون، ما بين البحر الأبيض المتوسط شمالاً وسبخة مالحة تمتد لتغطي جنوبها الغربي، لتصل حتى مدينة مسرغين غربًا، على امتداد كيلومترات. وبمرور الزمن

وازدياد عدد السكان، أصبحت المدينة تعيش شحًّا كبيرًا في مخزون الماء العذب الصالح للشرب.

وإذ انتشر الخبر العظيم وسرى بين الناس في الأسواق، خبر وصول الأسقف العالِم المنقذ إلى مدينة وهران، استبشر الخلق خيرًا، وبدا الجميع يترقب ساعة الفرج الكبير، الكل يحلم بذلك اليوم الذي ستجري فيه الحنفيات بالماء الزلال.

"المدينة على بعد خطوتين من الفرح الأزرق".

"لن نحتسي من اليوم شايا بماء شلح، مالح".

"لن نحضِّر إبريق قهوتنا بماء مالح من غد".

"لن نشرب كؤوس الريكار أو الأنيزيت بالماء المالح".

وجد الأسقف في استقباله ساعة وصوله محطة القطار مئات المرحبين من النساء والرجال، من أعيان المدينة وبعض المسؤولين العسكريين والمدنيين. وقد زينت بهاء الاستقبال فرقة من الفروسية المكونة من أعيان الأهالي، جاؤوا راكبين خيلهم المدربة على الرقص، وأطلقوا البارود مدويًا من بنادقهم احتفاء بقدوم الضيف العظيم، وأدى تلاميذ المدارس المصطفين على الرصيف أناشيد دينية وأخرى وطنية.

كان الأسقف لامبير وعشيقته كلارا في منتهى السعادة، وهما في حضرة ساكنة المدينة المضيافة وهي تستقبلهما بكل مشاعر الترحيب الغامرة بالكرم.

أقام الأسقف وعشيقته في جناح خاص بأجمل فندق وسط المدينة، فندق اعتاد استقبال الشخصيات العالمية الكبيرة التي تزور وهران من ملوك وملكات وأمراء وأميرات وكتاب وفنانين من

صف النجوم. ومن اليوم الأول بدأت تتهاطل عليهما الهدايا ودعوات لحضور الحفلات العائلية والعامة من قبل الأعيان والمسؤولين السامين.

في اليوم التالي لوصوله، وبعد استراحة وجولة قصيرة صحبة عشيقته في بعض أحياء المدينة وشوارعها الأوروبية الرئيسية، كانت مأدبة العشاء الأولى على مائدة عمدة البلدية. حول طاولته الكبيرة اجتمع أعيان المدينة من المدنيين والعسكريين برتب عالية، وكان الحديث مُركّزًا حول سبل الوصول إلى منابع "الذهب الأزرق"، وإنقاذ الساكنة من هذه المعاناة التي تهدد المدينة وتؤثر في حركة العمران فيها وفي الدورة الاقتصادية أيضًا. وناقش العمدة تفاصيل الصفقة بين البلدية والأسقف، وهو يصر على عدم التأخر وربح الوقت سعيًا لتموين المدينة العطشى، خاصة أن الانتخابات البلدية على الأبواب، وهو يستعد للترشح لخلافة نفسه بعهدة جديدة، ومشروع جلب الماء يضمن فوزه بدون منازع، خاصة أن هناك بعض الأصوات بدأت تتكتل في صف المعارضة وقطع الطريق عليه، وتم الاتفاق الأولي ورفعت أنخاب الصفقة، وفي اليوم الموالي وبدار "السباع" (دار البلدية هكذا يسميها الأهالي لوجود تمثالي أسدين عند مدخلها) تم توقيع العقد بشكل رسمي.

وضعت إدارة البلدية تحت تصرف الأسقف سيارة بسائق ومساعد، ودون تأخير وبعد تفحص طبوغرافي للمنطقة المحيطة بالمدينة، قرر الشروع في مغامرة البحث عن الذهب الأزرق.

هذا الصباح باكرًا، أخرج الأسقف غابرييل لامبير قضيب غصن البندق، كان مخبئًا بعناية في حقيبة السفر وقد جلبه مع

أمتعته من فرنسا، وفيه يكمن السرّ الذي سيوصله إلى نقطة نبع الماء أينما كان. وضعه بداخل الحقيبة اليدوية الجلدية الخاصة بمعدات مهمة الاستكشاف، ركب السيارة إلى جانب السائق، ترك كلارا وحيدة في الجناح الملكي بالفندق.

في مثل هذه الأوقات الصباحية يحلو لكلارا أن تتخذ لها مكانًا في الشرفة المطلة على الساحة البريد المركزي الجميلة، وعلى مقهى النسر وسوق لاباستي، الذي يمثل تحفة بمحلاته المليئة بأصناف الفواكه والخضر المتنوعة والمعروضة بطريقة فنية راقية، مستمتعة أيضًا بمنظر الباعة بحركاتهم وأحاديثهم العالية، حيث تتقاطع الفرنسية والإسبانية والعربية الوهرانية والأمازيغية، أصواتهم هذه بإيقاعاتها تشبه الغناء الفولكلوري وكأن الجميع في هذه المدينة واقف على خشبة مسرح لأداء دور ما.

بحسب توجيهات الأسقف لامبير، انطلقت سيارة الاستكشاف بضعة كيلومترات خارج مدينة وهران، في اتجاه الشرق، نحو قريتي بئر الجير وسيدي معروف، العين على خريطة مفتوحة فوق ركبتيه تارة وتارة أخرى يتأمل السماء بزرقتها الصافية. وحين وصلت السيارة حدود أرض زراعية مكشوفة، ليس بها شجر ولا سكن، أمر الأسقف السائق بالتوقف. ترجل، تبعه المعاون الذي لم ينبس بكلمة واحدة منذ أن انطلقوا من أمام الفندق، أخرج الأسقف من حقيبته قضيب البندق، ثم انطلق بخطى مسرعة في الأرض العارية، وهو يدير الغصن بين يديه تارة ويشد على أطرافه تارة أخرى، يحركه جهة الشرق ثم جهة الغرب، يتقدم خطوات إلى الأمام ثم يعود خطوات أخرى إلى

الخلف، والمساعد يجري في أثره. كان يتحرك وكأنه يؤدي رقصة أو دورًا في مسرحية صامتة، وهو في حالة هوس أو ما يشبه ذلك. يقف في نقطة يميل بغصن البندق في يده حتى يكاد يلمس الأرض، ثم يرفعه ويديره بين يديه، ثم يهبط به ثانية، ثم يقفز إلى مكان آخر على بعد بضعة أمتار.

بعد نحو نصف ساعة من الركض والقفز وتدوير قضيب البندق بين يديه، نظر الأسقف لامبير إلى السماء التي بدت الآن غائمة قليلاً، ثم رجع إلى السيارة. أعاد قضيب البندق إلى الحقيبة، طلب من السائق أن يتقدم كيلومترات قليلة، وكما في المرة الأولى نزل، وكما في المرة الأولى قام بالحركات البهلوانية نفسها، وكما في المرة الأولى وقف من خلفه المعاون، يقفز ويتقافز على ذات الطريقة. وكما في المرة السابقة انتهت المسرحية الصامتة بعد نحو نصف ساعة، وعاد الأسقف وعلى وجهه علامات الرضا. وضع قضيب البندق العجيب في الحقيبة الجلدية، سجل بعض ملاحظات على صفحة بيضاء في سجل كبير، طوى الخارطة ووضعها بين دفتي السجل، اتخذ مكانه بجوار السائق وطلب وأشار إليه بالعودة إلى الفندق.

حين وصل الأسقف لامبير إلى الفندق وجد عشيقته كلارا في كامل أناقتها. استراح قليلاً، ثم نزلا لتناول غدائهما في مطعم بالطابق الأرضي. بعد ذلك صعدا إلى جناحهما لاستراحة القيلولة في انتظار جولة ما قبل الغروب، وهي الساعة التي تفضلها كلارا، وتلك ألذّ لحظات يوم المدينة، حيث ساعة القيلولة كالصلاة التي يؤديها الجميع بغض النظر عن ديانتهم.

يحلو للأسقف لامبير تغيير اسم عشيقته كل يوم، هي لعبة يمارسها منذ أن اختطفها من زوجها بمدينة عنابة، فقد تصحو اليوم على اسم مارغريت، وغدًا يناديها بماري كلير، وبعد غد بسيلين، ومرة أخرى بجانيت، وتارة روزا أو توليب. كان يختار لها من الأسماء الأجمل والأكثر رمزية، فإما أسماء الورود أو أسماء الراهبات اللواتي عُرفن عبر العالم إما بالطهرانية، أو بالجشع الجنسي المبطن بروحانية متوحشة. ولم يكن الذين يحيطون به من أعيان المدينة يستغربون هذه الأسماء؛ فهي مقدسة ومحترمة، وإطلاق هذه الأسماء المباركة على العشيقة قد يكون سرًّا من الأسرار التي تساعده في الوصول إلى نبع الماء الشروب العذب. هو دون شك أمر طقسي يدخل في أسرار عملية البحث عن الذهب الأزرق، فذكر بعض أسماء القديسات مرات في اليوم وهن الأقرب إلى الرب، إنهن دون شك نبع الإيمان ونبع النقاء الذي يوصل التائهين مثلنا إلى نبع الماء الطهور.

أما رئيس بلدية وهران فكان بمجرد أن يعلم أن الأسقف صاحبه قد غادر غرفته بغصن البندق العجيب بحثًا عن الذهب الأزرق العذب، حتى يتسلل إلى سرير كلارا صاحبة الأسماء المقدسة المختلفة، والتي تكون في انتظاره على جمر، لا يترك مخدعها إلا إذا أخبره العسس الواقف على باب الفندق بساعة وصول الأسقف، فينسل إلى غرفة مجاورة ثانية استأجرها لمثل هذه الحالة قبل أن يغادر الفندق.

مرت شهور وقد أصبح الأسقف شخصية مركزية في المدينة، موضوع حديث الخاص والعام، الجميع معلق أمله عليه،

الأمل في شرب فنجان قهوة أو كأس أنيزيت بماء عذب ينزل من الحنفية، لا من براميل الباعة الإسبان المتجولين الذين يتكاثرون يوميًّا ويفسدون بأصواتهم متعة القيلولة. في كل مرة كان يرجئ الإعلان عن موعد اكتشاف منجم الذهب الأزرق إلى موعد لاحق. طال الانتظار، وشاخ الحلم، وبدأ يتحول إلى وهم مغلف بغضب، وشيئًا فشيئًا أخذ سكان مدينة وهران كما الأعيان أيضًا يفقدون كل أمل في جريان الماء العذب في حنفياتهم. لقد تعددت خرجات الاستكشاف في ضواحي المدينة وعلى أطرافها في الشرق والغرب والجنوب، ولم تسفر عن أي شيء. ومع تبخر كل أمل في العثور على الماء العذب ومعه اقترب موعد الانتخابات البلدية، وقد شعر رئيس البلدية بأن سكان المدينة الذين راهنوا على وصول الماء إلى حنفياتهم، كي يجددوا الثقة فيه لعهدة ثانية، أخذوا يتكتلون ضده؛ نظرًا إلى ما أنفقه على الأسقف من الخزينة العمومية دون نتيجة تذكر، وأن بعض خصومه بدؤوا في الترويج لفكرة أن هناك صفقة مشبوهة ما بين رئيس البلدية والأسقف، هدفها الاستيلاء على أموال البلدية بحجة البحث عن الماء العذب. وتحاشيًا لأي هزيمة قد تلحقه في الانتخابات التي أصبحت على بعد أسابيع قليلة، قرر العمدة إلغاء الصفقة ورفض دفع المبلغ المتبقي للأسقف، وهو ما أغضب السيد لامبير، وتدهورت جراء ذلك علاقتهما، بل تحولت إلى خصام مفتوح. وللرد على هذه الإهانة قرر الأسقف لامبير الترشح لرئاسة البلدية، والدخول في حملة انتخابية ضد العمدة، وقد شرع للتو في جمع صفوف خصوم العمدة والتحضير لإسقاطه.

جاء موعد الانتخابات على خلفية انقسامات داخل فريق عمدة المدينة، المتهم بتحويل أموال الخزينة العامة، وتقدم الأسقف بترشيحه على رأس القائمة المناهضة لبرنامج العمدة السابق، وقد أسفرت الانتخابات عن فوز الأسقف غابرييل لامبير برئاسة بلدية وهران.

وقد ظل الأسقف لامبير عمدة للمدينة من 1934 حتى عام 1941، وكان أول من أنشأ تيارا فاشيا في وهران، ولم يكن ليخفي إعجابه لفرانكو وموسوليني وهتلر، بل إنه شن هجوما عنيفا ضد مسلمي ويهود وهران على السواء، وأسس لذلك جريدة الوهراني الصغير التي رفعت شعارات مطالبة بطرد اليهود من المدينة، وبحلول الحرب العالمية الثانية وقف الأسقف لامبير في معسكر النازية والفاشية ولم يخف إعجابه وحبه لفرانكو وهتلر وبيتان...".

قال الهواري سويح معلقًا وهو يهم بمغادرة صالة الحلاقة طاويا جريدة **الجزائر الجمهورية**: "هذه هي حكاية الماء التي أوصلت أسقفًا فاشيًّا ومعاديًا للسامية إلى رئاسة بلدية وهران".

حكاية الأسقف لامبير الذي اختار في الأوقات التاريخية الصعبة معسكر النازية، جعلتني أشعر بقلق وأنا أتأمل وجودي في معسكر الأقوياء، معسكر المستعمِر، وبدت صورة جدي عاشق جريدة **لومانيتي** لا تفارقني من الثكنة إلى السرير. تعذبني.

نساء الضباط

أيام الثكنة طويلة، اليوم أطول من ساعاته بمرات كثيرة.

بعد فترة التدريبات العسكرية الشاقة التي دامت ستة أشهر، أصبحت أقضي ساعات مداومتي اليومية، من الثامنة صباحًا وحتى الرابعة زوالاً، ما بين العيادة العسكرية كطبيب عام وحيز صغير اتخذت منه ما يشبه ورشة صغيرة للرسم، تفصل ما بين العيادة والمرسم ستارة من باش أسود، ينزل من السقف حتى البلاط المصنوع من مربعات سوداء وبيضاء متعامدة ومتوازية.

بين الحين والآخر أستقبل بعض المجندين لفحوصات روتينية: تسوس الأسنان، مغص بطني، صداع في الرأس وغيرها. كنت أمنح بعض ترخيصات الخروج لبعض العسكريين للاستمتاع بجولة في المدينة للترويح عن النفس، والمقصود من ذلك زيارة لفتيات "دار التسامح" بشارع اللاك دوك. كان الضابط المسؤول النقيب ليفي النقاوة زمرمان على علم بتصرفي هذا فيقابل ذلك بتسامح.

بين مراجعة وأخرى أعود إلى ألواني محاولاً القبض فيها وبها على بعض هواجسي. كلما فكرت في رسم شيء ما أثارني في هذه المدينة الساحرة بناسها وموسيقاها وضجيجها وتنوعها، أفكر في كلام السيد الهواري سويح عن الحرب فتقابلني ملامح وجه جدي بارزة لتغطي على الجميع من حولي، جدي الذي يحب الحرية ومشروب الكالفا، ويكره الظلم ويمقت شخصية هتلر وفرانكو وصالازار وفيشي، يومًا بعد آخر أشعر بأن جدي ساكن في دمي.

في ذكرى عيد ميلاد جدتي الأول الذي قضيته في هذه الثكنة، وهو عيد ميلادها التاسع والثمانين، مع أن لا أحد اطلع يومًا على وثائقها الرسمية، هي من قررت يوم ميلادها فتبعها الجميع بما فيه جدي، في هذه الذكرى قضيت عطلة نهاية الأسبوع كاملة وأنا أحاول رسم لوحة لهذه المرأة البورجوازية الجميلة. في النهاية طلع لي من تحت الألوان والخطوط وجه جدي بابتسامته الساخرة، وشواربه التي التهمت أطرافها نار السجائر الرخيصة. كنت كلما سحبت الفرشاة على اللوحة خَلَّفَتْ في مرورها ملمحًا من وجه جدي بدلاً عن وجه زوجته فرانسواز البورجوازية المثيرة. ضحكت من حالي كثيرًا وعلى الفور كتبت رسالة إلى أمي رويت لها فيها قصة البورتريه هذه، ثم ناديت على صديقي أفولاي ونزلنا في اتجاه حي الدرب.

في رسالة الرد التي كتبتها أمي ضمنتها عبارة واحدة، تعليقًا على ظهور ملامح وجه جدي عوضًا عن وجه جدتي في البورتريه: "جدتك امرأة غامضة ومعقدة وجدك رجل شفاف

وساحر". وكتبت ملاحظة أسفل الورقة بلون مغـــاير، كأنمـــا استدركت ذلك قبل أن تغلق الرسالة: "ســـلم علـــى رفيقـــك أبوليوس". كيف عرفت اسمه اللاتيني؟ لم أفهم مضمون رسالتها جيدًا، مع أنني كنت أعرف خلافاتها مع جدتي واعتراضاتها على سلوكها البورجوازي. كنت أشعر بإحساس غريب تخفيه أمـــي تجاه جدي، أحساس الإعجاب الممزوج بالاحترام والإشفاق، هي الوحيدة التي كانت قريبة منه حين فقد بصره جزئيـــا. كانـــت تجلس الساعات معه لتقرأ له ما جاء في **لومانيتي**، ومـــع ذلـــك شعرت بالارتياح الداخلي وأنا أقرأ ردها لأنني وجـــدتها علـــى عهدها، لم تتغير، مصطفة في جهة جدي الرجل العادل الـــذي يحب جريدة **لومانيتي** ويمقـــت فرانكـــو وهتلـــر وصـــالازار والاستعمار.

قرأت على أفولاي نص الرسالة وفرح بتلك الملاحظة الـــتي ذكرت اسمه فيها، مع أنه لم يرتح لتحريف اسمه، وتذكر السيدة إيزيلدا غوميز التي اختارت له هذا الاسم الغريب.

الالتباس

توطدت علاقتي بشكل عفوي ومتين بأوغسطين، هذا المجنـــد الشاب الطبيب الذي يبدو في سني أو يكبرني بعام أو عامين علـــى الأكثر. أهل شمال الكرة الأرضية سذج، هم أقرب إلى الملائكة ربما لأنهم أقرب إلى السماء. من لقاءاتنا الأولى حدثني بكثير من الحماس عن احتمال أن تكون جذوره العائلية مغمورة في تربة هذه الأرض؛ فأبوه رجل شمال إفريقي اختفى بعد أن عرف أن عشيقته حامـــل منه، لكن اختفاءه هذا لم يحزن الأم التي كانت امـــرأة متدينـــة، لا تكاد تغادر الكنيسة الموجودة في وســـط المدينـــة إلى جانـــب دار البلدية، حتى قيل إنها كانت على علاقة مشبوهة مع القس المكلـــف بالكنيسة. ألسنة السوء، حين وضعت الجنين، ثلاثة أشـــهر بعـــد اختفاء الأب الخائن، وفاء لهذا الأب ولبلاده أطلقت على وليـــدها اسم أوغسطين، تحية للقديس أوغسطين الذي ينحدر من طاغاست وهي بلدة على أرض الجزائر وتسمى الآن سوق أهراس.

وكان سعيدًا وهو يطلعني على بعض رسوماته، التي هي عبارة عن بورتريهات غير منتهية لجده الشيوعي، الذي ناضل ضد الجنرال فرانكو وشارك في الحرب العالمية الثانية.

رماد مشتعل

الملازم ليفي النقاوة زمرمان المسؤول المباشر عن الثكنة، عسكري صارم، منضبط، قليل الكلام، لكنه يتذكر بكثير من التفاصيل سنوات بداية مسيرته الاحترافية العسكرية كجندي ثم عريف يكتب التقارير تارة الصحيحة وكثيرا من المرات مزورة للتستر عن الفلاحين والمزارعين الفقراء، سنوات قضاها عسكريًّا على ظهر حصان يجوب المداشر والقرى الواقعة على محيط مدينة تلمسان، كالحناية وبني بوبلان وبني هندل والمنصورة وصبرة ووادي الزيتون وأولاد ميمون... يتذكر بكثير من الألم والحنين أنه قضى خمس سنوات هناك راكبًا ظهر حصان واحد اسمه "فليش" (Flèche)، لم يغير ظهره يومًا، في الشتاء كما في الصيف، في أيام الحر كما في أيام الصقيع، حتى أصبح بين الراكب والمركوب لغة مشتركة وحديثًا مشفرًا لا يفكه أحد غيرهما، يتقاسمان ما توفر من الخبز والماء وحتى عصير البرتقال

أحيانًا. ولّما أحيل الحصان فليش إلى التقاعد وعمره قارب السادسة عشرة إلا ثلاثة أشهر، حسب شهادة الميلاد المستخرجة من إسطبلات الفروسية الشهيرة بتيارت، وذلك بعد أن أصيب بانهيار صحي مفاجئ، بدأت بظهور بعض أعراض كصعوبة التنفس، ثم تلتها بعد ثلاثة أيام حالة فشل على مستوى القوائم؛ مما جعله غير قادر لا على المشي ولا حتى الوقوف.

يتذكرالنقيب ليفي النقاوة زمرمان بكثير من التأثر حكاية حصانه:

"دخلتُ على الحصان فليش ذلك الصباح وهو ممدد على الأرض. نظرت إليه، نظر إليّ، تأملني، ربتّ بكفي المرتجفة على رأسه، مكثت هكذا بضع لحظات، أغمض عينيه قليلاً، ثم عاد ففتحهما ونظر إلي بعمق ثانية، كأنما كان يريد أن ينقش صورة لي أخيرة على لوح ذاكرته. حاولت أن أتجنب النظر إلى عينيه المدهشتين الغارقتين في فجيعة الاستسلام، ثم دارت في رأسي أفكار مزعجة كثيرة فانسحبت إلى الخارج مسرعًا. انفجرت باكيًا وتقيأت ما في بطني، كأنني لم أرد أن أظهر هشاشتي وضعفي أمامه، وهو الذي عرفني لمدة خمس سنوات جنديا ثم عريفا لا ألين ولا أُقْهَر. كانت الساحة فارغة فلم ينتبه لي أحد، وغادرت الثكنة على الفور في اتجاه وسط مدينة تلمسان. أردت أن أحتمي بحركة الناس كي أتخلص من وحدتي القاتلة، جلست في بار صغير اسمه بار "النخلة الزرقاء". كان المحل فارغًا إلا من زوج أربعيني، رجل وامرأة يحتسيان في صمت كأسي أنيزات، دون كلام بينهما وكأنما كانا يفكران في ما هربت منه. قطع

الثلج تذوب في السائل الأبيض ببطء أمامهما، في كأسيهما، كالزمن تمامًا، هي تنظر إلى أصابعه وهو يحدق بشهية في عنقها الطويل، نمش جميل على وجه السيدة. حييتهما، لم ينتبها لوجودي أصلاً، كانا غارقين في بعضيهما وفي كأسيهما وفي صمتيهما. طلبت قنينة بيرة باردة جدًّا، صقيعية، على الفور نزلت البيرة ومعها صحن من الفستق السوداني، شربتها دفعة واحدة ثم طلبت قدحًا كبيرًا من مشروب الماحيا، على الفور حط قدح الماحيا فوق الطاولة ومعه صحن الحلزون المطبوخ في بمرق ساخن، وعبقت منه رائحة التوابل فشعرت بجوع وبارتخاء. كان جهاز الفونغراف الموضوع خلف الكونتوار على رف من لوح عتيق يرسل أغنية لموريس المديوني، أسطوانة من فئة 78 لفة تدور بهدوء. لم أستطع التحرر من صورة الحصان فليش ممددًا على الأرض وقد هزمه المرض، مستسلمًا للقدر الفظيع وهو الذي كان قبل سنوات مبتهجًا بصحته وأناقته وسرعته وذكائه.

مع كل صباح كنت أسأل الجندي المكلف بشؤون إسطبل الخيول عن أحوال فليش، ولم تكن لي الجرأة الكافية للوقوف عليه ثانية وهو في حالة العطب هذه. كلما سألت المسؤول عن أخبار الحصان كنت أخشى النبأ السيئ، ويوم اتخذ مسؤول إسطبل الخيول هذا وبقرار من الطبيب البيطري في الثكنة: "إطلاق رصاصة الرحمة على حصاني، على فليش، عليّ"، بسماع الخبر، قررت مغادرة الثكنة نهائيًّا. طلبت في اليوم نفسه، وقتها لم أكن سوى عريف، نقلي إلى ثكنة أخرى بمدينة بعيدة، علني لن أسمع صوت رصاصات الرحمة. قبل الموافقة على طلب نقلي

عُرِضْتُ على طبيب نفساني عسكري. منحت إجازة ثلاثة أسابيع، بعدها حولت مباشرة إلى ثكنة "المدينة الجديدة" بوهران".

لا يزال النقيب ليفي النقاوة زمرمان يحتفظ بعدد كبير من صوره وهو على ظهر الحصان أو بجواره، أو وهو يشد له قائمته الأولى أو الخلفية في لحظة تغيير صفائح سنابكه، وهو يبتسم للمصور، حين يتحدث أو يُعلق على بعض هذه الصور المعلقة على جدران مكتبه في إطاراتها الجميلة، في انسجام فني متميز حسب العمر وتسلسل الأحداث أيضًا، تراه يركز تارة على عظمة وقفة الحصان أو بهاء شكله، أو لون شعره الطويل وعينيه الواسعتين، يتحدث كالشعراء لا كالعسكريين.

بعد فراق الحصان دخل العريف ليفي النقاوة زمرمان في حالة كآبة حادة دامت أكثر من ستة أشهر، و لم يخلصه من ذلك سوى غرقه في قراءة الكتب الدينية، العهد القديم والجديد والقرآن وكتب الكنفوشوسية، وعن عقيدة الدروز والروايات العالمية الضخمة، فكان لا يرى سوى وأنفه بين مجلدات روايات تولستوي ودوستويفسكي وغوركي وبالزاك وشتاينبيك ودوس باسوس وبروست. كان يفضل القراءة بصوت عال، وكأنما كان يريد للحصان فليش أن يشاركه هذه المتعة.

المتعة لا تكون إلا مَثْنى.

يبكي العسكري أيضًا

غادرت مدينة تلمسان بالقطار، ثلاثة أسابيع بعد موت فليش برصاصات الرحمة الطبية. استقلتُ آخر قطار خرج من المحطة في منتصف الليل إلا عشرين دقيقة في اتجاه مدينة سيدي بلعباس، التي كنا نطلق عليها اسم "باريس الصغيرة"، مدينة بهية بمغنيات الراي الكثيرات التي تنزل منها أو تجيء لتقيم فيها، ومنها ركبت قطارًا آخر إلى وهران. لم أحمل معي سوى بعض عفشي العسكري وصور فليش الكثيرة، ونسخة من شجرة العائلة موثقة بثلاثة أختام من قضاة محلفين من تلمسان وقرطبة وفاس وبجاية، وبعض رسائل الأصدقاء وروايات بوليسية رديئة لطالما قرأتها وأعدت قراءتها لقتل الوقت.

وأنا أقضي أول ليلة لي في غرفة بثكنة بوهران التي نُقلت إليها، خفية بكيت، "العسكري لا يبكي"، هكذا كان يقول لنا الضابط رئيس الثكنة طوال شهور تدريبي العسكري الأول،

الذي قضيته في أحراش امسيردا على الحدود الجزائرية المغربية، وهكذا كنت أقول لنفسي كي أقاوم الفراغ السحيق من حولي في غياب رفيقي الحصان فليش، وهكذا أقول للمجندين الجدد اليوم، الذين أتولى تدريبهم تباعًا كل عام، ومع ذلك بكيت بحرقة، شعرت باليتم بدون الحصان فليش.

العسكري يبكي!

سبق لي أن زرت وهران عدة مرات من قبل، زيارات مهنية وأخرى شخصية، لكني لا أعرفها بالقدر الذي يسمح لي التجول بعفوية في أحيائها كما في مدينة تلمسان. وفي اليوم التالي، فارغًا من متعة الحياة، جاف الروح، وأنا أجلس في أحد المقاهي الواسعة على شارع جبهة البحر المطلة على المرفأ التجاري، حيث حركة السفن لا تتوقف، بعضها صغيرة الأحجام وأخرى كبيرة، بعضها لنقل المسافرين وأخرى لشحن البضائع وبعضها عسكرية، من مكاني أراقب حركة المراكب والماء بلونه المائل إلى الأزرق الداكن، قريب من الأسود، يميد بهدوء كالزيت، أفكر في الحصان فليش. هجمت عليّ فجأة صورته ممددًا على أرضية الإسطبل، مستسلمًا لقدره، شعرتُ بضغط رهيب في رأسي وبألم بين لوحتي الكتفين على الجهتين. صممتُ أذني بأصبعيّ كي لا أسمع صوت رصاصات الرحمة تطلق على رأس صديقي فليش. صرخت عاليًا: "فليش، فليش، لا تطلق الرصاص أيها العسكري". يفزع الزبائن الجالسون من حولي تحت شمس ربيعية وهرانية دافئة. أفسدتُ صفاء متعة جلستهم. يشرع بعض الأزواج وبعض النساء في إخلاء طاولاتهم وهم ينظرون إليّ

باستغراب وحذر وخوف. يحضر النادل على الفور محاولاً تهدئة الوضع وليطمئن الزبائن. النادل شاب ثلاثيني بشاربين معقوفين على طريقة الممثلين الإيطاليين. عانقني بحنان مواسيًا، سحبني نحو الداخل، إلى الحمّام، وطلب مني أن أغسل وجهي بالماء البارد. لحظات واستعدت أنفاسي، اعتذرت للنادل ولصاحب المقهى الذي كان يرمقني بنظرات قبيحة، وأنا أعود إلى طاولتي في الخارج، كنت أحاول جاهدًا طرد صورة الحصان فليش من رأسي فلا أستطيع. قهوتي بردت في فنجان من الخزف النبيل عليه رسومات أحصنة نافرة لكن بأجنحة ملائكة، أغطي ظاهر طرف الفنجان بمنديل ورقي كي لا أرى صورة الأحصنة المجنحة، أطلب من النادل أن يغير لي قهوتي بحجة أنها بردت، والحقيقة أنني كنت أريد فنجانًا آخر بدون رسوم أحصنة. يختفي النادل المؤدب جدًّا بضع اللحظات ليعود بقهوة ساخنة جديدة، ولكن في فنجان شبيه بالأول، الرسوم ذاتها والأحصنة المجنحة هي نفسها.

وأنا أهم بمغادرة المقهى، هاربًا من صور الأحصنة المجنحة الجميلة التي أخذت تتحرك في رأسي، مثيرة غيرة فليش الممدد على أرضية الإسطبل، إذ بامرأة بقامة قريبة إلى القصر منها إلى الطول تطوق رقبتي بذراعها الأيمن، في ضمة دافئة وبعفوية طفولية وكأنما تعرفني من سنين. تقرب وجهها من عنقي فأشعر بأنفاسها وبعطرها الخفيف يوقظني، يحررني من صورة أحصنة الفنجان المجنحة، وبيدها الأخرى تقبض على راحة يدي بكف صغير يشبه كف دمية. دون أن تسألني عن اسمي، أو عن سبب

صراخي وانهياري العصبي المفاجئ أمام الزبائن وفي هذا الفضاء العمومي، أخذت تحدثني بفرنسية فيها لكنة قريبة من لكنة أهل مدينة مرسيليا عن الجو الربيعي، لم أنتبه إن كُنا بفصل الشتاء أم الربيع؟ تتكلم بسرعة وكأنما تخاف أن تُكَذِّبها الشمس الدافئة فتتغيم السماء على الفور وتمطر، ثم سحبتني إلى طاولتها، لم أعارض. كانت تجلس بين رجلين، يبدو الأول في عمر والدها والثاني لا يمكن تقدير عمره. ودون أن أسألها قدمت لي السيدين: هذا عمّي الذي أناديه أبي، لا لأنه نام مع أمي وأنجبني (وأرسلت ضحكة بريئة)، لكن لأنني كبرت في بيته. جئت بيته ذات يوم زائرة ولم أعد إلى بيت والدي، أحببت العيش عنده لشيء واحد هو أنه كان يملك خمًّا كبيرًا مليئًا بالدجاج والإوز والبط! (وتضحك)، وكنت أقضي ساعات طويلة خاصة يوم السبت والأحد داخل الخم، وقد تعلمت لغة الدجاج، أكلمهم فيفهمونني وأفهم لغتهم الجميلة المليئة بالموسيقى، لولا هذا الخم بدجاجه وبيضه الكثير ما كنت قد فضلت العيش عنده، ولا كنت قد التقيت بك هنا وأنت تصرخ كالديك (وتضحك).

كنت كلما فكرت في العودة إلى بيت والدي تشدني دجاجات الخم بنقيقها الذي يشبه صوت الأوركسترا النمساوية الشهيرة، وفي هذا الخمّ أخفى عمي هذا (وأشارت إلى عمها) عددًا كبيرًا من اليهود الهاربين من بطش قوات فيشي، العم يسمى، كما فهمت من كلامها، إريك إيدو وأن هناك شارعًا باسمه في برلين وآخر في حيفا وساحة باسمه في وارسو. أما الرجل الثاني واسمه جان بيير لالوش، فهو مخرج سينمائي شيوعي، يعمل منذ ستة

أشهر على تصوير شريط وثائقي عن ظروف العمال الـزراعيين الأهالي، الذين يشتغلون في مستوطنات المعمرين المتخصصـة في زراعة أشجار الدالية، الموجهة لصناعة نوع من النبيذ الراقي اسمه مونيكا (وهو اسم أم القديس سـانت أوغسـطين العنابـي السوق-أهراسي) في ناحية عين تموشنت وريو صالادو وحاسي الغلة. وموازاة مع ذلك فهو يحضّر لإصدار كتاب مصور عـن هذه الشغيلة الزراعية، التي تعاني في صمت وظلم قد يتحول إلى انفجار اجتماعي ثوري دموي قريبًا، شبيه بذاك الذي حدث في سطيف وخراطة وقالمة وغيرها قبل بضع سنوات، وربما سيكون أكثر عنفًا ودموية. وجان بيير لالوش إضافة إلى ذلك شاعر نشر كثيرًا من قصائده في مجلات محترمة، وهو صديق لشاعر جزائري يسمى بشير حاج علي، مناضل شيوعي وأحد المثقفين المهـتمين بالثقافة الشعبية. شعرت بالسعادة؛ فالمرأة مثقفة وعلى اطـلاع على الوضع العام في البلد. ثم انتبهت وأطلقتْ ضحكة طويلـة قائلة: "نسيت أن أقدم لك نفسي، أنا نيكـول، أنـا الشـعب والانتصار، أنا إلهة الشمس، على الرغم من قصر طولي، أنا طويلة قادرة أن ألمس السماء لأنني عاشقة المسيح!". استطاعت السيدة بحديثها وثرثرتها أن تخلصني ولو إلى حين مـن هـوس صـوت رصاصات الرحمة، التي اخترقت جمجمة الحصان "فليش" رفيقي لمدة خمس سنوات. شعرت بإحساس فوري غريب تجـاه هـذه المرأة المخلّصة. خفت أن تتوقف عن الكـلام فيعـود صـوت رصاصات الرحمة ليخترق جمجمتي، فأصرخ ثانية وأعكر راحـة هؤلاء الزبائن الذين يجلسون باطمئنان من حولنا.

الآن أشعر بحرارة غريبة تتسرب من ذراعها الذي لا يـــزال يطوق رقبتي، فتنزل حتى ركبتي لتصل إلى أخمص قدمي. شعرت براحة غريبة في استسلامي لها.

الوقت الذي تتحكم فيه امرأة جميلة بلسان نـــاعم يمضـــي سريعًا. انتبهت إلى شارع الكورنيش من حولنا، لاحظـــت أن مساء وهران يلبس سواد الليل قليلاً قليلاً، والناس تخلي الشوارع والأزقة، والمحلات التجارية تُقْفل أبوابها بطريقة مثيرة. أصـــوات الأبواب الحديدية تنزل بقلق أو بعنف وكأنما الجميع يهرب مـــن الليل قبل أن يفاجئه في الشارع.

هوس أخبار الحرب التي في الأفق بدأت مقلقـــة ومعكـــرة لإيقاع يوميات المدن، الناس لا تفارق مسامعُها نشرات أخبـــار على محطات الإذاعات، والعيون غارقة بين ســـطور مقـــالات الجرائد، صفحاتها الأولى عليها صور المدرعات وطوابير العسكر والطائرات وأشياء أخرى مخيفة.

لا أدري كيف وجدت نفسي في شقة السيدة نيكول إلهـــة الشمس وجهًا لوجه مع عمها الذي هو بمنزلة أبيها، وضـــيفها المخرج السينمائي والشاعر جان بيير لالوش. جلسنا أربعتنا حول طاولة بسيطة عليها قنينة ماحيا، وصحن زيتون وقطع لحم صغيرة مطبوخة في مرق أحمر، بجوارها صحن رز وسلاطة خيار وزيتون وفلفل أخضر وجُبن ورأس نبتة بسباس مقطعة طوليًّـــا. كنـــت صامتًا وبـــي رغبة في شرب هذه القنينة دفعة واحدة. الحقيقـــة الجميع كانوا صامتين، وحدها نيكول إلهة الشمس لا تســـكت، لها ما تقوله دائمًا، تفتح موضوعًا لتغلقه كي تفتح آخـــر، مـــن

السياسة إلى أخبار الحرب إلى معاناة الأهالي، إلى أخبار الأسقف دوفال. ونحن جلوس حول الطاولة، كلما نظرتُ إلى نيكول أو استمعتُ إلى صوتها الجميل المُطَمْئِن، تمكنت من التخلص من هلع صوت رصاصات الرحمة التي أُطْلِقَتْ على رأس رفيقي الحصان فليش.

حين شعرت وكأنني الضيف الثقيل أو من دق باب منزل أحدهم خطئًا واقتحم حرمة المكان وحميمية أهله، وقد بدأ شراب الماحيا يلعب في رأسي العم والمخرج السينمائي. أما نيكول إلهة الشمس فلم يبد عليها أي أثر لشراب، مع أنها كانت تشرب من قنينة نبيذ خاصة بها وضعتها عند قدم الطاولة. قلت للجميع بعد أن عدلت من هيئتي قليلاً ولملمت لساني جيدًا في خطبة قصيرة: "سعدت بالتعرف إليكم، وشكرًا على الجلسة العميقة والسهرة الجميلة. أتمنى أن لا أكون قد أفسدت عليكم جلستكم بصراخي الأهبل في المقهى وبصمتي المخيب هنا". لم تترك لي نيكول إلهة الشمس فرصة إنهاء خطبتي، التي كنت قد فكرت فيها لحظات قبل ورتبت بعض جملها في رأسي قبل أن أنطلق في إلقائها بكل أدب، حتى قالت بنبرة الآمرة الحاسمة: "اجلس، ليس هذا وقت الخروج ولا وقت إلقاء خطب الساحات العمومية السياسية ولا خطب الآحاد الدينية، الوضع الأمني غامض وغير مريح، يمكنك المبيت هنا، فلنا غرفة خاصة بالأصدقاء في آخر الرواق يمكنك أن تنام فيها، وأن تغلق الباب عليك وتصرخ بأعلى صوتك في الحلم أو في الواقع، لن يسمعك أحد. على كل أنا نومي ثقيل خاصة بعد الكأس الثالثة، وبعد

قراءتي بعض ما تيسر من آيات الكتاب المقدس أسلم أمري للمسيح، وعمي هذا سمعه قليل حتى لا أقول إنه أطرش، ولالوش سكران سينام كعادته على كرسيه بعد أن يسحبه قريبًا من باب المرحاض، كي تسهل عليه حركة الذهاب والإياب الليلية لقضاء حاجته". صبت لي كأسًا أخرى، انتظرت رد فعل العم أو المخرج السينمائي، لا أحد منهما تكلم أو عقّب. شربت الكأس دفعة واحدة، وقد بدأت أشعر بإحساس غريب تجاه هذه المرأة، إلهة الشمس. خشيت إن غادرت هذا البيت أن تعود أصوات الرصاصات الرحيمة لتفجر جمجمتي. رصاصات الرحمة رحيمة بالراحلين الذين يتلقونها ولكنها معذبة بالنسبة إلى الباقين، سواء الذين يطلقونها أو الذين يسمعون صوتها أو الذين تخترق جماجم من يحبونهم. أنتبه الآن إلى تنورة نيكول فهي قصيرة جدًّا تصل فوق الركبتين بقليل، تكشف عن ساقين بيضاوين مصقولين بعناية مدهشة، وأن لها قامة ربعة لا هي بالقصيرة ولا بالطويلة. ليست قصيرة كما بدت لي قبل قليل في المقهى، اللباس القصير زادها قصرًا، الصالون الذي نحن فيه جالسون بسيط جدًّا، بعض قطع الأثاث يكشف عن ذوق جمالي سليم وراق. في الركن طاولة خشبية عليها جهاز فونوغراف من نوع فيليبس، بجواره رزمتان من الأسطوانات، الأولى عبارة عن أسطوانات ذات 45 لفة والثانية من الأسطوانات ذات 78 لفة. منذ بداية السهرة تتناوب نيكول والمخرج بيير لالوش على تبديل الأسطوانات من على الجهاز. حديث نيكول المتشعب والمهيمن على الجلسة لم يترك لي فرصة الاستمتاع جيدًا بأغاني ليلي بونيش وأحمد

وهبـــي ورينات الوهرانية. الآن وقد تعبتُ قليلاً أو كثيرًا، أنتبه إلى صوت ليلي بونيش، يغني أغنية لطالما حفظتها عن ظهر قلب ورددتها كثيرًا وأنا على ظهر حصاني فليش: "**أنا الورقة**". فجأة صرخت عاليًا: "فليش، فليش". قفزت نيكـــول مـــن مكانهـــا واحتضنتني وقادتني على الفور إلى الغرفة التي في آخر الـــرواق. سحبت الحذاء من قدميّ وأغلقـــت البـــاب. نمـــت بلباســـي وبجواربـــي، وفي الصباح وجدتني ممددًا علـــى الســـرير وهـــي بجواري شبه عارية. نظرت إليها كانت لا تزال تغـــط في نـــوم ملائكي عميق، وعلى ملامح وجهها ابتسامة خفيفة، احتضنتها، ومن لحظتها لم نفترق.

القلب

ولد ليفي زمرمان النقاوة بقرية الحناية، أوجين إيتيان سابقًا، وهي بلدة صغيرة توجد على أطراف مدينة تلمسان، على بعد عشرة كيلومترات. وتؤكد شجرة العائلة التي يحتفظ بنسخة منها، وهي وثيقة غالية تناقلتها الأجيال أبًا عن جد عن جد عن جد الجد، أن ليفي النقاوة ينزل من عائلة عريقة سكنت المنطقة منذ قرون خلت، جاءت إلى هذه البلاد كما جاءت كثير من العائلات الموريسكية المسلمة. لقد وصلت معية الحكيم الحاخام أبراهام النقاوة (1359-1442) رقيد مدينة تلمسان، والذي يحمل اسمه وباحترام وتقدير بين أهالي المدينة حتى الآن.

في جلسة حميمية يروي ليفي النقاوة لنيكول حكاية جده الأول: "... تروي كتب التاريخ أنه جاء من الأندلس على إثر المتابعات والتعذيب والتقتيل التي لحقت بيهود قشتالة، من العلماء ورجال الدين والفلاسفة والتجار والحرفيين والفنانين. في حمى

هذه الكراهية تعرض الحكيم النقاوة صاحب مؤلف **مينـــورات هاماوور** إلى الحرق حيًّا مع كتبه في الساحة العمومية، وعلى إثر ذلك هرب الابن أبراهام إلى بلاد تامزغا وهي أرض الأمـــازيغ الشجعان، ووصل المدينة الحمراء مدينة مراكش، لكنه لم يستطع البقاء فيها ومنها توجه فورا شرقًا إلى مدينة تلمسان، التي كانت حاضرة معروفة وقد ذاع صيتها في العدوتين لطبيعتها الخلابـــة ولشعرائها وعلمائها.

لقد أخبره قلبه بالذهاب شرقًا، والحكماء يتبعـــون نـــداء القلب؛ فكان أن وصل مكانًا اسمه هُنَيْن أو حُنَيْن، يبعـــد عـــن حاضرة تلمسان بنحو ستين كيلومترًا، وهي الأرض التي ينتمـــي إليها كاشناق أو شاشناق الذي ورد اسمه في العهد القديم والذي أصبح فرعونًا وحكم مصر نحو عشرين عامًا، وهي منطقة زراعية لا يتكلم أهلها إلا اللغة الأمازيغية، ومن هذا المكـــان ركـــب أبراهام ظهر أسد ممسكًا بلجام هو عبارة عن أفعى حية، وطـــار الأسد ليحط به عند أسوار مدينة تلمسان، وعليها سلطان اسمـــه لكحل أحمد المنصور، وكان لهذا الأخير بنت جميلة لم يولد مثلها في الإمارة، وهي وحيدته المدللة وذريته التي بها يتفاخر ويتبارى ويتوارث، وكانت تعاني من مرض خطير، وقد فقد الملك كـــل أمل في شفائها واسترجاع صحتها بعد أن جلب لها عشـــرات الحكماء من كل البلدان شرقًا وغربًا ومن كل الأجناس، وجرّب لها مئات العقاقير والأخلاط و لم ينفع لا عقار ولا خلطة، وظلت حالتها الصحية تتدهور أكثر فأكثر، والسلطان يدخل يومًا بعـــد يوم في حالة اكتئاب أثرت على صحته هو الآخر. وما إن وصل

أبراهام النقاوة الأسوار الخارجية لحاضرة تلمسان راكبًا ظهر أسد، وبيده لجام هو أفعى حية حتى بدأ التلمسانيون من ساكنة المدينة، من خارج الأسوار وداخلها، يتحدثون عن شخصيته وعن علمه وفطنته وغرابة أمره. وفي أيام قليلة شغل حضوره الجميع من مجالس الخاصة وأسواق العامة، وإذ وصل الخبر إلى ردهات القصر، استفسر حجاب ومستشارو السلطان فورا عن شخصه، وعرفوا أن القادم عالم وحكيم، وقد وصلت شهرته حتى مراكش وسجلماسة وبجاية والقدس. لم يرد رئيس الحجاب أن يفوّت الفرصة فدخل على السلطان المنصور قائلاً: "مولاي بأبواب مدينتكم العامرة حكيم غريب قادم من الأندلس، يقال إن له قدرة على شفاء أي مريض". ولم يتريث هذا الأخير فأمر بإحضاره على التو.

بعد ساعة القيلولة التي هي بمنزلة صلاة سادسة عند السلطان ولدى أهل المغرب وقشتالة والأندلس كافة، وعلى مائدة قهوة العصر، استُقْبِل الحكيم أبراهام النقاوة من قبل السلطان المنصور في الباحة المركزية لقصر "المشور"، والتي يظللها شجر الكرز أو "حب-الملوك" كما يسميه أهل حاضرة تلمسان. وعلى الفور عرض عليه الأميرة وهي في حالة يأس تشرف على الموت، فحصها الحكيم، ثم حضر لها خلطة خاصة ناولها إياها في الحال، وطلب من السلطان أن يسمح له بالبقاء إلى جوارها بضعة أيام ليتابع وضعها الصحي بنفسه. وهكذا ومع مرور الأسبوع الأول بدأت الأميرة تتعافى، وشيئًا فشيئًا أخذت تستعيد ابتسامتها وحركتها، ولم تطل بها الأيام كثيرًا حتى عادت إلى حياتها

الطبيعية. فرح السلطان لما آلت إليه صحة الأميرة الوحيدة وقد تعافت نهائيًّا. وفي حفل سلطاني ضخم وبهيج أقيم على شرف الحكيم أبراهام النقاوة، عزفت فيه الموسيقى وغنت فيه المغنيات والمغنون ورقصت الراقصات وقال الشعراء شعرا كثيرا، ودعي إليه الوزراء والسفراء وكافة أعضاء الحاشية وجميع أفراد الأسرة. وفي هذا الحفل وبحضور الأميرة تم تكريم الحكيم أبراهام النقاوة تكريمًا خاصًّا يليق بمقامه وبعلمه، حيث خاطب السلطان المنصور الحكيم أبراهام النقاوة قائلاً ومعبرًا عن امتنانه وفرحته بعودة الأميرة إلى الحياة بفضل عقاقيره:

"... أيها الحكيم، والأميرة قد تعافت وعادت إليها ابتسامتها وبدأت حياتها الطبيعية من جديد، إنني مستعد أن أمنحك ما ترغب فيه، فاطلب ما تشاء أيها الحكيم القدير فأنا مستجيب لطلباتك مهما كانت ومهما عظمت".

سكت الجميع من الحضور بمن فيهم الأميرة، وبدوا في صمتهم ينتظرون طلبًا قد يكون معجزًا للسلطان، كأن يطلب الحكيم يد الأميرة للزواج، وهو ما كان يخشاه بعض الحاضرين الذين لطالما حلموا بمصاهرة السلطان أملاً في مال ومنصب وجاه. وبعد تفكير توجه الحكيم أبراهام النقاوة مخاطبًا السلطان، وبعد أن شكره على كرمه متمنيًا له وللأميرة الصحة وطول العمر قال:

"كل ما أطلبه من سلطان تلمسان العادل، إذا كان يحق لي هذا الطلب، هو أن تسمحوا يا مولاي لمواطنيّ من ملة موسى العيش بأمان داخل أسوار المدينة، كسائر سكانها من إخوانهم أبناء إبراهيم من المسلمين".

فما كان من السلطان إلا أن أصدر في اليوم التالي أمرًا بالسماح لليهود أن يدخلوا المدينة ويسكنوها، ويؤسسوا فيها حيًّا خاصًّا بهم ويبنوا فيها دور عبادتهم. وكان أن دخلوا المدينة وشيدوا أول حي خاص بهم هو درب اليهود، وفيه أقاموا أول كنيس للعبادة بتلمسان والذي لا تزال آثاره قائمة حتى اليوم.

أصبح الحكيم أبراهام النقاوة طبيب الأسرة الحاكمة والحاشية والأهالي دون تمييز، يزوره المسلم واليهودي لاستشفاء على حد سواء. وقد عاش محترمًا معززًا إلى أن توفي فبني له ضريح في مقبرة اليهود الخاصة، وظهر عند قبره نبع ماء أصبح لاحقًا يروى به المرضى طلبًا للشفاء، وتحول الضريح مزارًا لليهود والمسلمين يجيئونه طلبًا للشفاء من أي مرض عضال، أو للتخفيف عن مكروه اجتماعي أو أسري. ومع مرور السنين غدا الضريح مكانًا مقدسًا يحج إليه من كل أصقاع الدنيا طلبًا للبركة، وكان الحجاج لا يغادرون الضريح إلا بعد أن يأخذوا معهم كمية من ماء نبعه المبارك. إنه زمزم تلمسان كما كان يسمى.

ونظرًا إلى ما مثله أبراهام النقاوة في تاريخ تلمسان، فقد اعتبر اليهود تلمسان القدس الثانية أو قدس المغرب الكبير".

كان ليفي النقاوة زمرمان وهو يروي لنيكول حكاية جده بما فيها من تاريخي وأسطوري فخورًا بانتمائه إلى تلمسان، المدينة المختارة.

إنه ابن البلد.

في المكان الخطأ

منذ أن انتقل إلى ثكنة حي المدينة الجديدة بوهران، بطلب منه وبموافقة من الطبيب النفساني العسكري، يحظى النقيب ليفي النقاوة زمرمان بالاحترام والتقدير من قبل جميع الضابط وضباط الصف والجنود على اختلاف عقائدهم؛ لكونه ابن البلد أولاً، ولأنه يقرأ بالفرنسية والعربية والألمانية والإنجليزية، ويحسن الحديث بالأمازيغية ويعشق سماع الموسيقى الكلاسيكية والأندلسية، بل إنه يحسن العزف على آلات الطار والعود والقيثارة.

يقول ليفي النقاوة زمرمان لنيكول وبنوع من السخرية الملفوفة في تأمل فلسفي: القضايا الإبداعية كالشعر والرواية تقرأ بالفرنسية، والأمور الجادة كالفلسفة والمنطق تقرأ بالألمانية، الألمانية لغة العقل والفرنسية لغة القلب، والعربية والعبرية لغتا الدين والتعبد، أما الأمازيغية فهي لغة الحياة والصدق والفلاحة.

من على ظهر حصانه فليش الذي عاش معه خمس سنوات من هذه الحياة العسكرية، كان لا يتردد في إبداء إعجابه بالفلسفة وبمكتبته التي تحتوي على كلاسيكيات الفكر الماركسي، من أمهات كتب الفلسفة المادية التاريخية. وكان يفتخر باحترامه للاشتراكية ويعتز بصورتين شخصيتين له: الأولى إلى جانب زعيم الحزب الشيوعي الجزائري عمار أوزغان، والثانية مع زعيم الحزب الشيوعي الفرنسي موريس طوريز.

مع ذلك كان ليفي النقاوة زمرمان يشعر بإحساس غريب يراوده ويؤرقه ويقلق وجوده، فمن جهة هو الإنسان الأهلي حفيد أبراهام النقاوة والمؤمن والمدافع عن الحرية والعدالة، ومن جهة ثانية هو جزء من الآلة العسكرية التي تحمي نظامًا استعماريًّا استيطانيًّا قمعيا، كان يخاف من مواجهة مثل هذه الأسئلة التي تحفر بعمق في ضميره الذي يعذبه كلما اعترضه موقف قمعي للأهالي، ومرات كان يكتفي بالقول:

"أنا ابن الأهالي وحفيد الحكيم أبراهام النقاوة. أنا واقف في المكان الخطأ من التاريخ، في المعسكر الغلط، حُشِرتُ مع القوي بحكم مسار تاريخ ظالم". وكان يقصد بذلك مرسوم أدولف كريميو 1870 الذي منح بموجبه اليهود الجزائريون الجنسية الفرنسية بشكل جماعي، كل ذلك سعيًا لتقسيم وحدة الأهالي على أساس ديني، وكان حزينًا وغاضبًا ضد الأهالي من أجداده اليهود الذين انساقوا للعبة الاستعمار، وبالتالي ابتعدوا عن ذويهم من الأهالي المسلمين، وكان ذلك أول شرخ أقامه الاستعمار في البنية الاجتماعية والثقافية للمجتمع الأهلي الجزائري.

كان إذ يشعر بتعذيب الضمير أمـــام فداحـــة اللاعدالـــة الاستعمارية التي يساهم بشكل من الأشـــكال، مـــن موقعـــه كعسكري، في حراستها، ولكي يخفف من الانتكاس النفســـي الذي يعاني منه ومن الانفصام في شخصيته، كان يعمد إلى العودة إلى قراءة كتابات كارل ماركس عن الهند والجزائر، باحثًا فيهـــا عن بعض التبريرات غير المقنعة التي تحاول أن تظهـــر الجانـــب الحضاري للاستعمار. وكان كثيرًا ما يعود إلى تصريحات الأديب فيكتور هيغو الممجد هو الآخر لما يسميه الـــدور "الحضـــاري للاستعمار الفرنسي" في الجزائر. لكن كل ذلك لم يكن مقنعا ولا مريحا للبال.

على الرغم من حب ليفي النقاوة لشعر فيكتـــور هيغـــو، وإعجابه بأسلوب رواية **البؤساء** التي قرأها أكثر من مرة، فإنه لم يكن مقتنعًا في داخله بمثل هذه المواقف المنحـــازة إلى المعتـــدين الغاصبين للأرض والعباد، المؤيدة للجلاد ضد الضحية.

كان فيكتور هيغو وهو عضو مجلس الشـــعب أي البرلمـــان الفرنسي يقف في المكان الخطأ.

كأس زجاج مكسور

الأخبار غير سارة.

الجميع يتحدث عن التعذيب الذي يتعرض له الأهالي دون تمييز.

قوات الأمن منتشرة في كل مكان، وفي كل وقت.

منذ الأيام الأولى لعلاقتنا الغريبة وجدت في نيكول إلهة الشمس المرفأ الهادئ الذي ألتجئ إليه، حين تشتد العواصف وتعلو الأمواج فتهدد سفينتي بالغرق. كم مرة فكرت في الانتحار، فكانت تأخذني وتضع رأسي بين نهديها وتغني لي أغنية دينية، فأنسى جرحي وأرفض موتي أو أؤجله ولو إلى حين.

نيكول إلهة الشمس، هي من جعلتني أهزم نهائيًّا كابوس صوت الرصاصات الثلاث أو الخمس التي اخترقت رأس رفيقي الحصان فليش. لست متأكدًا من عددها، لكني على يقين أنها أنهت صاحبي وغيبته إلى الأبد. عوضتُ رعب هذا الصوت

القاتل بصوتها الجميل وهي تتحدث في كل شيء، وبكثير من الاندفاع والحماس والصدق الطفولي، عن حبها لزهر الميموزا وللمسيح وللأب دوفال وللنبيذ الأحمر، تتحدث في السياسة وفي الفن التشكيلي وفي الفلاحة وفي المجاعة التي تحصد أرواح آلاف أطفال من العالم الثالث.

نيكول امرأة متدينة، كاثوليكية، تمارس طقوس العبادة على طريقتها الخاصة، معجبة كثيرًا بأفكار وسلوك رئيس أساقفة الجزائر الأب ليون-إتيان دوفال، الذي استطاع أن يتجاوز نخبويته الكاثوليكية المتموقعة في معسكر الأوروبيين، معسكر الأقوياء الطيبين، ويندمج في أوساط العامة المسلمة من الأهالي الفقراء المضطهدين، ويسمع أصوات الثورة وهي تلعلع من بعيد حتى قبل حدوثها، هدير الانقلاب القادم، الذي يؤسس له هؤلاء الذين تعتبرهم الإدارة الاستعمارية العنصرية كائنات شريرة من الدرجة الثانية أو الثالثة.

المجتمع كأس زجاج وقد انكسر، كسره لا يجبر!

ثلاث صور بأحجام مختلفة للأب دوفال تتصدر شقة نيكول: الأولى معلقة في الصالون قبالة المدخل، والثانية في الرواق، والثالثة موضوعة بعناية في إطار خشبي عتيق على خزانة صغيرة عليها صف من الكتب عند رأس السرير. تقرأ نيكول كل ما تكتبه الجرائد عن هذا القس الإنساني، لا يفوتها شيء. الجرائد العنصرية تشتم دوفال وتخونه، وتعتبره إرهابيًّا يتعاون مع الوطنيين الاستقلاليين الإرهابيين من الأهالي. كانت نيكول، وبحرص شديد وحب جارف، تجمع كل ما يتعلق برئيس

الأساقفة الجزائر من تصريحات وحوارات وأقوال وخطب، تقص ذلك من الجرائد والمجلات وتحتفظ بها مرتبة ومهمشة بالتاريخ واسم الجريدة، تضع كل ذلك في صندوق خاص وتعتبره كنزًا إنسانيًّا كبيرًا للأجيال القادمة التي ستقرأ ما قام به رئيس الأساقفة لمصلحة استقلال الجزائر، إذا ما حصل واستقلت البلاد كما يقول المسيح ويؤكد ذلك صاحب الغبطة دوفال. على الرغم مما تبدو عليه من فوضى في كلامها وحركاتها، فإن نيكول امرأة منظمة في رأسها وفي حياتها اليومية.

لقد صنفت مصالح الأمن العسكري والمخابرات العامة الفرنسية اسم رئيس أساقفة الجزائر ليون-إيتيان دوفال، وبعض معاونيه من الآباء البيض والأخوات على القائمة السوداء، إلى جانب أولئك الوطنيين الاستقلاليين الذين يعملون وينشطون ضد مصالح فرنسا في الجزائر المستعمرة، من مسلمين أو مسيحيين أو يهود أو شيوعيين...

لقد تعقدت الأمور كثيرًا. الغضب يتطور بشكل متسارع ويكبر ككرة الثلج. قد يتحول من مجرد "شغب" إلى حرب معلنة تأكل في طريقها الأخضر واليابس.

زلزلت زلزالها

أصبحت نيكول مراقبة في حركاتها وتنقلاتها، خروجها ودخولها، رسائلها تصل صندوق البريد مفتوحة. وباتت الصحف تتحدث عن الأب دوفال الموضوع تحت الرقابة الأمنية المباشرة، بوصفه شخصية غير مرغوب فيها. لم يستطع الاستعماريون قبول فكرة أن يقف رجل دين مسيحي بقلبه وصلواته إلى جانب الثوار، ويساعد الأهالي من المسلمين الفقراء الذين هم حطب هذه الثورة التي في الأفق ضد وجود فرنسا "الحرية، المساواة، الأخوة".

زلزلت زلزالها، مسيحي بل رئيس الكنيسة في خدمة الدموين المسلمين!

ولأن رئيس أساقفة الجزائر صاحب الغبطة المونسينيور دوفال يقف إلى جانب العدالة، ويدين بشدة فنون التعذيب الجهنمية، والحرب الظالمة غير المتكافئة التي تشنها القوات

الاستعمارية ضد الأهالي، أطلق عليه الإعلام التابع لأصوات العنصريين من الأوروبيين المتطرفين لقب "محمد بن دوفال"؛ للقول إن هذا المسيحي "مسلم" أكثر من هؤلاء المسلمين الذين يستعدون لفتح النار على الوجود الفرنسي في الجزائر.

حتى إن بعض رجال الأمن يعتبرون وصول رجل الدين الأسقف دوفال إلى رئاسة أسقفية الجزائر عملية مدبرة بليل، رتبت لها بإحكام أيد خفية لا تحب الخير لفرنسا، وهو الذي كان بعيدًا عن العاصمة منسيًّا منذ العام 1946 ما بين قسنطينة وبونة.

لقد كان الأسقف دوفال من الأصوات الأولى التي وقّعت وثيقة الهدنة المدنية، التي حررها الكاتب ألبير كامو، والتي ساندها شخصيات سياسية ومدنية ودينية كثيرة. كما دافع دوفال وبشكل قوي عن فكرة الاستقلال للأهالي على المنابر الجزائرية والباريسية، وأيضًا على كثير من المنصات الدولية الدينية والسياسية والاجتماعية الأخرى التي وصل صوته إليها.

تقول نيكول بكثير من الألم: "حين كان صوت الأسقف محمد بن دوفال يزأر عاليًا يناصر عدالة القضية الجزائرية، حيث جند لها كثيرًا من رجال الكنائس والجمعيات الخيرية المسيحية وكذا المنابر الإعلامية الدينية، كانت في المقابل بعض أنظمة الدول الإسلامية تقف ضد استقلال الجزائر وضد ثورتها التحررية؛ فكان النظام التركي على سبيل المثال رديفًا للحلف الأطلسي المعادي لفكرة استقلال الجزائر".

تنشط نيكول إلهة الشمس بكل تفان في الأحياء الفقيرة التي غالبية ساكنتها من الأهالي، وفي عز الأحداث وهطول أخبار

التعذيب والتصفيات، كانت لا تتوانى عن تنظيم حملات التلقيح الطبية التي تقوم بها فرق الصليب الأحمر في أوساط الأهالي، خاصة الأطفال منهم. كما أنها وبكثير من الحرص تابعت وأشرفت على بناء ثلاث مدارس لتعليم أبناء وبنات الأحياء الفقيرة والمناطق الريفية المعزولة والمحرومة، في كل من البيض ووهران وتيزي وزو، وهي من تولت مهمة جمع المال من المتبرعين الخواص بغرض تجهيز هذه المدارس بالأدوات المدرسية، وكذا الألبسة والأحذية للأطفال التلاميذ وتأمين إطعامهم وإيواء من يقيمون بعيدًا في مراقد تابعة للمؤسسة.

تشيكو مدينة الجزائر

منذ أن دخلتُ هذه الثكنة قادمًا من بلاد الشمال، من ويسترهام، أحببت النقيب ليفي النقاوة زمرمان، كلما سمعته يتحدث ازداد احترامي لشخصيته، لما يملكه من فيض في ثقافته الفلسفية والأدبية والسياسية والموسيقية أيضًا. كان مختلفًا عن الآخرين، وكان أول بورتريه أنجزته وأنا في شهري الرابع من الخدمة العسكرية تحت إمرته هو لزوجته السيدة نيكول إلهة الشمس.

نيكول إلهة الشمس، كما تسمي نفسها، امرأة فاتنة، خفيفة الظل، مريحة المجلس، تقضم عمرها يومًا بيوم وبسعادة فائضة، ساعة بساعة تعيشها عاضة على تفاحة الحياة بأسنان حادة، أسنان ذئبة شرسة. نعومة الأنثى نائمة في مخالب نمرة متوثبة، عفوية وصادقة أكثر منها مثقفة نقدية، قلبها أعظم وأكبر من عقلها. لا ينزل اسم المسيح من فمها، صليبها الذي أهداه إياها خوري الكنيسة وهي لا تزال طفلة صاحبة العشر سنوات لا يزال حول

عنقها تحمله بكثير من الحب والإيمان، معلق في سلسلة ذهبية ينزل كعصفور بين نهديها النافرتين المكورتين بعناية إلهية. تحب نيكول الموسيقى العالمية وتعشق الفولكلور المحلي والرقص، ولا تُفوِّت عرضًا مسرحيًّا في أوبرا المدينة إلا وحضرته. لقد اعتادت نيكول أن تشتري باقة ورد مرة كل يوم سبت لتجمل بها رواق الشقة الصغيرة التي يقيمان فيها، هي والضابط ليفي النقاوة زمرمان في شارع الألزاس لورين، غير بعيد عن بناية البريد المركزي المثيرة بهندستها الهسمانية الجذابة، والمتميزة ببلكوناتها وواجهاتها المزينة بالمنحوتات والنقوش، موتيفات جميلة تنتصب على الشرفات والزوايا وأطراف السطح، لكن ومنذ أن بدأت أخبار الاعتداءات والحرائق غير المعزولة تصل المدينة وتغرق الجرائد ونشرات الأخبار في الإذاعات، توقفت نيكول عن عادة شراء الورد، وهي تعتني بالقط ليزيو (سمته على اسم مدينة ليزيو حيث ترقد القديسة تريز)، والقطة لورد (سمتها على اسم المدينة المقدسة الأولى في فرنسا وهي لورد) تقضي ساعات تصالح بينهما، كلما ما ارتفع مواؤهما ونشب خصامهما وما أكثره، خصام يكون عادة بسبب من يستولي على المكان الأفضل والاستراتيجي أمام المدفئة شتاءً.

ولدت نيكول لأسرة تنحدر من مقاطعة الألزاس على الحدود الألمانية الفرنسية، من مدينة صغيرة اسمها ميلوز. جاءت أسرتها الفقيرة المكونة من الجد والجدة والعمتين بلاد الجزائر المستعمرة الجديدة دون سابق تخطيط، حافية الأقدام، بعد الخلافات السياسية التي وصلت إلى معاهدة العاشر من مايو 1871، التي بموجبها تنازلت فرنسا فيها لألمانيا عن منطقتي

الألزاس واللورين. ولحل مشكلات كثير من مواطنيها وإسكات احتجاجاتهم وإطفاء غضبهم، وكي تعيد إليهم شهوة الامتلاك وحلم السلطة ولذة العيش المريح، وجدت لهم فرنسا أرضًا بديلة؛ فأرسلت هذه الحثالة البشرية الفقيرة لتتقاسم أرض الجزائر، التي كان قد تم غزوها بجيوش جرارة في شهر يوليوز من العام 1830، بعد أن خانها حاكمها التركي الداي حسين، الذي سلّم للغزاة مفاتيح مدينة الجزائر ووقّع لهم وثيقة الاستسلام.

بعد خمسة أيام من اتفاقية الاستسلام، التي وقعها كل من الداي حسين والجنرال لويس دو بورمون، والتي تنص على تسليم قلعة حي القصبة وجميع قلاع العاصمة للجيش الفرنسي الغازي، الذي نزل شاطئ سيدي فرج في عدد يفوق أربعة وثلاثين ألف عسكري، التزمت فرنسا بموجب وثيقة الاستسلام منح الداي حسين حرية اختيار المكان الذي يريد الالتجاء إليه، والتزمت أيضًا بالسماح له بأخذ أملاكه من الذهب والفضة، وبأن يرحل معه من يشاء من حريمه ويشحن ما يشاء من عبيده.

بمجرد تسليم مفاتيح العاصمة، ومنذ الصباح الباكر كانت الباخرة جان دارك راسية في الميناء على استعداد لنقل الداي حسين، إلا أن هذا الأخير فضل مغادرة قصره مع غروب الشمس وتحت جنح الظلام؛ حتى لا تتفرج عليه العامة هاربًا ذليلاً، وهو الذي كان سيدًا أميرًا، آمرا ناهيا، طليق اليد. مع ذلك حين غادر قصره كان يتوقع أنه سيجد سكان العاصمة متجمعين في الشوارع والساحات وعلى سطوح المنازل، لتوديعه والبكاء على فراقه. كان يعتقد أنهم ربما سيحتجون على ترحيله

وبهذه الطريقة المهينة، لكن لم يكن للرعية أي أثـــر في الفضـــاء العام، و لم يظهر وجود أي تجمع في الطريق الذي ســـلكه مـــن القصر إلى الميناء. بعض الفضوليين، وبالصدفة، وقفوا على عتبات أبوابهم ينظرون إلى موكبه بكثير من اللامبـــالاة. وأمـــام هـــذا الصمت الشعبـــي سار هو وحريمه محاطين بصفين من العبيد نحو المرفأ، وعيونهم من الخجل مغروسة في الأرض.

حين صعد الداي حسين إلى المقصورة في البـــاخرة جـــان دارك، لم تطلق مدافع المرفأ طلقات التحية له، وهو الـــذي دأب على سماع أصواتها وهي تودعه إذا ما سافر متمنية له كل النجاح والنجاة، ومدوية إذا ما عاد من سفر آخر تستقبله بالاحتفـــال والسعادة. اليوم لا شيء من ذلك، يركب البحـــر في صـــمت بائس، من نافذة مقصورته ألقى النظرة الأخيرة على القصبة التي قضى فيها اثني عشرة عامًا حاكمًا على العباد بيد مـــن حديـــد طليقة في الأملاك وشادة على الرقاب، ثم نظر إلى حريمـــه مـــن حوله وبكى، وربما تذكر قصة هزيمة أبـــي عبد الله الصغير آخر ملوك غرناطة، أو التشيكو أي (الطفل) كما كان يسميه الإسبان وهو يسلم مفاتيح قصر غرناطة للملك فرديناند والملكة إيزابيلا، وتذكر أمّ الأمير وهي تخاطب ابنها المهزوم وقد قُضي الأمر وهو يقف أمامها باكيًا بعبارتها المدوية التي ظلت ترن في آذان التاريخ: "ابك كالنساء ملكًا لم تدافع عنه كالرجال".

ها هو الداي حسين يرحل ليموت في المنافي ذلـــيلاً كمـــا رحل الأمير أبو عبد الله الصغير ذات يوم إلى فاس ليموت فيهـــا نسيًا منسيًّا.

كانت رغبة الداي حسين التوجه إلى فرنسا للإقامة هناك، لكن الملك شارل العاشر رفض طلبه؛ فاضطر أن ينـــزل بمدينـــة نابولي الإيطالية ليقضي هناك ثلاث سنوات، ينتقل بعـــدها إلى الإسكندرية، وفي هذه المدينة مصابًا بالكآبة وفجيعـــة النســـيان يموت الداي حسين، كان ذلك 1838.

امرأة

لا تخجل نيكول إلهة الشمس من الإشادة بأصولها الفلاحية الفقيرة، بل كثيرًا ما كانت تتباهى بذلك معتبرة الفقر طريق الفرد إلى تحقيق إنسانيته العميقة، من خلال العمل الجاد الذي يساهم في حب الأرض والرب والمسيح، ونحت الشخصية القادرة على مواجهة الصعاب وتجاوزها. الحياة معركة شاقة وجميلة، الكسل هو العيب الشنيع، أما الفقر فهو حالة اجتماعية عابرة يمكن تجاوزها بالعمل الذكي المنتج. ونيكول عضو فعال في عدد من الجمعيات الخيرية التي تنشط في الأحياء الشعبية العربية والأمازيغية. تتكلم العربية الدارجة بطلاقة وتتقن اللغة القبائلية دون لكنة. كما أن لون بشرتها القمحي وشكلها الفيزيولوجي المألوف والقريب من أشكال أجساد نساء البلد، وكذا عفويتها في التعامل، تلك عوامل تلغي وبسرعة كثيرًا من الأسوار الاجتماعية والسدود السيكولوجية القائمة ما بين المعسكرين، معسكر الأوروبيين الذين يرمزون إلى

صورة المستبد من جهة، ومعسكر الآخرين الأهالي الذين ينتمون إلى العامة المفقرة من جهة ثانية.

تصر نيكول على الاحتفال مع الأهالي بالأعياد الدينية، فتشاركهم بهجة عيد الأضحى وعيد الفطر وعاشوراء والمولد النبوي، ولا تخدش صيام أحد أيام رمضان.

نيكول امرأة لا تهدأ ولا تستريح ولا تسكت أبدًا، لها في جميع الجلسات ما تقوله دائمًا، في باب عمران المدن والفن التشكيلي وفي السينما وفي السياسة أيضًا، وإن كان ذلك بتحفظ. تقرأ باستمرار وتكتب ملاحظاتها عن كل ما تقرأه، خاصة كتب تاريخ الفن والهندسة المعمارية، تجمع كل ذلك في شكل دفاتر صغيرة تحتفظ بها منظمة، تخرجها عند الحاجة، هي سلاحها في ساعات المناقشات الجادة مع ليفي النقاوة زوجها، أو مع ضيوفهما الذين لا أحد فيهم يستطيع أن يعارضها أو يعترض على رأي تبديه، هي صاحبة الكلمة الأخيرة. لنيكول مجموعة من النظارات تحمل خمسًا منها في حقيبتها باستمرار، نظارة للقراءة، وثانية لمشاهدة العروض السينمائية، وثالثة للتدقيق فيما يقدم لها في صحنها من طعام ساعة الأكل، ورابعة للشمس، وأخرى لزوجها ليفي الذي يضيِّع نظارة كل أسبوع تقريبًا، ينساها عند التاجر أو فوق طاولة في المقهى أو في قاعة الاجتماعات أو في دورات المياه العمومية...

لم أكن أتوقع!

قبل أن أشرع في رسم بورتريه لنيكول وبشكل فجائي عانقتني وقبلتني بإحساس غريب، وانطلقت في شهيق متواصل.

تخلصتُ بصعوبة من بين فكّي ذراعيها وانتحيت جانبًا، فتحت النافذة وأشعلت سيجارة. لم أكن أتوقع أن تكون هذه المرأة الصلبة الدؤوبة بكل هذه الهشاشة الكبيرة. بهدوء دخنت سيجارتي وأنا أنظر من نافذة هذا الأستوديو الذي أقيم به، الموجود في عمارة بحي اسمه "حي الحياة"، حيث أتخذ منه مرسمًا أيضًا أجيئه مرتين في الأسبوع. أشعلت لها سيجارة بعد أن استعادت أنفاسها ومزاجها ولسانها السليط، ولست أدري لماذا بدأتْ في رواية أحداث قصة غريبة لكاتبها المفضل غي دو موباسان "هوتو الأب والابن" (Hautot père et fils)، والتي يبدو أنها تحفظ نصها كاملاً تقريبًا. تدور أحداث القصة حول حياة رجل متزوج ظل يخفي عشقه لامرأة وتواصله معها بانتظام طوال حياته الزوجية. وعلى مدى سنوات علاقتهما الطويلة كان معتادًا على زيارتها مرة في الأسبوع، في نفس اليوم وفي نفس الساعة، كل خميس في الساعة الحادية عشرة. وفي كل زيارة يجلس في الركن نفسه، على ذات الكرسي، أمام الطاولة نفسها. قبل أن يموت طلب من ابنه الوحيد الشاب أن يتولى زيارة هذه السيدة ليمنحها بعض المال مرة كل أسبوع، دون أن يفصح له عن طبيعة العلاقة التي تجمعهما. ينفذ الابن وصية الأب، يدخل بيت السيدة كما كان يفعل الأب، في نفس اليوم، وفي نفس الساعة، تجلسه في ذات المكان الذي كان يجلس فيه الأب وعلى نفس الكرسي وأمام الطاولة نفسها. وصادف أن كان الشاب يشبه أباه كثيرًا، شيئًا فشيئًا، زيارة بعد أخرى، تسقط المرأة في عشق الابن، فيصبح بديلاً للأب في مخيال المرأة... واستطاعت أن تقاوم

الحزن وأن تعوض فراق العشيق وفراغ الحضور بوجود هذا الابن الذي حافظ على عادة الأب.

لم أفهم جيدًا لماذا كلما جاءت المرسم، يحدث هذا كل أربعاء، في الساعة نفسها، تجلس في المكان نفسه، أمام النافذة نفسها، وتبدأ في إعادة قص تفاصيل حكاية كاتبها المفضل كما تقول غي دو موباسان. ما الشيء الذي يحركها يا ترى؟ فأنا لا أشبه أبي وهي لا تعرفه أصلاً، وأنا أيضًا لا أعرفه، وهذا الأخير، كما تروي جدتي، كان إفريقيًّا وربما غيورًا كما شخصية عطيل في مسرحية شكسبير. كان يعشق أمي وهو الذي أوصى أن أسمى باسم أوغسطين، على اسم القديس سان أوغسطين الذي ولد في قريته سوق أهراس بالشرق الجزائري كما روت أمي. لكن على عكس بطل قصة موباسان، كان والدي نذلاً حقيرًا لأنه ترك أمي قبل أن تلدني بأسابيع قليلة واختفى هاربًا إلى إفريقيا.

"ها أنا ذا ألحق به". قلت في نفسي.

وكلما هممت إلى الاستفسار عن سبب تعلقها بقصة موباسان هذه، كانت نيكول تقاطعني وتشرع في الحديث عن حياة والدها الثري الذي كان تاجر تحف فنية، وهي تجارة ذكية ونادرة، زبائنها من الطبقات البورجوازية والأرستقراطية. وقد زار مدينة الجزائر أول مرة عام 1930 لحضور الاحتفالات المئوية، المخلدة لذكرى دخول الجيش الفرنسي الجزائر، وفيها تعرف إلى جورج مارسي أحد أهم المتخصصين في الفن الإسلامي، ومحمد راسم أكبر رسامي المنمنمات في تاريخ الجزائر وبلدان المغرب

والمشرق وأصبح صديقًا لهذا الأخير. سافرا معًا إلى كثير من البلدان، ومعًا زارا مدنًا في الشرق والغرب والشمال والجنوب: القاهرة وقرطبة ووهران وبسكرة وبوسعادة وغرناطة وروما والبندقية وبوخارست وغيرها. وكان لمحمد راسم الفضل في تعريف والد نيكول على فن المنمنمات والمخطوطات أيضًا، وهو الذي فتح له باب الثراء من خلال ولوج سوق التحف الفنية الإسلامية؛ فسافر إلى جدة وعدن وسنغافورة وأصفهان وسمرقند وبخارى ومراكش وتمبكتو، وكان أن أصبح أحد أكبر ملاكي المجموعات النادرة من المخطوطات والمسكوكات الإسلامية.

كانت نيكول مسكونة بحب والدها، تتحدث عنه بكثير من الإحساس الغريب. صغيرة كانت لا تنام إلا بين ذراعيه، فقد عاشت تنتظره، وكبرت وهي لا تعرفه إلا من خلال حكايات الأم عنه. لم تستطع الأم تحمل غياب الأب وأسفاره المتتالية وانشغاله بتجارة القطع الفنية، وعلاقته الهوسية بمحمد راسم الذي أحبه حبًّا مجنونًا، وذات صباح أخذت الأم مصيرها بين يديها وقررت أن تغادر البيت نهائيًّا، وأن تترك له الطفلة.

وفي اليوم التالي حين لم تعد الأم، بكت نيكول غيابها وقاطعت والدها، إذ لم يستطع أن يكون بديلاً عن الأم ولا أن يملأ مكانها. وأصيبت نيكول جراء ذلك بمرض فوبيا الظلام، فكانت تخشى النوم وحدها في غرفة، كل شيء أسود من حولها أصبح يرعبها.

قرر الأب التوقف عن رحلاته والخروج للبحث عن زوجته وإرجاعها إلى البيت. وقد قضى ثلاث سنوات في ذلك، وحين

عثر عليها في مدينة شاطئية مغربية صغيرة تدعى السعيدية، على الحدود الجزائرية المغربية، كانت هنيئة في أحضان رجل آخر، في سرير آخر، "لقد وصلت متأخرًا"، رمت العبارة في وجهه ثم غادرت المطعم الذي التقيا فيه. وقد حرك ذلك لديه غيرة كبيرة، ولأول مرة يدرك أنه كان يحبها، "لا نعرف قيمة الشيء إلا حين نفقده"، قال ذلك في نفسه ثم انسحب مهزومًا.

لم يجد الأب المنشغل بأسفاره وتجارته سوى أخيه غير الشقيق، لكي يقترح عليه مقابل علاوة مميزة احتضان الطفلة، وكانت سعادة هذا الأخير كبيرة أن تنتقل نيكول للعيش في بيته، خاصة أنها تحب خم الدجاج، بل أصبحت تنقنق كما الدجاج وهي في غمرة من السعادة أنستها أمها.

على الرغم من الجرح الذي تركه في أعماقها رحيل والدها، وهو الذي لم تكن تلتقي به إلا لمامًا؛ فأسفاره وتجارة التحف الفنية لم تكن لتترك له وقتًا لملاقاة ابنته الوحيدة، مع ذلك فنيكول بمجرد أن بدأت تعي العالم من حولها باتت تحافظ على كل ما خلفه والدها، الذي مات بعد أن احتفل بالتسعين من عمره. مات وهو يضحك بأسنانه كاملة العدد في فكيه، لم يمسسها سوس ولا هزّها كلاب طبيب الأسنان. مات وهو يشرب النبيذ الجيد المعتق كما في العشرين، ويأكل الفستق المحمص والكرز المجفف، ويستمع إلى محطة إذاعية، يفتح الراديو دون أن يسمع، ترافقه الأصوات الأثيرية والموسيقى دون أن يعيرها انتباهًا، هي عادة معه منذ الشباب. وفي ليلته الأخيرة تلك، ليلة شتوية باردة، ليلة نبيذية كما كان يحلو له أن يسمي ليالي الشتاء القارسة،

حيث يستهلك كمية كبيرة من النبيذ الأحمر، تذكر زوجته التي تركته لابنته وغادرت البيت دون رجعة. ولأول مرة تحدث عنها بكثير من الشعرية والاعترافات الجوانية. قال عبارته الأخيرة: "كان من حقها أن ترحل. لقد شعرت خطأً بأنها فقدت مكانها في القلب وفي البيت أيضًا. لقد غطى وجود محمد راسم على كل شيء". مال على جنبه الأيسر قليلاً وكأس النبيذ في يده، وحبة الفستق الإيراني بين أسنانه، ثم بهدوء مات. رحل مبتسمًا بكل أسنانه البيضاء وبضرس العقل الذي لم يخنه.

عانقتني نيكول بعنف قائلة: "أنت شبه المسيح، أنت أبي، بعيونه التي ترى الألوان والأشكال على غير ما يراها الآخرون، بأنامله التي تصنع الجمال من الوهم، بسحابة دخان سيجارته التي تصعد بهدوء يثير الجنون".

وتبكي. ثم تستغفر المسيح وتدعو لمحمد بن دوفال بالتوفيق والسداد على طريق الخير ومحبة الفقراء من المسلمين.

تحتفظ نيكول بكل شيء يذكرها بأبيها، وهو الذي يحمل الاسم نفسه الذي يحمله بطل قصة غي دو موباسان. بعض اللوحات الكاليغرافية العربية والمنمنمات الإسلامية لا تزال ملصقة على إطاراتها المذهبة، فواتير وأسماء وعناوين وهي جاهزة للإرسال إلى بعض المتاحف العمومية، أو أروقة الفنون التشكيلية الخاصة في مدينة البندقية وهران وباريس وعنابة ومرسيليا وبيروت ونيقوسيا والإسكندرية. وتحتفظ نيكول أيضًا وبكثير من العناية والحرص المهووس بجميع أوراقه الشخصية، بطاقة التعريف الوطنية وجواز السفر وتأشيرات سفر إلى بلدان عربية وآسيوية

وأوروبية وأفريقية وأمريكية، ورسائل العشق المتبادلة بينه وبين محمد راسم والمخبئة في غلاف خاص مكتوب عليه "سري لا تُفتح". وأول صورة لها معه وهي في سن الثالثة من عمرها، ويومياته المكتوبة بخط يده وبقلم حبر ذي لون بنفسجي على دفاتر مدرسية من ثمانية وأربعين صفحة، والتي تجاوز عددها العشرين، جميعها مغلفة بأغلفة بلاستيكية وبألوان مختلفة حمراء وصفراء وزرقاء ورمادية وبرتقالية ووردية. منظر هذه الدفاتر مثير للغاية، وتعتني أيضًا بمحتويات مكتبته الغنية بكتبها في الجغرافيا والسحر وأدب الرحلات خاصة، وتحافظ أيضًا وبكثير من الحميمية على فواتير الفنادق التي أقام بها والمطاعم التي أكل فيها.

كان والدها يحتفظ بكل شيء يخص حياته، حتى تذاكر الترامواي والقطارات والباصات مرتبة بعناية في صناديق من كرتون.

بهذا الهوس بأشياء والدها، من تلك الصغيرة التي تبدو تافهة كالفواتير وبطاقات البريد وكناشات أرقام الهواتف، والكبيرة كاللوحات الفنية وحتى اللوحات العالمية بإمضاءات كبار التشكيليين أو الخطاطين، كانت نيكول تريد أن تقول لروحه إنها وفية له، ابنة أبيها، بل عاشقة أبيها.

قلت لها وهي تعانقني وتبكي:

"كل فتاة بأبيها مغرمة".

الساعة

كلما قابلتني نيكول وحدقت فيها النظر وهي جالسة على الكرسي وأنا أنجز لها البورتريه، أكتشف في عينيها شيئًا غريبًا، ثم ما إن أشرع في فك لون عينيها حتى تترك كرسيها وتعانقني وتبكي بكاء الطفلة التي ضيعت لعبتها العزيزة، أو ضيعت يدًا حنونة في الزحام كانت تقبض على يدها بأمان، تنظر إلي قائلة: "أنت المسيح الصغير".

مع أنني أصغر من نيكول بعشريتين تقريبًا، ومع ذلك كانت تبدو لي كطفلة ضائعة، تنازلت فجأة عن شخصيتها وعن صلابتها وانهارت أمام ألواني وفرشاتي.

"أعرف أنك لا تؤمن بتقمص الأرواح، أنت أبي، تعود إليّ في هذه البلاد التي سرقناها من أهلها كما يقول الأب محمد بن دوفال".

"سرقناها من أهلها؟". هي جملة أثارتني ودوختني وجعلتني

أفكر في أخبار الفوضى واللا أمن التي بدأت تصل من هنا وهناك، مع الحرائق التي جاءت على المحاصيل الزراعية لبعض المستوطنين الزراعيين في ريو صالادو وحاسي الغلة ومسرغين والعامرية وعين تموشنت ومعسكر وسيق وغيرها.

نيكول امرأة لا تشيخ، في عقدها الرابع لكنها تبدو فتاة في العشرين، بضحكة مراهقة تُفاجَأ برسالة عشق مثيرة يضعها جارها المتيّم خفية في حقيبة يدها، بوجه مضيء بدون أسارير، مرسوم في ابتسامة برونزية خالدة، تنظر إليّ نيكول وأنظر إليها، أخفض نظري، أخاف أن أنزلق خارج دوري كرسام هاوٍ ينجز لها لوحة يجب أن تكون صادقة ودقيقة.

من الصعب جدًّا رسم وجه امرأة منتصرة على الزمن، أن تقبض على ملامحها الصادقة في الألوان وبالألوان وهي متفوقة على قطار الأيام، منتصرة على المينوبوز والكآبة والشيخوخة والشخير. كنت أراقب حركاتها فأضيع، أتأمل ماء زرقة عينيها فأخشى الغرق، أصابعها لم تهزم من شمس صيف ولا صقيع شتاء، ولا أثر ماء جافيل ولا صابون مغشوش التركيب... مع ذلك كنت كلما غادرت السيدة نيكول المرسم، الذي هو عبارة عن القسم الخلفي لغرفة النوم التي قسمتها بستار من بلاستيك إلى قسمين، قسم به سرير والآخر به مكتبة صغيرة، وألوان وفرشاة وهاتف، وأزواج أحذية: واحد شتوي وآخر صيفي وثالث للمدينة ورابع حذاء عسكري... أتساءل: هل أحب نيكول أم إنني أخاف شخصيتها التي تسكنني، تبلع وجودي، لا تترك فيّ شيئا قائمًا؟

كلما تأملت ملامح وجه نيكول الملائكي أجدني أقابل وجهًا من وجوه لوحة بيكاسو "نساء الجزائر" التي لا تزال تفاصيلها عالقة في ذهني، لست متأكدًا ربما هي "لوحة نساء الجزائر في بيوتهن" لأوجين ديلاكروا؟

حين كنت طالبًا في كلية الطب بباريس، عشت لمدة سنة كاملة تجربة غريبة، على حافة الجنون، إذ كنت وأنا في سنتي الأخيرة، سنة التخرج، ألبس على طريقة بيكاسو الغريبة وأهيم في شوارع باريس. شكلي هذا كان يثير زملائي في الدفعة وكذا كل من أصادفه في طريقي. في هذه الفترة كنت أحاول جاهدًا إعادة رسم لوحاته الشهيرة وبالأساس: "نساء الجزائر" و"المرأة التي تبكي" لم تشدني كثيرا لوحة "غرنيكا". كنت أقضي الساعات أمام سحرية هذه الكائنات التي تخرج من تحت الألوان بصعوبة وشقاء ومتعة. والغريب أنني كنت أسمع شيئًا يشبه الصوت، فأتخيله صوت بيكاسو يرن كالهاتف في رأسي، ومن خلال صوته وأحاديثه في رأسي تعلمت الإسبانية وأتقنتها دون أن أحضر درسًا واحدًا في هذه اللغة، وأنا اليوم أتحدث بها بطلاقة وأقرأ بها بيسر وأكتبها سليمة. الناس هنا في وهران يتكلمونها بشكل اجتماعي واضح والأقلية الإسبانية طاغية الحضور في المدينة، خاصة في أوساط الصيادين وأصحاب المطاعم والحانات في المرسى وعين الترك وبوزفيل والأندلس وبائعي الماء الحلو. أشعر بسعادة إذ ألتقي أحدهم يتكلم الإسبانية، خاصة إسبانية كائنات "بيت التسامح" وأصحاب المسمكات ومطاعم الغلال البحرية...

سؤال

أيام بأخبار قلقة.

ككل صباح عند ساعة رفع العلم وككل مساء عند ساعة إنزاله، يذكرنا النقيب ليفي النقاوة زمرمان قائد ثكنتنا بالوضع المتأزم، وينبهنا إلى ضرورة تجنب ارتياد أماكن التجمعات الشعبية الخاصة بالأهالي، وعدم المغامرة بالتسوق أو التجول في الأسواق التي يملأها العرب واليهود، والابتعاد قدر الإمكان عن الجلوس في المقاهي والفضاءات الشعبية؛ فالأخبار الأمنية، حسب الضابط ليفي النقاوة، والقادمة من الجزائر العاصمة أو من باريس غير مطمئنة، وعناوين الصفحات الأولى للجرائد المحلية أو تلك التي تصل من المتروبول تنذر بالخوف، وتؤكد أن هناك أمورًا خطيرة تدبر بليل على كامل تراب المستعمرة، مدنًا وقرى، في الشرق والغرب والوسط والجنوب، وأن الأهالي قد نفد صبرهم وما عادوا قادرين على تحمل ما يعانونه من ظلم وتعسف وتمييز.

كنت وأنا أسمع خطابه أشعر بأن زلزالاً قادمًا سيرج الأرض من تحت أقدام الجميع.

ومع ذلك كنت أجد إيقاعًا غريبًا في صوته.

فهمت، لست أدري لماذا، وكأن كلامه موجه بالأساس إليّ شخصيًّا وإلى صديقي أفولاي؛ فلقد أصبحت مولعًا بحيين في هذه المدينة الجميلة وهران، وهما الحيان اللذان يتجمع فيهما وبامتياز الأهالي من العرب والبربر واليهود والإسبان: حي المدينة الجديدة، وحي الدرب وخاصة شارع الـلاك دوك. في هـذا الأخـير اكتشفت لأول مرة عالم المواخير السحرية التي لطالما قرأت عنها في الروايات الفرنسية والأمريكية، وشاهدت بعض أفـلام عـن عالمها الوردي كـ: "إلى حيث يأخذ الريح" لفيكتور فليمينـغ، و"المرأة والدمية" لجوزيف فان ستيغرنبغ، و"الرغبـة" لمـاكس أوفيلس، وأفلام أخرى لا أذكر عناوينها الآن.

مع أنني قضيت سنوات الدراسة الجامعية كلها في بـاريس، لكني لم أزر سوى مرة واحدة حي بيغال، المعروف ببيوت نساء الليل وبقاعات عروض أفلام البورنو، التي يتزاحم على أبـواب صالاتها العرب والأفارقة والمغاربيون. حين نزلت بمحطة المتـرو بلانش وصعدت من النفق إلى الشارع، وقبل أن أتنفس بعـض الهواء الطلق، لاحظت تجمعًا لكثير من المارة وصفارات الإنـذار تلعلع، وعشرات من رجال البوليس على أعصـابهم، بعضـهم يتكلم بأصوات عالية في أجهزة الاتصال الطالكي - والكـي، وبعضهم يتحلق حول جثة امرأة كانت ملقاة علـى الرصـيف وسط بركة من دم. من بعيد تأملت للحظات هـذا المشـهد،

وبمجرد أن استوعبته وأدركت أنها عملية اغتيال، عدت على الفور أدراجي إلى المترو، من المحطة نفسها التي نزلت فيها ركبت أول مترو في الاتجاه المعاكس، و لم أعد إلى هذا الحي مرة أخرى.

من خلال ضحكة خفيفة أطلقها صديقي أفولاي الذي كالعادة يرافقني في نزولنا إلى هذا الحي المثير، أدركت وبحدسي الذي قرأ وبسرعة إشارة عينيه أننا نقطع شارعًا هو عبارة عن ماخور كامل، أو ما يسمى بـ "دار التسامح"، عبارة عن سلسلة من بيوت أندلسية تركية وعمارات تعود في أغلبها إلى الحقبة الإسبانية من تاريخ هذه المدينة، تذكرت على الفور حادثة الجريمة بحي بيغال. حاولت أن أتراجع، لكن العالم في هذا الشارع لا يشبه العالم هناك. الناس هنا تمشي وتتحدث مع بعضها بعضًا وكأن الجميع يعرف الجميع، لا غريب في الحي. الناس هنا تتكلم مع نساء الغرف الليلية وتناديهن بأسمائهن وتحرسهن كما تحرس بيوتهم، إنهن جزء حيٌّ في الحيِّ، بل ربما أهم شيء فيه.

نقطع أزقة الحي ذهابًا وإيابًا مرات عديدة، فيأخذنا سحر هذا الشارع الضيق العتيق الذي لا تصل بعض زواياه أشعة الشمس خلال أشهر السنة كلها تقريبًا، أزقة صاعدة وأخرى هابطة، ضيقة دائمًا وقد تتسع قليلاً عند النهاية أو عند البداية، كل أزقة حي الدرب تفتح على شارع اللاك دوك أو تنطلق منه أو تؤدي إليه، هو المركز الذي يدور حوله الحي والمدينة كاملة، كأنما خلق الحي قبل أن تخلق المدينة، وأنها رتبت عمرانيًّا على إيقاعه.

نساء كثيرات شبه عاريات للفرجة، يهوديات ومسلمات وكاثوليكيات. لحم أنثوي حيّ معروض على الرصيف، أجساد واقفات كالتماثيل الحية، أو مقرفصات قانتات عند عتبات البيوت ذات الهندسة المعمارية التركية أو الأندلسية، أو عند بوابة العمارات الأوروبية الإسبانية الهوسمانية الطراز، تطل أخريات من خلف النوافذ الصغيرة أو من البلكونات، أكثرهن سمينات بأرداف ثقيلة ونهود مدلدلة، والقليلات منهن ضامرات. جميعهن، دون استثناء، بخدود عليها ماكياج مثير وعلكة في الفم مع سيجارة مغروسة على طرف الفم. الصورة نفسها تتكرر، من باب إلى آخر ومن عتبة إلى أخرى، مبتسمات، بعضهن مبتهجات غير مباليات بما حولهن، لا يترددن في تبادل أطراف الحديث مع هذا المارّ أو تلك المارة، كأس ماحيا أو ويسكي أو ريكار في اليد، يدغدغ المشروب الدماغ ويشعل نارًا ببعض تفاصيل الجسد في شقائه المتواصل والعنيد.

أعمارهن متفاوتة كثيرًا، بعضهن تبدو في خريف العمر وهن من تبرزن عري أجسادهن السمينة بشكل فاضح، وبعضهن في عمر تجاوز بقليل أعمار تلميذات المدارس الثانوية. في نظراتهن خجل طفولي أو حشمة بمسحة حزن قاتل، تنقصهن ربما التجربة والجرأة فلا يجدن حلاً لذلك سوى في تدخين سجائر الحشيش خفية، إضافة إلى استهلاك المشروبات الكحولية القوية بشكل متواصل.

الأزقة متشابهة كلها أو تكاد، تمشي في هذا الزقاق فتعتقد بأنك مررت فيه قبل قليل، الأرصفة ذاتها، والبنايات متشابهة غالبيتها عمارات من طابق واحد، غرف كثيرة في الطابق العلوي

بعضها بنوافذ صغيرة شبيهة بنوافذ السجون، عليها شبابيك من قضبان حديدية قوية. أما الباب الخشبي الرئيسي العالي ذو الدفتين معلقة عليه "يد فاطمة" من فولاذ تستخدم للطَّرْق، المدخل عبارة عن قوس جبسي أندلسي الطراز يظلل المكان ويمنحه برودة في الصيف ودفئًا في الشتاء ويقيه م غبار رياح الخريف، يفتح على غرف الطابق الأرضي، تفتح بدورها على حوش في شكل مربع تتوسطه نافورة ماء لا تتوقف عن السيلان، ونخلة معمرة يقال إنها كانت للتبرك في زمن ما، فقد غرسها ولي من أولياء الله الصالحين يسمى الحاج المكي التبرني. في الحقيقة هو لم يغرسها عمدًا بل رمى نواة تمر كان يأكله فطلعت نخلة حيث رمى، ثم سافر إلى الأراضي المقدسة ليؤدي فريضة الحج، مع أن البعض يقول بأنه لم يطأ أبدا تلك الأرض، وطال اختفاؤه لسنوات، وحين عاد إلى وهران بعد غيبة طويلة وجد النخلة قد كبرت، وقد تفاجأ لذلك، فنام إلى ظلها ومات ودفن عند جذعها. وقد كان اسم الحي قبل أن يطلق عليه اسم اللاك دوك: حي الحاج المكي التبرني. ويُروى أنه أول من رُخِّص له فتح ماخور عمومي بشكل رسمي، وبوثيقة ممهورة من قبل قلم-الأمن بوزارة الداخلية التابعة للسلطات العثمانية المسلمة، وبعدها سارت على هديها الإدارة الفرنسية الكاثوليكية. وكان يجلب نساء الهوى من مدن كثيرة، فمنهن الفاسيات والنايليات والعنابيات والوهرانيات والمكناسيات والجربيات والتونسيات والإزميريات والمالطيات وغيرها، شقراوات وحنطيات وسمراوات، طويلات وربعات وقصيرات، نحيفات وسمينات...

وينظر عامة سكان حي الدرب أن الحاج المكي التبرني يكون قد سقط مع مطر صيفي مفاجئ على هذا الحي، فهو مقطوع من شجرة لا شرقية ولا غربية، لم يكن له ولد ولا زوجة، لا أحد يعلم من أين جاء ولا متى حلّ بهذه المدينة، ولا كيف امتلك هذه البيوت جميعها التي تشكل شارع اللاك دوك بكامله تقريبًا، مع ذلك كان رجلاً متواضعًا يأكل مما تأكل منه نساء الغرف الليلية، ويشرب مما يشربن ويقيم بواحدة من الغرف التي لا تختلف عن بقية غرف النزيلات من فتيات الليل والمتعة.

يعرف فتياته واحدة واحدة، بمجرد أن تصل الواحدة مملكته هذه يغير اسمها، يعطيها اسمًا يختاره من قائمة محضرة مسبقًا ومرتبة ترتيبًا هجائيًّا، ليس من حق أي فتاة أن ترفض اسمها الجديد، يقول للواحدة: أنا هنا في مرتبة أبيك، طاعة الوالدين نصف الدين، أعطيك اسمًا لهذه الحياة الجديدة، الأسماء تمنح لتكون شبيهة بالحياة التي يُتَمَنّى لنا أن نعيشها، أسماؤنا تشبهنا ونشبهها.

يتذكر الحاج المكي التبرني بكثير من الألم وبتفاصيل دقيقة أنه دفن تسع عشرة من النزيلات منذ أن تم افتتاح هذا الماخور، "دار التسامح" (Maison de tolérance). كما يحلو له أن يسميه، وهو الاسم الذي يطلق عليه أيضًا في الأوراق الرسمية، خمسة منهن قضين بسكتات قلبية أو دماغية، اثنتان ألقيتا بنفسيهما من الطابق الأعلى، اثنتان اختفتا دون أثر يذكر، والبقية انتحرن بتناول سموم وأدوية مختلفة. ومع الإعلان عن خبر موت أي واحدة من البنات كان الحاج المكي التبرني يبدو حزينًا لمدة أسبوع كامل، يقضيها في الصلوات والدعاء. ولكل فقيدة يقام

عزاء خاص بها على الأصول وحسب ما تمليه عقيدتها. يقرأ القرآن الكريم إذا ما كانت الراحلة مسلمة، وتتلى آيات وأسفار من التوراة والإنجيل إذا ما كانت الفقيدة يهودية أو مسيحية، وكل واحدة تدفن تبعًا لمعتقدات دينها وتقاليد مجتمعها.

وكان الحاج المكي التبرني يمنع منعًا باتًّا استعمال سرير الميتة من قبل واحدة أخرى في شأن جنسي، إلا بعد مرور سبعة أيام وسبع ليال. بمثل هذا السلوك في أيام الشدة والموت كان الحاج المكي التبرني محترمًا من قبل الجميع، جميعهن الصغيرات كالكبيرات، المجربات كالمُحْدَثات كن يشعرن بالأمان تحت جناح رحمته، بدفء إنساني في ظل حمايته، كان سندهن وجدارهن في وجه بعض أفراد الأسرة الذين كثيرًا ما حاولوا اقتحام هذا المنزل "دار التسامح" بحثًا عن واحدة من دمهم. كان الحاج المكي التبرني يخاطب بمودة هؤلاء الغاضبين الذين يدخلون المدينة بنية ملاحقة بناتهم وإنقاذ الشرف بالجريمة، ويعرض على بعضهم مالاً مقابل التنازل عن فتنة الدم وخاتمة السجن، فإذا ما رفضوا أو أصروا على استرجاع الفتاة لقتلها حماية للشرف، فإنه يضطر آنذاك إلى الاستنجاد برجال البوليس. ولا أحد يذكر أن وقعت جريمة شرف واحدة في "دار التسامح" هذه منذ أن فتحت أبوابها.

يوم نزل خبر موت سيدي الحاج المكي التبرني على نزيلات "دار التسامح"، دخلن جميعًا في حداد لمدة سبعة أيام بلياليها، امتنعن فيها عن استقبال الزبائن وحرَّمْن على أنفسهن كل زينة وكل أكل ثري فيه إدام، واكتفين بشرب الماحيا وتدخين

الحشيش. وبعد انقضاء أيام الحداد قررت الفتيات أن يرفعن إلى روحه الكريمة صدقة متمثلة في التصدق بأجسادهن مجانًا ليوم كامل.

لم يكن الحزن في غرف النزيلات فقط بل سار في الشارع والحي، وأغلق بعض التجار أبواب محلاتهم نصف نهار احترامًا لروح الحاج المكي التبرني.

في وسط مربع الحوش ذي النخلة المباركة المعمرة بُني ضريح الحاج المكي التبرني. هنا ينام فتسمع روحه أنين النزيلات وتسمع عواء شبقهن، وعلى أرضية الحوش المرصعة بقطع أحجار الفسيفساء الأصلية وبألوان مثيرة ومنسقة بإدهاش، الأصفر والبني والأحمر والأزرق. هنا على هذا الزليج التقليدي البهي المحيط بالضريح وتحية لروحه، أصبحت تلتقي فرق فولكلورية كل مساء للعزف والغناء والرقص، ابتداء من الساعة التاسعة وحتى مطلع فجر اليوم التالي. أصوات متحشرجة وثقيلة لرجال ونساء أغلبهم تقدم بهم السن، لكنهم ما زالوا مأخوذين بفتنة الحياة، غارقين في بحر الفن ومتعة شراب الماحيا وتدخين الحشيش، الذي يجلب من قبيلة كتامة بجبال الريف المغربي بشكل منتظم ودوري وبأسعار زهيدة. يجلس الجميع على شكل قوس، نساء ورجالاً، من فم إلى آخر وبشكل تناوبي يدور غليون خاص يسمى السبسي، مصنوع من قصب على العازفين والعازفات والمغنين والمغنيات والراقصين والراقصات.

يقام الحفل يوميًّا حتى مطلع الفجر، يرقص فيه الرجال والنساء في حلقات مجنونة مختلطة. وحين تبلغ الموسيقى ذروتها،

يشارك العسكريون من الجنود البسطاء من الأوروبيين وبعض الأهالي في الرقص، ويشارك في الحفل بعض المدنيين من الموظفين الإداريين والتجار وأصحاب الحرف الحرة. الحوش فضاء للفرح والانطلاق تحت عيون ضريح الحاج المكي التبرني.

أصحاب الرتب العسكرية العالية من الفرنسيين كانوا يرتادون ماخورًا آخر من الطراز الأوروبي الراقي يوجد وسط المدينة الكولونيالية، هو عبارة عن بيوت مواعيد بغرف مجهزة وأسرة بأغطية وستائر نظيفة، أو يذهبون إلى الكباريهات المنتشرة على الشواطئ الغربية للمدينة في المرسى الكبير وعيون الترك وبوزفيل وشاطئ الأندلس.

كنت معية صديقي أفولاي الذي بدأت أتعلق به كثيرًا، والذي أشعر بفراغ كلما غاب عني في مهمة يكون قد كلف بها من قبل النقيب ليفي النقاوة زمرمان. نرقص حتى يضيع رأسانا بين الرؤوس، حين ننسحب من الهرج الجميل نجد صعوبة في العثور على الطريق الذي يوصلنا إلى سريرينا بالمرقد العسكري القريب من الثكنة عند مدخل حي المدينة الجديدة.

فراشات من طين

تخضع الكائنات الشفافة من نساء الليل، نزيلات "دار التسامح" لمراقبة صحية دورية، مرة في الأسبوع. تعرض أجسادهن للفحص على أطباء عسكريين عموميين ومتخصصين في الأمراض التناسلية والجلدية. كنت كلما دخلت هذا الماخور تذكرت بعض حكايات جدي حين يأخذ منه السُّكْر قليلاً، خاصة سهرة يوم السبت، حكايات عن مغامراته التي كانت أكثرها من اختلاقاته واختراعاته، كان يقوم بذلك ليثير غيض وحنق جدتي البورجوازية الغيورة عليه، فكانت بمجرد أن يشرع في رواية هواجسه تشرب كأسين أو ثلاثًا من شراب الكالفا دفعة واحدة، وتشرع في شتمه وضربه بما تقع عليه يدها من كؤوس وصحون ومَطَرِيّات. يتلقى هو ذلك ضاحكًا وبكثير من السعادة الطفولية، يُقبّلها يشرب نخبها ثم يشرع في حكاية قصته معها يبدل كل ليلة في تفاصيل القصة.

غالبية نساء "دار التسامح" من نزيلات الغـــرف إلى القائمـــة عليهن، والمسئولة عن توزيع أقراص الدخول، والقابضة والحارســـة الكبيرة التي يسميها الجميع "الباطرونة"، والمشـــرفة علـــى نظافـــة الأفرشة وملء دلاء الماء وشراء قطع الصابون، غالبيتهن يهوديات أو مسلمات، جزائريات ومغربيات وإسبانيات ومالطيات وبرتغاليات، فضاء بلغات متعددة، لكنهن يعشن في انسجام مدهش، في احترام عال، وجميعهن وبعد فترة قصيرة من الحياة المشتركة في هذه المدينة المتوسطية الساحرة يبدأن في الحديث باللهجة الوهرانية، التي هـــي خليط من العربية الدارجة والإسبانية والفرنسية.

ككل سنة، ومع حلول شهر رمضان، وهو الشهر المقدس عند المسلمين، تمتنع نساء الغرف من المسلمات ابتداء من ليلة الشك عن استقبال الزبائن وممارسة الجنس. يمتنعن عن ذلك كل أيـــام شـــهر رمضان من ساعة الإمساك وحتى ساعة رفع آذان المغرب والإفطار. يدوم نظام الامتناع الديني هذا حتى ليلة الشك التي تسبق يوم العيد، عيد الفطر أو "العيد الصغير" كما يسميه الوهرانيون، التزام صـــارم وإيمان قوي لا تفسده رغبة جامحة ولا إغراء مالي. في مثـــل هـــذا الشهر المميز، تلبس جميع النزيلات المسلمات دون استثناء، عباءاتهن التقليدية التي تشبه القفطان الأندلسي بألوان متناسقة يغلب عليهـــا اللون الأحمر القرمزي والأصفر الزعفراني. تحتجب النساء في غرفهن طوال النهار، بعيدًا عن أنظار الزبائن الذين لـــيس لهـــم خيـــار إلا الانتقاء مما تبقى من الفتيات اليهوديات والمسيحيات.

في مثل أيام هذا الشهر الإسلامي المقدس، تستعيد النزيلات المسلمات أسماءهن الحقيقية؛ فلهن الحق في التمتع بها ثلاثين يومًا.

يوميًّا، ابتداء من الساعة الرابعة زوالاً، تنبعث من جميع غرف "دار التسامح" روائح الطبخ الرمضاني، حيث تتفرغ "نساء الهوى" من المسلمات في تحضير أكلات رمضانية خاصة، كالحريرة الوهرانية أو المراكشية أو الطاجين الحلو أو المالح، فتعبق في الحوش رائحة التوابل المسماة "راس الحانوت"، كثيرا ما تساعدهن في ذلك النزيلات من اليهوديات، فالطبخ يكاد يكون متشابها بين أهل الملّتين.

وفي مثل هذا الشهر المميز، تتذكر النزيلات المسلمات فريضة الصلاة، فتعدن لممارستها، وبالأخص صلاة المغرب والفجر، أي صلاة وقت الإفطار وصلاة ساعة الإمساك، تقضين ساعات النهار وعيونهن تراقب عقارب الساعة دقيقة دقيقة، متكومات فوق أسرتهن يسمعن الأغاني أو إذاعة BBC باللغة العربية والتي ترسل من لندن.

صديقي أفولاي هو الآخر يصوم ولا يشرب الكحول في أيام هذا الشهر، كنا ننزل الماخور ليلاً، بعد ساعة الإفطار وصلاة التراويح، للاستمتاع بهذا العالم الساحر، حيث السهرات الفنية مختلفة عن الأيام الباقية من السنة، تغرق "دار التسامح" في موسيقى الفرق الصوفية ورقصات شباب وشابات صحراويين سواد بشرتهم يتلألأ تحت ضوء مصباح الديوان، يرقصون بشكل جنوني على إيقاع موسيقى "التيندي" وأغنيات بكلمات لا يفهم منها سوى مقطعها الذي يتكرر كثيرا وهو في مديح رسول الإسلام محمد عليه السلام، كل ذلك مع رقصات الحضرة والجذبة التي تصل ببعض الراقصين والراقصات حد حالة الإغماء.

وفي هذا الشهر المقدس يزداد استهلاك الحشيش بشكل واضح ويقل شرب النبيذ حتى يكاد يختفي نهائيا من غرف النزيلات المسلمات وحتى اليهوديات. وما إن يرفع مؤذن جامع الرحمة القريب من الماخور آذان صلاة الفجر، بصوت ناعم وهادئ، وتلك إشارة أيضا ساعة الإمساك، حتى تتوقف على الفور النساء من المسلمات عن الرقص والغناء لينسحبن بخشوع وهدوء وهن يرددن جميعًا بصوت واحد "الله أكبر على الحق، الله أكبر على الحق"، ثم يصعدن إلى غرفهن، يغتسلن، يؤدين صلاتي العشاء والفجر معًا، ثم يتوقفن عن استقبال أي زبون إلى ما بعد غروب شمس اليوم التالي، أي حتى ما بعد ساعة آذان الإفطار القادم. كنت مندهشًا ومعجبًا كثيرًا لهذا الانضباط ولهذه القوة الروحانية المنتصرة على رغبة الجسد لدى النزيلات من المسلمات. هل هي هزيمة الرغبة العابرة، أم هو نداء الطفولة وعادات جلسات رمضان بين أفراد العائلة، التي خلفتها النزيلات في مدنهن وقراهن المختلفة في بلاد الإسلام التي قدموا منها؟

كان هذا السلوك المثير والغريب في حياة مسلمات "دار التسامح"، وما يعشنه في شهر رمضان، هو الذي أثارني وحرك فيّ فضول التقرب والتعرف إلى واحدة من بنات الدار من الملة المحمدية. كانت أكثرهن انضباطًا في احترام قدسية شهر رمضان، بل هي التي كانت تقود صلاة بعضهن جماعيًّا وتلقن الجاهلات منهن بعض مبادئ الدين، من كيفية الوضوء وطريقة الصلاة، وتقرأ عليهن بعض آيات من القرآن التي تحفظها منذ سنوات الطفولة، أيام مدرسة الكُتّاب كما شرحت لي ذلك لاحقا.

ولع

يومًا بعد آخر، سهرة بعد أخرى، زيارة بعد زيارة، أصبحت شغوفًا بسحر أزقة حي الدرب، خاصة تفاصيل شارع اللاك دوك العتيق حيث "دار التسامح" بنسائها الجميلات، وبليل يطول حتى نعتقد أن لا فجر يطلع على ساكنته. المسلمات واليهوديات والنصرانيات، المبتسمات، شبه العاريات، المقرفصات عند العتبات، المطلاّت بخجل بدوي من البلكونات والنوافذ، وبضجيجه وموسيقاه الشرقية والغربية التي لا تنقطع ولا تتوقف في انسجام مذهل، ببقالياته الصغيرة برفوف خشبية بسيطة والتي تعرض كل شيء، المواد الغذائية العامة، كالزيت والزبدة والمعجنات والبقوليات والمصبرات والمشروبات الكحولية والسجائر ومعها بعض الممنوعات أيضًا، وبحضور ملفت ومتميز لمُحمِّص وبائع الفستق السوداني، الذي يدير آلة التحميص بيده اليمنى بعض الدورات ثم مثلها باليسرى، يقوم بذلك بطريقة

أوتوماتيكية، من ساعة العصر حتى مغادرة آخر زبون لآخر حانة، جالسًا على كرسي صغير مصنوع من قصب الخيزران على الرصيف الضيق دون أن يزعج وجوده أحدا، يغني ويتبادل الحديث مع المارة ومع نساء علب الليل بكل أريحية وابتسامة. إنه يعرف الجميع والكل يعرفه، إنه مقيم هنا منذ سنوات، والرصيف بدونه ليس رصيفا، والهواء بدون رائحة تحميص الفول السوداني ليس هواء وهرانيا على الإطلاق، لا أحد يعرف ولا أحد يسأل من أين نزل ولا الطريق الذي قاده إلى هذا الرصيف ولا كيف مُدت يده لتدوير ذراع آلة التحميص، لا غريب في مدينة وهران، نشرات الأخبار والبرامج الإذاعية المتنوعة الترفيهية والفنية والطبية لا تتوقف يسمع بثها من محطات الإذاعات بالفرنسية والعربية والإسبانية والأمازيغية، هناك عشرات الراديوهات مفتوحة في المحلات التجارية وفي غرف "دار التسامح"، لا يوجد محل تجاري بدون جهاز راديو.

على مدار أيام الأسبوع كلها، باستثناء يوم الاثنين، الذي هو يوم عطلة الحلاقين، يصعد عطر منعش وخفيف من محل خوليو "رقصة المقص" للحلاقة الرجالية، منزويا في الركن، وكالعادة يجلس الهواري سويح، رجل نحيف، لا هو بالقصير ولا بالطويل، قدّ معتدل وقابل للمرور بدون إثارة انتباه، قليل الحديث، متحفظ في كلامه، حين يتكلم لا يتحدث سوى في السياسة وشؤون البلد، مسكون بتاريخ وهران، من كلامه يبدو أنه يتابع بدقة واهتمام أخبار الوطنيين الاستقلاليين م أمثال الزعيم مصالي الحاج، للمرة الأولى أستمع إليه وهو يروي بدقة وفخر ما

كتبته الجرائد المحلية والباريسية عن عملية الهجوم على البريد المركزي بوهران، التي نفذها شابان وطنيان: أحمد بن بلة ابن مدينة مغنية ولاعب سابق في فريق أولمبيك مدينة مَارْسَايْ وحسين آيت أحمد واستيلائهما على كمية من المال لتغطية وتمويل أنشطة المنظمة السرية.

"المنظمة السرية؟".

يُعلِّمكَ حي اللاك دوك ما لا تُعلِّمُكَ إياه الكتب، وتَفْهَمُ من أفواه البسطاء ما لا يستطيع شرحه أساتذة الجامعات والمعاهد الكبرى في باريس أو في مدينة الجزائر.

منذ أن دخلت أول مرة صحبة أفولاي صالون الحلاقة هذا تعرفت إلى الهواري سويح، وقد أصبح بالنسبة إليّ محرك أسئلة غريبة ومقلقة في رأسي، ومن خلال أحاديثه ومناقشاته بدأت أعي وبشكل آخر الوضع الأمني المتأزم في الجزائر المُستَعْمَرة، وبدأت أستشعر بوادر انقلاب قادم.

شيئًا فشيئًا، من جهة أغرق في السياسة من خلال ما يجري في صالون الحلاقة وأفكّ ألغاز فقه النساء من خلال زياراتي ل"دار التسامح" من جهة ثانية، عالمان متداخلان ومتحاوران بشكل مستمر، قدر واحد أمام انسداد أفق المُستَعمَرَة، كنت أشعر وكأنني أتقمص شخصية جدي الذي كان مسكونًا بحماس الشيوعية وبجريدة **لومانيتي** وبالنقابة، وكان يضمر كراهية عميقة لكل مُصادِري حريات الشعوب ومصاصي دم الفقراء من الطبقة العاملة.

أصل الحكاية

الرجال أطفال لم يكبروا، الرجال حكايات... تثير المرأة الرجل، أولاً وقبل كل شيء، حين تكون قادرة على أن تسمع حكايته حتى النهاية، مستعدة أن تستدفئ بنار حطبها، وحطب الأيام هي الأسفار، الهزائم والانتصارات، التردد والإقدام، الكذب والصدق، الوهم والواقع. المرأة الفاتنة هي من تثير زوبعة الحب من خلال فن الاستماع إلى رجل هو في نهاية الأمر عبارة عن حكاية. السماع غواية أنثوية، ولا توجد هناك حكاية مثيرة إلا إذا كان هناك سماع مثير، وفن الاستماع ليس الطاعة أبدًا، وفن السماع ليس التبعية أبدًا، السماع قوة، شبق، تآمر إيجابي.

كانت شهرزاد تحكي ما تسمعه صمتا في داخل شهريار. كانت تحكي ما تسمعه لذلك انتصرت على الموت وانتصرت على الرجل بالافتان.

تعرفت إلى دوجة في أول رمضان قضيته في هذه المدينة، في مدن الشمال لم نكن نعرف عن رمضان المسلمين أي شيء، وحين تعرفت إليها كانت تلبس اسمها الحقيقي: دوجة. أما اسمها خارج أيام رمضان فكان شكيرا، كان الجو قد بدأ يميل نحو فصل الصيف قليلاً. دوجة أو شكيرا فتاة جميلة قمحية اللون بعينين لوزيتين مائلتين إلى الاخضرار، أخضر زمردي، وشعر طويل أسود فاحم، وجسم رقيق كجسد عصفورة في الريح. تبدو أكبر من عمرها بكثير، تجاوزت الثلاثين بقليل، فقد أتعبتها الأيام، فيها براءة الأطفال وعفوية الطبيعة وصراحة الأمهات. في أول زيارة لها، قالت لي بمجرد أن تخطيت عتبة غرفتها وبكثير من الثقة بالنفس، بلغة فرنسية سليمة مخلوطة بموسيقى اللهجة الوهرانية، وقد أدركت أنني أوروبي ومن عقيدة المسيح:

"أنا امرأة مسلمة يا سيدي المحترم. أبي كان إمامًا، وجدي أيضًا كان إمامًا ذهب إلى الحج فمات عند قبر الرسول كما كان يتمنى ويرغب، هكذا على الأقل يبرر أهل القرية موته الغريب. أحفظ فاتحة القرآن الكريم عن ظهر قلب وأعبد الله والرسول، وأخاف من عذاب القبر، في أيام رمضان المقدس كهذا الذي نحن فيه، لا يمكنني أن أنام في سرير، ولو كان ذلك في ساعات الإفطار، مع رجل نصراني وأمنحه جسدي وهو لا يؤمن بالله الذي هو إلهي، ولا برسولنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء، ويأكل لحم الخنزير... لا يمكنني أن أنام معه إلا بشروط واضحة...".

كانت تتحدث بسرعة وبثقة في النفس وهي مرتدية فستانها التقليدي الذي يستر كامل جسدها، مما يمنحها طاقة إغراء كبيرة، فتنة!

قلت لها مبتسمًا ومحييًا: وما هي شروطك يا آنسة؟

قالت بصوت عال قليلاً:

- اسمي دوجة في رمضان وخارجه سماني أبـــي الثـــاني صـــاحب نعمـــتي في هـــذه الـــدار "دار التســـامح" بـــ "شكيرا"، وكما أنني سعيدة بالاسم الذي مـــنحني إياه والدي الأول فإني سعيدة وربما أكثر بالاسم الذي أعطاني إياه أبـــي الثاني.
- تشرفنا يا آنسة دوجة أو شكيرا.

ردّت بكثير من الثقة بالنفس لكن دون أن ترفع عينيها فيّ، كانت تنظر إلى زليج الأرضية التقليدي الذي هـــو في شـــكل مربعات الدومينو بلونين متوازيين الأسود والأبيض:

- في شهر رمضان المعظم، حتى وإن كان ذلك ليلاً أي في وقت الإفطار، ما بين آذان الإفطار وســـاعة موعـــد الإمساك، على أي زبون من غير ملة الإسلام أن يتوضأ الوضوء الإسلامي، قبل أن يتمدد علـــى ســـريري أو يحتضن جسدي النظيف.

قلت لها مبتسمًا باستغراب وإعجاب بشخصيتها في الوقت نفسه وكأنما دخلنا في لعبة: "وما معنى الوضوء الإسلامي؟".

سحبتْ سطلاً مليئًا بماء دافئ كان موضوعًا عند قائمة السرير الخلفية، ثم طلبت مني أن أفعل ما تأمرني به. كنت ســـعيدًا لهـــذه

اللعبة، وكانت هي أيضًا سعيدة لانتصارها عليّ ولراحة ضميرها.

طلبت مني غسل كفيّ ثلاث مرات، ثم المضمضة ثلاث مرات بوضع الماء في الفم ثم إخراجه، ثمّ الاستنشاق ثلاث مرات وهو جذب الماء عن طريق الأنف ثلاث مرات، ثم يستنفر الماء، ثم غسل الوجه كاملاً ثلاث مرات، ثم غسل اليدين إلى المرفقين ثلاث مرات، ثم غسل الرجلين إلى الكعبين ثلاث مرات...

أحببت اللعبة، أعجبها تواطئي معها.

ثم بعد ذلك سحبت اللباس التقليدي من على جسدها. تعرّت أمامي كاملاً، قبلتني على فمي، تعريت أنا الآخر وحين احتضنتها شعرت بسطل ثلج بداخلي.

قبلتها على وجنتيها ثم غادرت الغرفة دون أن أتمدد على السرير. كانت منزعجة قليلاً. وقررت، لست أدري لماذا، أن لا أعود لزيارة "دار التسامح" خلال ليالي شهر رمضان. حين عرف أفولاي قراري هذا استغرب الأمر. لم يسألني عن السبب، وانقطع هو الآخر عن هذه الزيارات التي كنا نستمتع فيها بالموسيقى أكثر من أجساد النزيلات.

.....

مظاهر عيد الفطر أو "العيد الصغير" واضحة في مدينة وهران، متجلية في ملامح وجوه أهلها وفي ألبسة أطفالها الجديدة، خاصة في الأحياء الشعبية العربية والبربرية واليهودية أيضًا، حيث تختلط وتتقاطع الحياة اليومية بين المسلمين واليهود، يعيشون حياة شبه مشتركة ومتشابهة ومتناسقة، ويتبادلون صحون الأكلات العائلية في المناسبات الدينية والاجتماعية.

حين خرجت للشارع، كانت الساعة في حدود الخامسة مساء، وهو تقريبًا موعد الغروب. لاحظت أن الحياة عادت إلى طبيعتها في الشوارع والمحلات، المقاهي والمطاعم والحانات مفتوحة، مليئة بالزبائن من كل جنس ولغة ودين.

في مساء اليوم الثالث من أيام العيد قررت النزول إلى شارع اللاك دوك، أن أزور دوجة، رحّب صديقي أفولاي بالفكرة وبمرافقتي، بل إنه بدا سعيدًا بالعودة إلى أجواء "دار التسامح" وكأنما كان يطارد ألما أو خيبة ما.

ما إن تجاوزت العتبة ووقفت أمام قبة ضريح الحاج المكي التبرني، حتى أسرعت دوجة نحوي وفي حركات عفوية وطفولية قائلة بسخرية: "لقد طالت غيبتك يا فتى أم تُراك نسيت الوضوء؟".

شعرت في كلامها نغمة خاصة، صعدت إلى غرفتها بعد ما دفعتُ سعر القرص الأصفر، وهو القرص الذي يسمح ببقاء الزبون ساعة من الوقت في الغرفة، قرص ثمنه مضاعف ثلاث مرات مقارنة بسعر القرص الأسود. استقبلتني بسعادة بادية على وجهها وحركاتها، قبلتني بحرارة ولم تطلب مني هذه المرة أن أتوضأ، بل بسرعة طرنا كعصفورين فوق السرير البسيط كسماء الله.

كانت أول مرة أمارس فيها الجنس مع امرأة مسلمة، وكانت المرة الأولى التي تمارس فيها هي مع رجل مسيحي.

قالت لي: "يا فتى، كنت أعتقد بأنني سأتألم، سأصاب بمرض الخنزير الذي ماتت به أختي الكبرى، وأنني سأموت على الفور

لأن عضوًا بلا ختان ولجني، أن سجقة كافرة دخلت أحشائي.. يا سبحان الله!"، آخذها في أحضاني أقبلها ونضحك معًا كطفلين، نقهقه بصوت عال كملاكين، ونتعانق بعنف ونقفز مرة ثانية فوق السرير الحديدي البسيط بمطرح من الإسفنج الرخيص، وتنسى دوجة حكاية السجق بالحشفة، ونشرب الشاي بالنعناع ونسمع أغاني الشيخة الريميتي. تخرج خلخالاً من الفضة الخالصة من دولابها الحديدي، خلخالاً تقول إنها ورثته عن أمها التي وجدت ميتة مرمية في أعماق بئر مهجورة، تضعه بكل غنج حول ساقها الجميل المثير والمصبوب بعناية إلهية، ثم تشرع في الرقص أمامي بشكل مغر وقد ارتدت لباسها التقليدي البدوي. وتغني لي بصوت جميل: "يا دكتور يا دكتوري...".

.....

كنت كلما تعريت أمام دوجة أو شكيرا تأخذ عضوي بين أناملها تحدق النظر فيه جيدًا، تقلّبه كما تُقلب قطعة السجق فوق المقلاة، تحدق في رأسه وتداعبه، ثم تغسل يديها بالصابون، وهي تضحك من شكل سجقتي التي لم يمسسها مقص المُختِن الحجّام.

من على لسان دوجة تعلمت كثيرًا من كلمات اللهجة الوهرانية، وبسرعة بدأت أفهمها بل أهجاها، ومع تعدد زياراتي لـ "دار التسامح" كنت أشعر بجاذبية غريبة نحو دوجة أو شكيرا، وفي الوقت نفسه كنت أتدرج في سُلّم تعلم لغتها. اللغة أنثى، ويمكن للعاشق أن يتعلم لغة معشوقته في أقل من أسبوع، جميع اللغات بسيط تعلمها حين تجيء من فم امرأة جميلة نحبها.

في البدء تعلمت أسماء أعضاء الجسد، أعضاء جسد الأنثى وأعضاء الذكر، ثم بعض الكلمات الحميمية والوقحة المرتبطة بالجسد والجنس والعلاقات الحميمية، ثم تعلمت أسماء أثاث الغرفة، ثم بعض أسماء المشروبات الكحولية والمأكولات المحلية وغيرها، ومن الغناء، خاصة أغاني الشيخة الريميتي التي لم تكن تصمت لا ليلاً ولا نهارًا، تسمع في جميع غرف "دار التسامح" عند النزيلات المسلمات واليهوديات والمسيحيات على حد سواء، من أغاني الريميتي ومن غيرها من مُغَنّيي الراي والأغنية الوهرانية، تعلمت بعض الكلمات المرتبطة بالإحساس كالحب والملل والخوف والانتصار والانتحار والمغامرة.

اللغة، أي لغة كانت، من الصينية إلى الهندية غلى الأمازيغية، يصبح تعلُّمها يسيرًا وبسيطًا حين تلقننا إياها امرأة نحبها كالأم أو العشيقة. في فترة زمنية قصيرة أصبحت أتكلم العربية الدارجة بارتياح، أتحدث بها مع الباعة ومع الحلاق الشاب خوليو ومع الهواري ومع أم خوليو ومع حمودة الغول كيّاس الحمّام التركي "حمّام البركة"، الرجل ذي الأصول المراكشية، والذي له ستة أصابع في كل كف وله بنية إسمنتية بعضلات مفتولة، وله شوارب معقوفة غريبة الشكل تشبه صور العفاريت في كتب قصص الأطفال، كان حمودة الغول هذا خنثى، جسد فيل وصوت أنثى.

توالت زياراتي لدوجة، في البداية لم أرد أن أفصح لها عن هويتي العسكرية، خشيت أن يثير فيها ذلك انكسارا أو خوفا، ولكنها بمجرد أن أدركت من خلال أطراف حديثي أنني من تلك

الطائفة التي لها علاقة بالفن وخاصة الرسم، بـــدأت، وبشـــكل عفوي تحدثني عن أشياء غريبة تحضر في الأفق في هذا البلد الذي أصبح على كف عفريت. كانت متأثرة بما ينقله لهـــا الزبـــائن القادمين من جهات مختلفة من البلد من حكايات عن أحـــداث شغب ومظاهرات تقع يوميا في المدن والقرى، وعـــن رجـــال يكونون قد التحقوا بالجبل ويريدون طرد فرنسا من هذا البلـــد، وأن الرصاص بدأ يسمع صوته في رؤوس الجبال. واستغربتُ من أنها تعرف أشياء عن تاريخ الأمير عبد القادر وعن مصالي الحاج وحزب الشعب، وعن محمد بلوزداد وأحمد بن بلة وآيت أحمـــد ومحمد بوضياف وكثير من الأسماء التي لم أكن أعرفهـــا، وعـــن الأعمال الهمجية غير الإنسانية التي مارستها الجيوش الفرنسية ضد الأهالي العزل في أحداث انتفاضـــة 08 مـــايو 1945 بالشـــرق الجزائري.

القصص ذاتها وهذا القلق المصحوب بترقب لمستقبل غامض مليء بالخوف، سبق لي أن سمعت كل ذلـــك مـــن المناضـــل والصحفي في جريدة **الجزائـــر الجمهوريـــة** الهـــواري ســـويح الشخصية الغامضة.

السجق

يوم أخبرت دوجة، وأنا ممدد على سرير غرفتها وهي تلعب بالسجقة وتضحك من رأسها المغطى بحشفة زائدة، بأنني طبيب عسكري جئت من شمال فرنسا لأداء الخدمة العسكرية، نهضت من مكانها عارية وقد تركت السجقة في الفراغ، وقالت بصوت عال: "أنت عسكري ودكتور أيضًا؟ الدكتور لا يمكنه أن يكون عسكريًّا، الدكتور يداوي الناس والعسكري يقتل الناس".

أثارني منطقها هذا!

من يومها ظلت تناديني "دكتوري" ولم تسألني يومًا عن اسمي الحقيقي أوغسطين.

في الأفق شيئان مثيران بدآ في هزّ وجودي وإقلاق ضميري العسكري وتهريب النوم عن عيني، الأول: الإحساس أن أمرًا ما عنيفًا على وشك أن يضرب هذه البلد، يزلزل أعماقه ويقلب

أسافله على أعاليه، وهو ما يسميه البعض ثورة ويسميه السبعض الآخر "إرهابًا"، أين أنا ما بين "الثورة" و"الإرهاب"؟ وأما الأمر الثاني فهو أني بدأت أشعر بإحساس غريب تجاه دوجة، ربما هو الحب الذي يسبق عاصفة الحرب؟

أن تحب امرأة العلب الليلية، تلك ليست حكاية في رواية، إنها حقيقتي في هذه المدينة التي لا صديق لي فيها سوى أفولاي.

وهران التي تعد المدينة الأوروبية الأولى في الجزائر، بدت كذبة كبيرة كبيرة، وهْمًا، فإذا كانت أحياء وسط المدينة وامتداداتها هي فضاء أوروبي بناسه وكلابه ولغته ومحلاته، بفترياتها المثيرة وصالات السينما الكثيرة وقاعة الأوبرا بتماثيل حورياتها الواقفة على أطرافها والمتربعة بأبهة باذخة مطلة على ساحة السلاح، إذا كانت شوارع جبهة البحر وألبير الأول وأوبير وبودو وو بيل إير وبيل فو ولي شاسور والجنرال لوكليرك وجان دارك وبول دومير وسيباستبول وبلاس دو فيكتوار وميتز ومارسو ولولاران فوك وجول فيري وجورج كليمنانصو وفولتون وإميل لوبي وشارلمان وألزاس لورين وأرزيو، وغيرها شوارع أوروبية بامتياز لا فرق بينها وبين الشوارع الراقية في باريس أو ليون أو نيس، فإن هناك أحياء الأهالي من عرب وبربر وإسبان على أطراف المدينة الأوروبية يأكل ساكنتها الفقرُ والأمراضُ والإهمال والبطالة، كحي سيدي الهواري وحي المدينة الجديدة والحمري والبركي والقرى المحيطة كالسانيا وسيدي معروف وسيدي الشحمي غيرها.

أعطيت لنا أوامر صارمة بعدم مغادرة الثكنة إلا برخصة، وعلى الجميع البقاء في حالة تأهب قصوى. ولأول مرة يسمح لنا بالإبقاء على أسلحتنا معنًا ليلاً ونهارًا، يمكن لنا حملها في الثكنة كما في الشارع في حالة الخروج الاضطراري المرخص.

بين عشية وضحاها، تحولت وهران التي كانت قبل أسابيع خلت فضاء مفتوحًا للأفراح والإمتاع والغناء وجلسات الخلان، إلى شبكة من الحواجز الأمنية تقوم بها دوريات ثابتة وأخرى متحركة من رجال الشرطة والدرك والعسكر مدججين بالأسلحة. الجميع على أعصابه، تخضع جميع المركبات وكذا المارة رجالاً ونساء إلى عمليات تفتيش دقيقة، المراقبة في كل ركن وفي كل وقت. كما أن توقيف وحجز كل شخص ذي ملامح عربية دون أمر قضائي أصبح من الممارسات العادية واليومية والمنتظرة.

يومًا بعد يوم، الحياة تتصدع، المدينة تُفْرَزُ على أساس عنصري، توتر بين الساكنة، حالة من الانهيار النفسي، الكأس كُسر، لا يجبر زجاجه، الجميع يعيش حالة من الهلع المتواصل، من الترقب، الخوف يسكن النفوس والمجموعات الاجتماعية تتفكك، الناس تحذر من بعضها البعض، الأسوار النفسية والأمنية ترتفع أكثر فأكثر ما بين الأفراد وما بين الأحياء السكنية، فما عاد الأهالي قادرين على التجرؤ للوصول إلى شوارع وسط المدينة، هذا الفضاء خاص بالآخرين الذين ينتمون إلى معسكر الأقوياء، وأصبح من النادر مشاهدة أوروبي في حي أهلي باستثناء رجال الأمن بلباس رسمي أو مدني مموه.

الشرخ ازداد عمقًا. الكسر أصبح أكبر وما عاد يمكن جبره.

الضباط السامون في الثكنة على أعصابهم، أوامر تنزل من الإدارة المحلية ثم لا تفتأ أن تلغيها بعد لحظات أوامر أخرى تجيء من باريس أو من آلجي العاصمة.

فرق عسكرية كثيرة العدد تصل وهران، من الميناء وعبر الجسر الجوي حيث تحط طائرة على رأس كل ساعة بمطار طافراوي العسكري، ومحطة القطار هي الأخرى غاصة بالمجندين، الثكنات امتلأت على آخرها.

أمام هذا الهلع العام أجدني أفكر في جدي الذي كان يكره الظلم ويسمي جدتي البورجوازية، وأفكر في دوجة أو شكيرا وهي تلعب بالسجقة وتضحك مقهقهة وتناديني: "دكتووور، دكتوووري".

أشعر بالثكنة ضيقة، خانقة، أفكر في صمت أفولاي وأحاول أن أفكك قلقه وعزلته وأفسرهما. أفكر لست أدري أيضًا، قبل أن أنام، في الشاب خوليو الحلاق، أسمع نغمات مقصه وضحكاته وتعليقاته واستهزائه بخطابات السياسيين الفرنسيين.

أفكر في الهواري السويح الصحفي بجريدة **آلجي روبوبليكان** (الجزائر الجمهورية) ذات التوجه اليساري، وأخبار عن ملاحقة مديرها هاري سالم أو هنري علاق كما يُسمى.

الوضع متأزم، والخوف يأخذ مساحة أكبر في حياة الناس اليومية، في المعسكرين المتقابلين، والقوي الذي كان لم يعد قويًّا، فقد استيقظ الأوروبي فجأة ليجد معسكره غارقًا هو الآخر في الخوف.

الناس تتكلم بصوت خافت حذر، في الشارع وفي المقاهي وفي الأسواق وهي تتبضع بشكل غير عادي، الحديث عن أزمة في المواد الغذائية، الكل يوشوش للكل أخبارًا غير مؤكدة عن تفجيرات وحرائق وعن مفقودين من الطرفين.

لا أحد يعرف والكل يؤول.

صيف وهران بشواطئ فارغة أو تكاد، محلات عمومية شبه مهجورة، وهي التي كانت في الصائفة الماضية غاصة بالناس ومفعمة بالأفراح والحفلات، الناس هجرت النوادي الليلية والمقاهي والمطاعم والحانات، تلك الفضاءات التي لطالما ظلت عامرة من بداية الربيع حتى منتصف فصل الخريف.

زلزال طبيعي يضرب مدينة أورليونفيل "الأصنام" على بعد مائتي كيلومتر شرق هران، الضحايا يعدون بالآلاف، أكثر من تسعين في المائة من المدينة هدم، هجرة جماعية للأهالي إلى مناطق بعيدة.

الزلزال الطبيعي يعلن عن زلزال بشري قادم!!

أجراس الحرب تقرع!

حلاق بلا ثرثرة

يعيش أفولاي داخل قوقعة نفسية مسيجة، أغلق على نفسه الأبواب، لا يكلم أحدًا، حتى أحاديثه معي أصبحت شحيحة.

البارحة ماتت أم أفولاي، وليس هذا هو سبب انغلاقه على نفسه، جاءه الخبر عن طريق رسالة تلغراف، بجملة واحدة: "أمك، رقية بنت الخلوي في ذمة الله". لم يعلق، طوى الورقة الزرقاء، وضعها في جيبه وأخرج سيجارة، نظر إلى السماء كأنما يبحث عن روحها المجنحة وهي تصعد السماء، ثم بكى كطفل ضيع يد أمه في الزحام.

لقد قرر أفولاي أن لا يعود إلى قرية حب-الملوك إلا حاملا لسلاح بذخيرة كاملة لإنقاذ شرف أمه بتصفية رمضان الأعوج، الفرصة لم تجئ والزيارة أجلت ثم أجلت وها هي الحرب على الأبواب وأمه تصعد روحها إلى السماء.

أنا الآخر أشعر بقلق غريب وعاصف، شيء ما ينكسر في داخلي، يميل، أريد أن أثور على شيء ما فيّ، كل ما حولي غير مقنع. أنا غير أنا، نفسي غير مقنعة لنفسي، غير راض عنها، لست حفيد جده قارئ جريدة **لومانيتي** صاحب ميدالية المشاركة في تحرير أول قرية في نورماندیا من النازية.

هذا اليوم وبعد ثلاثة أسابيع لم أغادر فيها الثكنة، قررت أن أغامر، أن أنزل إلى حي الدرب، أن أمشي في شارع اللاك دوك. وكأنما هو النزول الأخيرة، اشتقت إلى تلك الأزقة الساحرة بروائح أكلات مطاعمها الشعبية، وناسها ونسائها بعطورهن الريفية المثيرة، وضجيجها الذي يشبه الموسيقى الخالدة. وضعت المسدس تحت الحزام وانطلقت راجلاً وبلباس مدني عادي، لأول مرة أخرج إلى المدينة ب حاملا مسدسا وكأني على استعداد لمواجهة شيء يتهيأ في الأفق، بدت أرصفة الشوارع فارغة أو تكاد، حين وصلت الحي الذي لطالما كان حَيًّا وغاصًّا بالناس من الغرباء وأهل المدينة وجدته باردًا والحركة فيه غير عادية، كأنما الناس تراقب الناس. الخوف سيد الموقف.

مررت أولاً بصالون الحلاقة "رقصة المقص". كنت أنتظر أن تداهمني تلك العطور البسيطة المنبعثة منه والتي تشتم على بعد أمتار، أردت أن أسلم على الشاب خوليو، أن أسمع ضحكته المجنونة وآخر نكتة تروى في الحي، نكتة عن بنات "دار التسامح"، أو عن سلوك أئمة المسلمين، أو نكتة عن حاخامات اليهود، أو أخرى عن سائقي الحافلات. نكاته لا تنتهي ولا تتكرر أبدًا، كل يوم بطرائفه الجديدة التي لا يمل سماعها، كنت

أريد أن أستفسر عن أحوال أمه الشجاعة التي تشبه شخصية الأم في رواية **الأم** لمكسيم غوركي. محل الحلاقة شبه فارغ، وهو الذي عرفته غاصًّا يوميًّا بالزبائن، باستثناء يوم الاثنين الذي هو يوم العطلة الأسبوعية العالمية للحلاقين. شيخ أو ما يشبه شبح شيخ يجلس على كرسي الحلاقة الدوّار، ساقاه النحيلتان العاريتان متدليتان كخشبتين كادتا أن تلامسا الأرضية المغطاة بالشعر الأسود والأبيض، يقابل وجهُهُ المرآةَ المغبرة ورغوة الصابون على حنكيه المتعظمين، وشاب غريب السحنة لم يسبق لي رؤيته في المحل يقوم بحلاقة وجه الشيخ الذي لا لحية له أصلاً، أمرد أو يكاد، بعض شعيرات تخترق فقاعات الصابون بصعوبة وشقاء!

الشاب الغريب النحيل الذي يقوم مقام الحلاق غارق في صمته، والشيخ الأمرد صاحب الساقين الطويلتين ساكت أيضًا، يخرج يده من تحت المئزر وينش الذباب العنيد من على وجهه بين الحين والآخر.

الحلاقون معروفون بفن الثرثرة، لا حلاق بدون ثرثرة، من أراد معرفة أخبار مدينة ما فليجلس إلى حلاقيها، جميع القصص تلتقي عند الحلاق، ومن عنده تتوزع الأخبار، تنتشر، تطير، بعضها غريبة وأخرى عادية، أخبار وحكايات عن الزواج والطلاق والإرث والخيانات والمخدرات والاغتيالات والأسفار والإضرابات وأسعار الغنم والعقارات... كلها تحط عند الحلاق ومن عنده تقلع في كل الاتجاهات لتحط على كل الألسن وفي الساحات العامة.

ترددت في الدخول إلى صالون الحلاقة، تقدمت خطوات، واقفًا عند العتبة. حييت الشاب، سألته عن السيد خوليو، لم

يلتفت إليّ. كنت أراقب ملامح وجهه الغامض في عمق المرآة، ملامحه لا تقول شيئًا، ثم كررت السؤال: "أين السيد خوليو؟"، رمقني هو الآخر من عمق المرآة ومن خلالها حدثني بصوت أنثوي خافت قائلاً: "تريد حلاقة شعر الرأس أم اللحية؟". صمتّ قليلاً ثم أجبته: "أردت السؤال عن حالة أمه، فهي مريضة منذ فترة؟". أجابني: "تريد حلاقة شعر الرأس أم اللحية أم العانة؟". "لا هذا ولا تلك، أريد الاستفسار عن السيد خوليو وصاحبه الهواري الحكيم". هذه المرة حين سمع اسم الهواري لم يرد عليّ، اضطرب قليلاً، وقد شعرت وكأنما ارتجف المقص بين أنامله وتغيرت نقرات موسيقاه. أدار ظهره واختفى وجهه من عمق المرآة، وانكب على حلاقة وجه الزبون الجالس بساقين طويلتين ممدودتين أمامه كالخشبتين، والذي لم يكن شيخًا وإنما شاب لم يتجاوز العشرين وقد شاخ قبل الأوان.

قال الشاب الذي يجلس على مقعد الحلاقة: الناس ذهبت إلى الجبل لتجمع الزيتون. يبدو أن فصل قطف الزيتون قد تجاوزك، أليس كذلك؟

ثم سكتَ.

وانسحبتُ.

الأواخ

اختفى الهواري سويح من حي الدرب فجأة. "هل صعد إلى الجبل لجمع الزيتون؟". ما هذا؟

عن أي جبل وعن أي زيتون يتكلم الشاب الذي يشبه الشبح؟! ما عاد الهواري يجلس في محل الحلاقة. لقد اختفى، لم يظهر له أثر منذ أسابيع. خلف اختفاؤه فراغًا كبيرًا بين الأهالي وهو الذي كان لا يمر بمجلس إلا وأثار نقاشات مثيرة حول العدالة الغائبة والحرية المغدورة والمواطنة الموءودة. كان الهواري هو من يقف خلف أنشطة نقابة سائقي التيرولي وسائقي الحافلات بكل منطقة الغرب (ما يسمى بالقطاع الوهراني).

محلات كثيرة مغلقة، حي الدرب تملأه وجوه غريبة عابسة من أفراد الشرطة في دوريات متحركة وأخرى ثابتة، بلباس رسمي أو مدني.

الرجل الأسمر صاحب آلة تحميص الفستق الحلبـــي الذي لا يتكلم سوى اللغة التارقية وقليلا من الإسبانية، هو الآخر اختفى من على الرصيف الذي لطالما ملأه غناء وموسيقى وحركـــات بهلوانية مثيرة. آلة التحميص لا تزال مركونة في مكانهـــا علـــى الرصيف مربوطة بسلسلة من حديد وقفل إلى عمود كهربـــائي عمومي. مقهى الوداد مغلق، صاحبه اقتيد البارحة فجرا إلى جهة لا يعلمها أحد. ألغيت عروض دار الأوبرا. أفيش حفل الفنـــان المحبوب أحمد سعيدي إلى جانب مسعود المديوني ممـــزق، عليـــه علامة إكس. الناس تنزل من الحافلات وتسرع الخطـــى نحـــو حافلات أخرى أو في اتجاهات متقاطعة، راجلين مسرعين.

يوم مُغيّم قليلاً، لا بالبارد ولا بالساخن، رطوبـــة عاليـــة. المدينة تودع الصيف المتأخر كعادته بوهران وتستقبل الخريـــف باحتشام، غبار على الشوارع وقلق في العيون.

حيرة وأسئلة في الأفق.

بسرعة نزلت شارع اللاك دوك في اتجاه دوجة أو شكيرا. لم توقفني أية دورية أمية، لقد عرفوني من سحنتي بأنني أوروبـــي، مسدسي مغروز في الحزام. لا أحد أمام باب "دار التســـامح"، نساء علب الليل اختفين من عند عتبات البنايات، قليلات منهن اكتفين بالوقوف على البلكونات، يغـــازلن الســـماء والفـــراغ ويقاومن هذا الخوف الذي اجتاح الحي وسكن القلوب جميعها. صعدتُ السلالم بسرعة، لم تطلب مني الباطرونـــة أي شـــيء، كانت واضعة حنكها على كفها الأيمن غارقة في بحر لا شـــاطئ له. اقتحمت غرفة دوجة، كانت جالسة على طـــرف الســـرير

تدخن، حائرة، سابحة في غيوم من الهواجس، ارتجفت لرؤيتي فربما لم تتوقع زيارتي في مثل هذا الوقت وفي هذا الجو الأمني المشحون والمتوتر، لم تنفجر ضحكا كما هي العادة وهي تتحدث عن سجقتي بحشفتها، أخذتني من كتفي وهزتني بقوة ثم احتضنتني قائلة:

- ما الذي يحدث؟ أنت عسكري وطبيب تعرف كل شيء؟
- أنا مثلك أشعر بشيء غامض وعنيف قادم ولا أحد يمكنه رده.

عليك أن ترجع إلى مقر عملك فورًا. هذا المكان أصبح غير مريح وغير مؤمن، البارحة سمع طلقات نار في الزقاق الذي خلفنا، دوريات الأمن في كل مكان وصفارات الإنذار تسمع ليل نهار، لقد تم احتجاز ثلاث نزيلات، مسلمتان ويهودية، وجدت بغرفهن أسلحة وذخيرة ومناشير تحرض على الثورة والعصيان المدني.

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

وجدها كبيرة بكلامها، أكبر من عمرها ومن ضحكاتها الطفولية التي لطالما أطلقتها كلما قابلتي، أخذتها في أحضاني بقوة، كان جسدها كجسد عصفورة، شفافًا وناعمًا. لأول مرة أشتم عطرًا ينبعث منها يذكرني بعطر والدتي، وأحسست بأني أوغسطين ابن السمكري الإفريقي.

"جسد السمكري بعرقه ولباسه مثير جنسيًّا للنساء اللواتي ما فوق الستين عامًا".

بكت حين لامست المسدس المغروس في حزامي، ربما اعتقدت بأنني جئت لاغتيالها أو لتصفية شخص آخر في المكان أو

في الأنحاء، قبلتها ثم تركتها واقفة مرتجفة كغصن صفصافة في مهب عاصفة خريفية مفاجئة، أسرعت الخطو نحو الخارج في اتجاه الثكنة، تحسست مسدسي، لأول مرة أتحسسه بهذه الطريقة، شيء يرتسم في الأفق، شرخ، غموض، عتمة. الساعة تجاوزت بقليل السادسة مساء والشوارع بدت شبه خالية، حركة الحافلات والتراموي تبدو غير منتظمة أو هكذا بدت لي، ما بقي من مارة على الأرصفة أو من زبائن داخل المحلات يبدون وكأنهم في عجلة من أمرهم، متأخرون عن مواعيد مهمة، لا أحد منتبه لأحد، الجميع في سباق بدون بوصلة، نساء قليلات في الشارع ولا أطفال، بعض القطط تموء بشكل غريب، أصوات مبحوحة تجيء من البلكونات، أصوات مقدمي الأخبار على المحطات الإذاعية والقادمة من الراديوهات في ما بقي من محلات مفتوحة، بدت جميعها متشنجة وعالية...

كنت أسرع الخطو وأفكر في دوجة، أهذا هو اللقاء الأخير، تذكرت بأني لم أقل لها وداعًا.

حين دخلت الثكنة كانت الساعة قد قاربت السابعة إلا قليلاً. الجو خريفي رطب وثقيل، أسرعت نحو المطعم، مجندون وضباط واقفون في الطابور على وجوههم صمت وفي نظراتهم حيرة، سمعت أحدهم يقول:

"إن الساعة دقت، ساعة الحرب القذرة".

أكثر فأكثر أشعر بأنني في المكان الخطأ، هذا المكان الذي أوجد فيه ليس لي. أنا ابن السمكري، ابن جده في مكان القوي، كنت أبحث عن طريق للوصول إلى مكان آخر، مكان "الطيب"،

المكان الذي تقف عليه دوجة وصحيباها والهـــواري والشـــاب خوليو ونيكول إلهة الشمس ومحمد بن دوفال...

كلما حاصرتني أسئلة الحيرة، شعرت بعشق غريب وكـــبير لمدينة وهران. زلزال في داخلي، شيء ما اهتز في قناعاتي، انكسر شيء ما بداخلي نهائيا.

في صباح اليوم التالي وأنا أحلق ذقني الحلاقـــة العســـكرية اليومية، حين سحبت شفرة جيليت على حنكي وانكشـــف لي ملمح من ملامح وجهي من تحت رغوة الصـــابون، اكتشـــفت أسارير وجه الهواري مرتسمة على ملامحي. حين دققت النظر في وجهي من خلال المرآة وقد خرج كلية من تحت رغوة الصابون، وجدتني نسخة من صورة الهواري سويح. وحين دققت النظـــر وقد فوجئت بما أرى منّـــي وفيّ تـــذكرت حكايـــة والـــدي السمكري، الذي لم أعرف سوى وجهه على صـــور بالأســـود والأبيض كانت تحتفظ بها أمي، تخفيها بعناية بين رزمـــة مـــن الرسائل القديمة وبعض أوراق عقار البيت والحديقة.

أنا أوغسطين ابن السمكري الإفريقي.

الخرفان

استقبلني الضابط ليفي النقاوة زمرمان في مكتبه. قرأت في عينيه حيرة، وجه بملامح غائمة في حالة توتر. أديت له التحية العسكرية، رد عليّ بإشارة خفيفة من يده، أشار علي بالجلوس قبالته على كرسي بسيط. ترددت، رفعت قبعتي من على رأسي ثم جلست على الطرف. قال لي، حتى دون أن ينظر إليّ، وهو يسلمني قرار نقلي إلى ثكنة السانية، على بعد عشر كيلومترات جنوب مدينة وهران:

أنت الثقة، لذا نحن بحاجة إلى خدماتك هناك، للإشراف على فحوصات الشباب من "الأهالي" الذين يلتحقون بصفوف قواتنا لاستعمالهم كقوة رديفة وكعيون استخباراتية.

- الأهالي؟ ثم بلعت الكلمة.

- نعم.

قالها وقد شعرت به كمن يمتص كتلة مرارة في حلقه هو الآخر.

تناولت من يده القرار، وغادرت على الفور المكان بعد أن قدمت التحية ثانية. كانت سيارة الجيب العسكرية في انتظاري عند باب الثكنة الخارجي. بسرعة جمعتُ أغراضي الشخصية، ملابسي، بعض الكتب والدفاتر ولوحة جدي التي أنجزها منذ كنت طالبًا في كلية الطب بجامعة باريس، وثلاثة بورتريهات جديدة صغيرة الحجم غير منتهية مرسومة على ورق أبيض عادي: بورتريه لدوجة وآخر للهواري سويح الذي يشبه والدي وثالث لنيكول إلهة الشمس، ثم قفزت إلى المقعد الأمامي، إلى جوار السائق.

قطعنا حي المدينة الجديدة، بدا محاصرًا بالكامل، مداهمات مباشرة في وضح النهار لبعض المقاهي والمحلات التجارية، توقيفات بالجملة، أغراض وأثاث وسلع مرمية في الشوارع، كراطين شحن مبقورة، سيارات كثيرة لرجال الأمن والعسكر تقف على الرصيف، وبعضها متمركزة في وسط الطريق، محلات تجارية مغلقة. اختفى الباعة المتجولون نهائيًّا من على الأرصفة. الموسيقى التي لطالما خرجت من مقهى فريد الأطرش وأنعشت الفضاء ها هي صامتة، لا أريج قهوة يعبق في الأزقة ولا رائحة السْفَنْج المقلي في الزيت تملأ المكان.

حين كدنا نشرف على ضواحي المدينة، وبعد أن تجاوزنا عشرات الدوريات الأمنية، قال لي السائق الذي يشبه كثيرًا صديقي أفولاي، ولم يكن قد تفوه بكلمة واحدة طوال الطريق:

- يقولون إن الحرب اندلعت في أماكن كثيرة، في القرى والمداشر والجبال والغابات؟

- الحرب قائمة بشكل من الأشكال منذ مجازر 8 مـــايو 1945 بسطيف وخراطة وقالمة... لكنها كانت تخفـــي نارها أو نحن الذين كنا لا نرغب في رؤيـــة دخانهـــا والاعتراف بوجودها، كنتُ أريد أن أقول له هذا لكني بلعت لساني.

أخرج السائق علبة السجائر، ناولني واحدة وسحب لنفسه أخرى، وظل ساكتا، مداخل المدينة عليها حواجز عســـكرية كثيرة، طوابير السيارات والشاحنات وصفوف الراجلين مـــن المارة الذين يتم تفتيش حقائبهم والتأكد من هويـــاتهم تقطـــع الطريق.

لقد اختفت صورة وهران التي كانت تبدو متوازنة وهادئة ومتسامحة، لتظهر بديلاً عنها مدينة الأحقاد والمفارقات والعنف. نظرت إلى تمثال السيدة سانتا كروث لم أجده في مكانه، اختفى في غيم كثيف، غابت حارسة المدينة سانتا كروث وكأن الله لم يعد يسمع صلواتها.

.....

بسرعة اندمجت في جو الثكنـــة الجديـــدة، روتـــين قاتـــل وأعصاب وأخبار الحرب تأتي تارة من الجبال وتارة أخرى مـــن المدن. يومًا بعد آخر أشعر بما يشبه الضيق في التنفس. كلما أطل عليّ وجهي في المرآة صباحًا وأنا أحلقه أكتشف فيـــه ملامـــح الهواري سويح. يقلقني أكثـــر فـــأكثر وجـــودي في معســـكر "الطيبين"، في معسكر "الأقوياء" الأرق رفيقي في الليل، وصوت جدي في أذني ازداد ارتفاعًا، فاق كل الأصوات.

وصلت قوات دعم متخصصة من الجزائر العاصمة وأخرى من باريس متخصصة في فن الدعاية بغرض تجنيد أكبر عدد من شباب الأهالي حتى لا يكونوا طُعما في يد "الفلاقة" من عناصر جبهة التحرير.

كثير من شباب الأهالي الفقراء وجدوا أنفسهم ضائعين حيارى ما بين مطلب الثورة القاضي بالالتحاق بالجبل أو التصفية، من جهة، والدعاية العسكرية الفرنسية القوية، من جهة ثانية، والتي تحاول اطمئنانهم على أن الوضع مؤقت وأن كل شيء سيعود إلى مجراه، البوصلة ضائعة.

الضباط الفرنسيون والخبراء في الدعاية الحربية يعملون على تجنيد الأهالي وتسليحهم، مؤكدين أن التزامهم بفرنسا القوية هو الطريقة الوحيدة للتخلص من التجنيد الإجباري في صفوف عناصر الثورة، وبالتالي تعريض حياتهم للموت المؤكد. وفي ذلك أيضًا ضمان لأمنهم وأمن فرنسا التي تحميهم وتحمي أملاكهم، وأن ما يسمى بالثورة هي عصابة قطاع الطرق لن تعمر طويلاً.

هذا الصباح ونحن نستقبل مجموعة من الأهالي في الثكنة، الذين جيء بهم مكدسين كقطيع معز في ثلاث شاحنات عسكرية، كنت أجلس خلف المكتب، أفحصهم واحدًا واحدًا على عجل وهم يرتجفون عراة الصدور وقد سكنهم الرعب. إنهم بين نارين، نار خوفين، خوف عسكر فرنسا وخوف نار مجاهدي الثورة. أسجل أسماءهم في دفتر كبير، غالبية الأسماء متشابهة. يبدو أنه جيء بهم من دشرة واحدة، من قبيلة واحدة، أعمار متفاوتة، الابن والأب والحفيد في صف واحد، على

عجل تسلم لهم ألبسة عسكرية ويوزع على بعضهم من الشباب الذين يتمتعون بصحة جيدة قطع أسلحة، يقتادهم أحد الضباط مباشرة إلى ميدان التدريب والرماية الموجود على أطراف الثكنة.

وأنا أراقب أحد الضباط وهو يوزع الأسلحة على هذه العناصر من الأهالي، تذكرت أولئك الخونة الذين سلموا باريس وفرنسا للقوات النازية، وتذكرت جدي بيير قيران وهو يستعيد بطولته الخارقة ضد جيوش النازية على شواطئ نورماندية، وندمت لأنني لم أكن أرغب في قراءة جريدته المفضلة **لومانيتي**! ! ربما هي لعنته لحقت بي.

هذا الصباح، لم أكُ أنتظر ذلك، دخل عليّ النقيب ليفي النقاوة زمرمان في مكتبي بالطابق الأول، كان هو الآخر حزينًا ومنطفئًا حياني ثم أخذ يتابع من هذه النافذة التدريبات المستعجلة التي يتلقاها عدد من الأهالي الذين تم اختيارهم على عجل لضمهم إلى معسكر القوي.

قال لي: هل انتهيت من البورتريه الذي طلبت منك إنجازه لنيكول؟

لم أكن أنتظر منه مثل هذا السؤال، استغربت حديثه هذا، فالوقت ساعة حرب وليست ساعة ألوان وضوء وأشكال.

قلت له وبصوت خافت:

- تقريبًا... يحتاج إلى بعض الرتوش، سأنهيه ريثما تهدأ الأحوال قليلاً، رأسي وقلبي ليسا هذه الأيام في الألوان والخطوط...

أخرج النقيب ليفي سيجارة، أشعلها، سحب منها نفسين عميقين، وهو لا يزال يتابع بعينين كعيون النسر الحركات الرياضية في حصة التدريبات العسكرية لشباب الأهالي، ودون أن يلتفت إلي قال لي بصوت فيه نبرة حزن: "هؤلاء الشباب هم ضحايا العنف والمسخ، علينا أن ننقذهم قبل فوات الأوان".

لم أفهم كلامه جيدا، المعنى لا يدخل في الكلمة، الكلمة ترفض معناها!! حتى إنني اعتقدت بأنه يحدّث شخصًا آخر غيري، أو أنه أصيب بنوبة هلوسة، أو أنه يقرأ ما في رأسي ويريد أن يختبرني، فيجعلني أفصح عن الأفكار التي تؤرقني وبالتالي تتم تصفيتي.

ثم وعلى إيقاع صوت غاضب أضاف: "لقد تم البارحة بسجن بربروس تنفيذ حكم الإعدام بالمقصلة في حق المناضل فرنوند إيفتون؛ لأنه انحاز إلى صف الثورة والثوار، انحاز إلى معسكر المظلومين الذين سلبت منهم حرياتهم وبلدهم".

أغلق باب المكتب، كنا وحيدين، ثم اقترب مني كأنما يريد أن يفشي إليّ بسر خاص، كان يرتجف:

- بعد تفكير وتمحيص وتأمل دام شهورًا، وأمام ما رأيت من تعذيب وحشي وتنكيل وتصفيات لحقت بأبناء هذا البلد دون تمييز، هم أبناء بلدي، هم أهلي، حتى وإن كنا من عقيدتين مختلفتين، فالبلد هو من يجمعنا في الحب والحرب والعمل والبناء، وبعد تشاور مع نيكول والاتفاق معها ومع رئيس الأساقفة صاحب الغبطة محمد بن دوفال، فقد تمكنا من تأمين خط اتصال سري

جدًّا لي مع أحد مسؤولي الثورة، وهو قائد كتيبة في جبال عصفور، قررتُ العصيان العسكري وبالتالي تغيير موقعي من معسكر القوي إلى معسكر صاحب الحق، قررت العودة إلى معسكري معسكر الأهالي.

كان الضابط ليفي النقاوة زمرمان يتكلم وأنا أتابع حديثه وكأنما كان يقرأ ما في صدري، يطل على أفكاري التي تسكن رأسي فتعذبني أنا الآخر منذ فترة. مع ذلك خفت أن أبدي موقفًا إيجابيًّا مما جاء على لسانه. التزمت الصمت، تركته يتكلم، دارت في خاطري فكرة خطيرة وهي أن أقوم وأعانقه، لكني تراجعت وخشيت أن أكون قد سقطت ضحية مكيدة مدبرة ضدي، بعد أن بدأ بعض من حولي في الثكنة وحتى خارجها يدركون بعض مشاعر تعاطفي مع الأهالي وصداقتي العميقة والأخوية مع أفولاي الذي تم تجريده من سلاحه الذي عاد إلى هوايته رسم الخرائط الملونة.

استدار نحوي، اقترب مني بعض خطوات وأخفض من صوته قليلاً، لكن الشرر في عينيه ازداد اتقادا، ثم همس:

- ليس أمامنا وقت نضيّعه يا أوغسطين. علينا أن نهرِّب معنا هؤلاء الأهالي بأسلحتهم التي سنتركها بحوزتهم هذه الليلة. مع أول خيوط الفجر نشحنهم في شاحنة تجاه الغابة وكأننا سنأخذهم لعملية تدريب، وهناك سننزلق إلى الغابة حيث سنجد في انتظارنا قائدًا من قادة الثوار في انتظارنا. علينا العودة إلى مواقعنا الحقيقية، موقعنا الحقيقي يجب أن يكون إلى جانب الأهالي. لقد

رأيت جدي الأول "أبراهام النقاوة" ينهض من قـــبره المبارك بتلمسان ويوقظني من نومي قائلاً: "عليـــك أن تلتزم يا ليفي بمعسكر الضعفاء من أهل بلدك، تلمسان بلدك، فيها بنيت أول معبد وفيها رفعنا أول صلاة، هي قدس أفريقيا الشمالية يا بني لا تفرط فيها، هـــي مـــن احتضننا ترابها وحمانا جدارها حين ضاعت بنا الســـبل جميعها".

الكريماتوريوم

الأجداد لا يموتون، إنهم فقط ينامون فينا ولو لحين ليستيقظوا بعد حين.

حديث النقيب ليفي النقاوة عن جده الأول حركت فيّ أنا الآخر صورة جدي خصم هتلر وفرانكو. كنت أعتقد دائما ومنذ الطفولة بأن الموت يقبض على أرواح الآخرين فقط، فهو لا يعرف عنوان بيتنا ليستدل على سرير عزيز مثل جدي. هو إحساس غريب لا يزال يسكنني حتى اليوم، جدي هو الوحيد الذي كنت لا أتصور أنه سيموت يوما، هو الوحيد الذي كنت أتمنى أن لا يرحل قبل رحيلي، أن أسبقه إلى الموت إذا كان لا بد من الموت ذات يوم، أن يدفنني في التراب في مربع العائلة في مقبرة شهداء الحرب العالمية الثانية، حيث قبور جنود التحالف الأمريكيين والكنديين الذين ضحوا بحياتهم في إنزال نورماندیا الذي كان بداية نهاية قوات الفاشية على الجبهة الغربية، أو يدفع

جسدي النحيل وبشهوة دينية عارمة إلى نار الكريماتوريوم بعد صلاة عابرة، ليستلمني بعد دقائق حفنة رماد يضعها في جرة من خزف أو بلور يحتفظ بالقليل منها على تلك الطاولة، الموضوع عليها جهاز الراديو ذو الإطار الخشبي المثير والأزرار المذهبة المتناسقة، والباقي يذروه في حديقة المنزل عند أقدام شجرة التفاح حيث شاهدته بأم عيني، قبل خمس عشرة سنة، يفعل ذلك مع رماد جثة أخيه الأصغر الذي مات في حادثة غريبة وهو عائد من حفل، بمناسبة نجاح قائمة حزبه في الانتخابات البلدية، ومنذ ذلك اليوم لم أستطع أكل تفاح تلك الشجرة.

جاءني خبر موت جدي الذي لن يموت أبدًا في رسالة سلمني إياها النقيب المسؤول عن مجموعتنا ليفي النقاوة زمرمان. قرأت في عينيه شيئًا غير عادي وهو يضع الظرف فوق ركن الطاولة وأنا أهمّ لتناول الغذاء. نظرت إلى الصحن أمامي، اختفت شهيتي للأكل وتذكرت على الفور شجرة التفاح.

أخبار الموت تشم عن بعد، الموت والحب لهما رائحتان غريبتان.

الميت كالعاشق لا يُخْفى سرُّه.

كما لكل حب حكاية فريدة ومتميزة فلكل موت أيضًا قصة فريدة ولها تفاصيلها الخاصة.

الموت واحد والحكايات مختلفة.

الحب واحد والحكايات متعددة.

بمجرد أن قرأت الرسالة وتأكدت من خبر موت جدي، تذكرت، لست أدري لماذا، جهاز الراديو الذي يظل مفتوحًا

دون توقف أيام الآحاد، فجدي مسكون بهوس متابعة مباريات كرة القدم. الآن أشعر بأن الجهاز مطفأ، وأنا كذلك مطفأ، إحساس باليتم والضياع يبلعني فجأة.

كنت أشعر بأن لا يوم أحد دون معلق رياضي يصرخ، صوت متشنج يصعد من الراديو الذي يغير بطارياته كل أسبوع، ليلة السبت.

قناني بيرة كرونومبورغ ومباراة كرة القدم والراديو عالي الصوت وجدي وروتين يوم الأحد، هي أشياء متلاصقة ومتداخلة في ذاكرتي.

بشجاعة، أعدت قراءة الرسالة للمرة الثانية، إنها بخط والدتي، فهي الوحيدة من جميع أفراد الأسرة التي تعتني بخطها كثيرًا أكثر مما تعتني بلباسها ومكياجها، فهي ترسم الحروف على الورق الوردي الذي تفضله بطريقة مدرسية واضحة، ترسمها شبيهة بالعصافير والفراشات وأغصان الأشجار المقلمة بعناية وفن، ورثت عنها تقليد جماليات خطها، وربما منها أخذت هواية الألوان. حبها للسمكري هو الذي أنساها أن تكون فنانة تشكيلية. بعد القراءة الثانية طويت الرسالة وأعدتها إلى الظرف الأصفر. نظرت جيدًا إلى الطابع البريدي، الذي كتبت عليه ثلاث كلمات شعار الثورة الفرنسية: حرية، مساواة، أخوة «Liberté, égalité, fraternité» وقررت أن لا أعود ثانية إلى مدينتي، إلى ويسترهام. لا أريد أن أرى جدي بقامته وشواربه وضحكاته، والآلاف من صناديق البيرة التي شربها، وتعليقاته الساخرة على جدتي البورجوازية، وقد أصبح عبارة عن حفنة

رماد في بوقال صغير من زجاج غامق موضوع على الطاولة الخشبية العتيقة بجوار جهاز الراديو المطفأ، هو الجهاز نفسه الذي اقتناه يوم تخاصم في البار مع أحد مناصري فريق كان يلعب ضد الفريق الذي يناصره جدي، والذي كان يسافر من مدينة إلى أخرى لمساندته، ومنذ ذلك اليوم لم يتابع مباراة واحدة لا في ملعب ولا في حمارة مع شلة الأصدقاء. جدتي البورجوازية الأنيقة وهي تضع البوقال الذي فيه رماد جثة جدي على طرف الطاولة التي عليها جهاز الراديو، فكرت مباشرة في بيع هذا الجهاز؛ فلم يعد هناك في البيت من يتابع مباريات يوم الأحد ولا أخبار العالم في فيتنام أو في الجزائر، وحتى هي لم تعد تثيرها التمثيليات الإذاعية التي أصبحت لغتها باردة والممثلون غير أكفاء، يخطئون في اللغة ولا يحسنون نطق الكلمات.

ما إن وضعت الرسالة في الجيب الداخلي لمعطفي العسكري، حتى بدت لي مدينة الطفولة ويسترهام غريبة، منفصلة عني، عالمًا من الغيوم والمطر النازل طوال السنة. وفجأة اختفت صور الأصدقاء والشوارع وموقف حافلات النقل المدرسي من رأسي، واختفى معها الحنين والشوق، وقررت أن أتخذ من مدينة وهران مسكنًا وحياة ومغامرة وربما قبرًا.

مع هذه الأخبار القبيحة عن الحرب بدأت أفكر في موتي وفي مدفني. ولأول مرة أتصالح مع الموت، وأنا الذي كنت أعتقد أن الموت لن يزورنا. الآن وهو قد أخذ جدي، فوجوده بات في حناياي. فكرت أن أكتب رسالة إلى أمي على شكل وصية أطلب منها أن تدفنني في التراب جثة كاملة، وأن لا تحرقني كما

حدث لجدي خصم هتلر وفرانكو والدوتشي. صغيرًا كنتُ أخاف بناية الكريماتوريوم التي لم تكن بعيدة عن بيتنا، مؤسسة مرعبة، مذ أن عرفت بأنها المؤسسة التي يتم فيها حرق الجثث قررت أن لا أمر بمحاذاتها. كنت وعلى بعد شارعين أو ثلاثة أشتم رائحة اللحم البشري المشوي، وحين كنت أقول هذا لأمي كانت تواجهني بغضب وعنف في الكلام قائلة: "ليست هناك أي رائحة غريبة، الأموات لا يشعرون بالنار، والنار التي تأخذ أجسادهم نار مقدسة. لحم الأموات لا رائحة فيه، عليك أن تستغفر العذراء وأن لا تتمادى في كفرك هذا". خفية عن أمي أشد على أنفي بأصبعي وأمضي ماسكا في تنورتها أو بطرف معطفها الطويل.

لم أكن قادرًا أن أقول لها: "هذا غير صحيح يا أمي، إن رائحة احتراق الموتى تزكم أنفي"، كنت مقتنعًا بأن رائحة اللحم البشري المشوي تعبق في هواء الشوارع المحيطة بالكريماتوريوم، وكنت متأكدًا من أنها هي الأخرى تشتم هذه الرائحة ولكنها تخفي ذلك خوفا من غضب السيدة العذراء، ربما لذلك كانت تصر على شراء معطر للغرف برائحة الخزامى القوية كل اثنين حيث هو يوم لشراء مقتضيات البيت الأسبوعية، وتكثر من تعطير الصالون خاصة وتجدد ذلك مرات في اليوم وتغلق النوافذ بإحكام.

وأنا أتلمس بحنان الرسالة في جيبي الداخلي، وكأنما أصلي على جدي صلاة الغائب، شعرتُ بأن هذه المدينة التي أشرف فيها على إكمال سنتي الثانية، بالضبط سنة وتسعة شهور

وواحدًا وعشرين يومًا، بدأت تمنح جسدي طاقة غريبة، إنه الميلاد الجديد.

مساء، أتمدد فوق سريري ذي القوائم الحديدية التي تحدث صوتًا غريبًا كلما احتكت بالزليج العاري، فأشعر وكأنما برحيل جدي عاشق جريدة **لومانيتي** عن مدينة طفولتي، أضحت هذه الأخيرة بعيدة جدًّا. غرقت فجأة في ضباب وفي رائحة شواء لحم الموتى، فأشعر بأن الناس هنا في مدينة وهران ليسوا غرباء عني، لقد أصبحت جزءًا منهم، أخاف أن أفقدهم، أن يضيعوا في الزحام، أن يتحولوا هم الآخرون إلى حفنات رماد في بوقالات من زجاج أو جرار صغيرة من فخّار بجوار أجهزة الراديوهات الصامتة.

ها هنا أيضًا، في وهران، بدأت أشتم رائحة اللحم البشري تتصاعد. الحرب كريماتوريوم من نوع آخر.

تحولت مدينة وهران إلى مركز سحري غامض بداخلي. تذكرت مقولة ألبير كامو الخاطئة عن وهران القائلة: "وهران مدينة تعطي ظهرها للبحر". هذا غير صحيح مطلقًا؛ فوهران مدينة تعانق البحر بجنون.

المسخ

هذا الصباح كأي صباح آخر، كالعادة المملة وأنا أقف في استعداد عسكري لتحية العلم في ساحة الثكنة، نظرت إلى العلم الفرنسي وهو في حبله يتسلق العمود بهدوء، شعرت بشيء ما يجري في دمي، شيء كالنار، تمنيت لحظتها أن أرجع إلى قريتي.

السماء مغيمة فوق الثكنة، خريف بإحساس غريب.

بحثت عن أفولاي فيّ، لم أجدني ولم أعثر له على بقية ولا عن شيء من "كنزي". سكنني وجه كْروكْ-مورْ زوج خالتي وشدني حنين إلى رؤيته، وشعرت بخالتي تحتضنني بحنان ونحن نعود من "العرض السينمائي". كانت تدرك ثقل الصخرة التي بقلبي، طوبة الحزن والخيبة.

وأنا أراقب العلم الثلاثي الألوان "الأزرق والأبيض والأحمر" يرتفع قليلاً قليلاً نحو رأس السارية، لم يكن مرفرفا، فكرت أن

أترك نهائيًّا هذه الحياة العسكرية. خفت أن أجـــدني ذات يـــوم راكبًا على ظهر حصان أدور القرى كما يفعل القايد رمضـــان الأعوج، أن أكون ثعلب نساء القرية. شعرت فجأة بـــدوران في رأسي، تحركت الأرض من تحت قدميّ، مالت فسقطت، أسرع إلي أوغسطين وآخرون من الجنود، حملوني إلى العيادة ووضعوني على سرير تصعد من غطائه رائحة اليود القوية.

مكثت يوما وليلة بالعيادة، مساء بمجرد أن تمددت فـــوق السرير وجغجغت مفاصله الحديدية، هرب عني النوم، هجمـــت علي صورة والدي داود رشدي عاريًا. كانت الصورة واضـــحة في رأسي وكأنني أشاهده في الواقع مباشرة. أغمض عيني كي لا أرى عريه الفاضح، كي لا أراه وهو يحضن السيدة إيزيلدا غوميز كأنما يأكلها، جسدان عاريان تمامًا يأكل الواحد الآخر برغبـــة عارمة، تجلت صورتهما في مخيلتي شبيهة بآدم وحواء اللذين كنت أرى عريها على صورة ساذجة اشتراها أبـــي من أحد الأسواق الشعبية، صورة على الرغم من عريها لم تزعج أحدا وقد ظلـــت ملصقة بعناية على الحائط إلى جانب سجادة الصلاة المصنوعة من الحلفاء، والتي لا يستعملها والدي إلا مـــرتين في الســـنة لأداء صلاتي العيدين، عيد الفطر وعيد الأضحى، وإلى جانبها صـــورة أخرى ساذجة أيضا وكأنها لنفس الفنان ترمز إلى علي رضي الله عنه محاطًا بابنيه الحسن والحسين ومن خلفهما المـــلاك جبريـــل بلحية بيضاء طويلة ونظيفة يظللهما بجناحين كـــبيرين. كلمـــا حاولت مطاردة صورة والدي عاريًا تزداد تفاصيلها وضوحًا في رأسي. أغمض عيني فلا أرى إلا هو، ثم فجأة صرخت عاليًا إذ

رأيته يغتال أمي لالة رقية بنت الخلوي. وحين ركزت على صورة وجه أمي أدركت أن جسدها مربوط بحبل يتدلى من سقف المرقد العالي. لم تكن ميتة تمامًا، كانت تتحرك، بل إنها تتمتم، تتكلم وحدها، تخاطب نفسها. لم يكن هناك أحد معلق معها في الحبل، شعرها منفوش، وهي التي تحرص عليه طوال حياتها ممشوطًا مضفورًا. كانت تقول أشياء غريبة، تهذي، تتكلم لغة بدت لي غريبة أيضًا. لم أفهم ما كانت تقوله فجملها مفككة وبدون روابط. قلت في نفسي: "إنها جُنتْ". ولكني حين استدرت محاولاً الهروب من صورة أمي، فهمت من كلامها عبارة واحدة: "أنت خائن يا كنزي".

وهرب النوم من عينيّ.

استيقظت في الصباح وعبارة أمي لا تزال ترن في أذني: "أنت خائن". شعرت بأمي وكأنما انتقلت من الحبل الذي كانت معلقة به، لتستقر بصوتها وعبارتها "أنت خائن يا كنزي" في رأسي كصفارة إنذار لا تتوقف.

واقفًا أمام العلم، في ساحة الثكنة، ساعة التحية الصباحية، لم أكن أسمع النشيد الوطني الفرنسي. كنت أسمع صوت أمي وهي تردد: "أنت خائن يا كنزي، أنت خائن يا كزي". وتذكرت على الفور حكاية الرجل الذي مُسخ حمارًا في رواية **الحمار الذهبي** لأفولاي أو أبوليوس، الذي سمتني باسمه السيدة إيزيلدا غوميز، الحكاية التي روتها لي قبل أن أغادر القرية.

قلت في نفسي: "أنا الحمار الذهبي، أنا الشاب الذي مسخ حمارا" وخفية مددت يدي خلفي كي أتحسس الذَّنَب الذي

حدثتني عنه ساندرين، فوجدته ما بين ذيل الحمـــار الذهبـــي والقرد الإفريقي.

أنا أفولاي مسخت حمارا، لساندرين كل الحق ذيل الحمار أطول من ذيل القرد.

لكني بمجرد أن تحسست المسدس على جنبـــي، وأنا أسمـــع صوت ساندرين وهي تقول لي: "هل لك ذيل مكان العصعص، ذيل كذنب القرد؟"، ثم صوت والدي وهو يشدني بعنف مـــن كتفي، يهزني هزًّا قائلاً وكأنما يتوسلني أو يحرضني: "أنتَ مـــن ينقذ شرفنا المراق، الشرف كالدم يراق"، قررت أن "أحـــارب المسخ الذي فيّ، حمارا أو قردا كان"، واسترجعت على الفـــور صورة القايد رمضان الأعوج ممتطيًا حصانه وهو يدور الدشور، ومعه تدور وتكبر تفاصيل حكاية تحرشه بأمي، ومعها كنت أسمع صوت والدي داود رشدي يردد: "لا يمكن تحرير هذا البلد مـــن هذا الاستعمار، إلا إذا بدأنا بتصفية هؤلاء الخونة من أبناء جلدتنا الذين أصابهم المسخ".

تحسست بحنان المسدس وأنا أسترجع كل هذا وتســـاءلت: من الخائن؟ أنا أم رمضان الأعوج أم كلانا؟ علي أن أبدأ بتصفية ذاتي أولاً، أنا المسخ، أنا الشاب الذي مسخ حمـــارًا في كتـــاب **الحمار الذهبـــي** لجدي أفولاي أو أبوليوس ومسخ قردا في عيني ساندرين وأبيها العسكري المتجبر.

شيء ما في داخلي انهار كجدار. فقدتُ توازني، وشـــعرت بأنني كذبة، وتحسست مؤخرتي باحثًا عن "ذنب" كذنب القرد، وبالفعل وجدت ما يشبه ذلك، وقد نبت لي ذيل في آخر فقـــرة

أسفل الظهر، مكان العصعص. قلت: "سأُمسخ قردًا بدلاً من حمار."

بدأت أسمع صوت أمي لالة رقية بنت الخلوي يرن في أذني، كلما تخطيت الباب الخارجي للثكنة أو وأنا في حصة التدريبات الرياضية، أو في حقل الرماية أو في الحراسة الليلية، أو وأنا خلف المقود أسوق سيارة النقيب ليفي النقاوة زمرمان قائلة: "أنت خائن، أنت المسخ، أنت من سلالة رمضان الأعوج". أنتبه من حولي فأجد الضباط وضباط الصف وحتى الجنود ينظرون إلي نظرة خاصة فيها احتقار واستغراب؛ فوجودي بينهم خطأ، وكأنهم هم الآخرون أدركوا أن لي ذنبًا ينبت في مكان العصعص.

الوحيد الذي يشذ عن القاعدة هو صديقي أوغسطين، كان شابًّا لطيفًا شفافًا، فيه حس الفنان الرسام أكثر من الجندي المستعد لخوض المعارك. يحتفي بالحياة ويعادي الموت. يحب الأهالي ويعشق ألوان المدينة وكأنما يبحث عن شيء ضيعه في أزقتها.

أذكر أننا حين تعارفنا لأول مرة، كان ذلك في المرقد حيث سريره غير بعيد عن سريري، سألني بكثير من الحياء والتردد عن مصدر اسمي "أفولاي"؟

ضحكتُ وتذكرت أن والدي داود رشدي حين جاء المطحنة ذاك الصباح فرحًا بالمولود الجديد كان في قمة البهجة، وأخبر السيدة إيزيلدا غوميز بأنني جئت الحياة. ابتسمت، منحته بعض النقود كي يقوم بما يجب أن يقوم به في مثل هذه المناسبة

السعيدة وهو يحتفل بميلاد ولي عهده وحافظ نسله، وأكثر من ذلك سمحت له بالتغيب مدة ثلاثة أيام عن العمل، وقبل أن يخطو خارج المحل وهو يدس الأوراق النقدية في جيبه، قالت له: "سمّ ابنك أفولاي". وسماني أبي كذلك دون أن يعرف سرّ هذا الاسم، في حين رفضت أمي الاسم منذ أن سمعته واستثقلته واستهجنته، وقد أصرت أن تسميني "يوسف" على اسم جدها، لكنها نسيت الاسمين وأضحت تناديني "كنزي". لم يكن لوالدي أي دخل في اختيار اسم "أفولاي"، ولكنه كان يرد بنوع من الزهو على من يسأله عن فحوى هذا الاسم الغريب من سكان قرية حب-الملوك، بعبارات حفظها من كلام السيدة إيزيلدا غوميز، بعد أن استفسر عن ذلك لديها وقد بلغ الحنق من زوجته مبلغ الجنون: "سميت ابني باسم أحد أكبر الكتاب الأمازيغ من أبناء الجزائر، إنه أفولاي المادوري، ويسميه الأوروبيون المحرِّفون الكذابون Apulée De Madaure، هو كاتب من مداوروش قرية غير بعيدة من مدينة سوق أهراس مسقط رأس القديس أوغسطين".

ضحكنا تلك الليلة، إذ انتبهنا إلى أن اسمينا "أوغسطين" و"أفولاي" يعودان إلى من منطقة واحدة. وشعرت بإحساس غريب تجاه هذا المجند القادم من نورمادية.

بعد أن توطدت العلاقة بيننا، فوجئت بأوغسطين ذات يوم وهو يقدم لي هدية غريبة قائلاً: "إنه كتاب **الحمار الذهبي** لأفولاي في ترجمته الفرنسية. هو أول روائي في العالم من أبناء هذا البلد العريق".

يوميًّا وقبل أن ننام، كنا نقرأ معًا وبصوت عـــال بعـــض الفقرات، فنضحك على مغامرات الشاب الذي مسخ حمـــارًا، وحين كانت تفوتني معاني بعض الكلمات أطلب من أوغسطين شرحها...

كان وجود أوغسطين إلى جانبـــي في الثكنة مريحًا ومطمئنًا نسبيًّا، وقد أصبح أكثر قربًا مني حين فتح لي قلبه وبدأ في قـــصِّ بعض الحكايات الخاصة بأفراد أسرته: حبه الجنوني لجده، وتعلقه بأمه التي عشقت سمكريًّا أفريقيًّا؛ فكان هو نتيجة هذه العلاقة التي رفضتها جدته النورمادية البورجوازية. وكما وجدت فيه هـــذا الاستئناس وجد هو الآخر فيّ شيئًا ما كان يبحث عنه في هـــذه المدينة، وفي هذا البلد الغريب عنه.

نزولي رفقة أوغسطين إلى حي الدرب وســـهراتنا في "دار التسامح" مع بنات العلب الليلية، هو ما عمّق علاقتنا، وحطّـــم أسوار الوحدة عني وربما عنه هو الآخر.

في أول يوم زرنا فيه "دار التسامح"، أذكر ذلك جيدا، كنا بدون أي تجربة ولا خبرة في عالم النساء، وحين رجعنا إلى المرقد وحكى الواحد منا للآخر تجربته مع المرأة التي اختارها، كيـــف تعاملت معه وكيف أصبح رجلاً، ضحكنا كثيرًا ونحن نسترجع تلك اللحظات الحميمية. المرأة تلد الرجل وهي أيضًا من تعلمـــه الرجولة التي لا يعرف كيف يكتشفها حتى في جسده. في زيارتنا الثانية وقبل أن نتخطى عتبة "دار التسامح"، تعاهـــدنا لبعضـــنا البعض أن لا ينام أحدنا مع امرأة كان قد سبق أن نـــام معهـــا الآخر. كان القَسَم أن لا ننام في سرير امرأة واحدة، حتى ولـــو

كانت من بنات علب الليل. من يومها شعرت بأخوة عميقة تجاه أوغسطين، صرنا لا نفترق، منه تعلمت شرب أول جرعة بيرة، وبصحبته دخلت أول قاعة عرض سينمائي في حياتي، ولكن بمجرد أن بدأ عرض الفيلم وشاهدت دعاية سجائر ونستون، اغتنمت عتمة القاعة وانسحبت إلى الخارج. لقد تذكرت ذلك العرض السينمائي الذي أقيم في ساحة قرية باب النهار. مشيت في شارع أرزيو وأنا أستعيد شريط ما شاهدته يومها، ليس الشريط الذي عرض على الإزار الأبيض والذي أبكى خالتي مرجاة إنما شريطي أنا: كيف تصرف والد ساندرين مع ابنته لا لشيء إلا لأنه شاهدها في وقت الاستراحة، وقد وضعت يدها في يدي، وكيف أنها جاءتني في اليوم التالي لتسألني فيما إذا كان لي ذنب كذنب القرد مكان العصعص....

حين انتبه أوغسطين إلى أنني غادرت الصالة، قاطع هو الآخر عرض الفيلم ولحق بي في الشارع. لم يتجرأ على الاستفسار عن سبب المغادرة، لكنني في المساء ونحن في المرقد، مغمض العينين، حكيت له تلك القصة بتفاصيلها، لم يعلق، ظل صامتًا حتى النهاية، استدار إلى الجهة الأخرى شعرت بذلك من الصوت الذي أحدثته قوائم السرير الحديدية، ثم قال لي: "تصبح على خير"، كنت على يقين بأنه لم يكن نائمًا، إنه يفكر في شيء ما، وكأنما فهم شيئًا أو قرأ في كلماتي ما كنت أفكر فيه أنا الآخر. من يومها لم أدخل صالة سينما واحدة في وهران على كثرتها.

البستان

يومًا بعد آخر، أجد نفسي قريبًا أيضًا من النقيب ليفي النقاوة زمرمان. كانت علاقتي بأوغسطين علاقة صداقة، أما ما يشدني لليفي فهو شخصيته الهادئة، وإعجابي بعلاقته بزوجته السيدة نيكول التي كانت تحب أوغسطين، حتى إنني كنت أعتقد أنها أبعد من علاقة صداقة، على الرغم من أنه يصغرها بعشريتين تقريبًا. لم تكن تبدي أي حرج في مغازلته أمام زوجها وهو ما يبعد عنها كل الشكوك.

اختارني ليفي النقاوة للعمل تحت إمرته مباشرة، اشتغلت في البداية مساعد المشرف على مخزن الألبسة العسكرية وكل ما يتصل أيضًا بفراش المراقد، لكن المقام لم يطل بي في هذا الشغل ليعينني بعد أشهر قليلة سائقه الخاص.

كنت كلما جلست خلف مقود السيارة الجيب الرباعية الدفع والمكشوفة، تذكرت زوج خالتي كْروكْ-مورْ، الرجل

الطيب الذي أذاقني أول متعة قيادة. كان يجلسني خلف مقود سيارة نقل الأموات، يضحك عاليًا وهو يخاطبني وأنا أحاول جاهدًا قيادتها: "إنها تعرف طريقها إلى المقبرة، ستأخذك إليها على الفور يا "كنزي" يا كنز أمه رقية بنت الخلوي".

كْروكْ-مورْ هو الوحيد الذي يشدني الحنين إليه من جميع رجال القرية. رجل طيب بقلب طفل، لست أدري لماذا كلما جلست إلى جانب النقيب ليفي النقاوة، وقبل أن أدوِّر المحرك ترتسم أمام عيني صورة زوج خالتي كْروكْ-مورْ، أين هو يا ترى؟

كان ليفي النقاوة زمرمان رجلاً صموتًا على عكس كْروكْ-مورْ، مبتسمًا بتأمل في العالم الذي من حوله. لعل ما أثارني في شخصيته أيضًا لغتُه العربية ولهجته التلمسانية التي كانت تطلع من أعماقه، خاصة حين يكون في حالة غضب من تصرفات بعض الجنود، فيصرخ فيهم بالتلمسانية. كنت أشعر بالسعادة للسانه أكثر من وجوده، فلهجته قريبة من لهجتي.

وجود النقيب ليفي النقاوة بلهجته وأيضًا برتبته العسكرية المحترمة، وهو المسئول الأول عني في الثكنة، خفف من حدة هاتف صوت أمي.

تعرفت إلى نيكول في ذاك المساء حين أوصلت ليفي النقاوة إلى بيته، كانت تطعم القطة وتتحدث معها كأنها تُحدث كائنًا بشريًّا، وبمجرد أن قفز زوجها من السيارة الجيب العسكرية المكشوفة حتى أسرعت لاستقباله، قبلته، ثم واصلت حديثها مع القطة التي يبدو أنها عرفت سيدها فتركت الأكل وبدأت تتمسح

برجليه، كانت في منتهى السعادة. قبل أن أقلع راجعًا إلى الثكنة نادت عليّ نيكول قائلة: "انزل لتشرب معنا كأسًا". ترددت، والواقع أنني كنت أرغب في معرفة هذه المرأة التي كثيرًا ما حدثني عنها أوغسطين بإعجاب، وفي الوقت نفسه كنت أنتظر تأكيد دعوتها من قبل النقيب زوجها، الذي لم يتأخر في الإشارة إليّ بالنزول، ركنت السيارة والتحقت بهما، جلسنا في صالون بسيطة أثاثه، قدمت لي السيدة نيكول فنجان قهوة مع قطعة حلوى من صنع يديها كما فهمت من حديثها. قالت لي: "ما اسمك؟"، أجبتها: "أفولاي". بدت على ملامح وجهها علامة استغراب من اسمي، فعلقت: "أول مرة أسمع فيها بهذا الاسم؟". قلت لها:

"إن والدي هو من اختاره لي، مع أن أمي لم تكن راضية، وظلت تناديني باسم آخر هو "كنزي". يقول والدي إنه سماني باسم كاتب يقال عنه إنه أول روائي في تاريخ الأدب، وإنه من سكان هذا البلد الأصليين، من قرية مداوروش غير بعيدة عن سوق أهراس مسقط رأس سان أوغسطين".

حين سمعت اسم سان أوغسطين، انتبهت إلى حديثي أكثر وتفحصت ملامح وجهي بعمق، وهو ما فتح شهيتها للحديث عن المضايقات التي يتعرض إليها المونسنيور محمد بن دوفال، رئيس أساقفة الجزائر، من قبل السلطات العسكرية والإعلام المتطرف الذي يتهمه بالإرهاب، لا لشيء إلا لأنه يقف في صف الضعفاء والمظلومين، ثم نسيت حكاية القس محمد بن دوفال وانتقلت لرواية بعض قصص معاناة أطفال أحياء الأهالي المحرومين من أبسط شروط الحياة، وإشرافها على بناء بعض المدارس،

واستنكارها ما يقوم به بعض الفرنسيين وهو ما يتعـــارض مـــع وصايا السيد المسيح من حب وتسامح.

حين طلبت الإذن بالمغادرة قالت لي من اليوم لن أدعـــوك سوى باسم "محمد"، ومن يومها ظلت تناديني بمحمد وشـــعرت بسعادة غريبة في هذا الاسم، اسمي "الثالث".

البيان والتبيين

اليوم الأربعاء العاشر من أكتوبر 1956.

للمرة الثانية قرأت البيان الموجه من قبل جبهة التحريـــر إلى الحاخام الأكبر ليهود الجزائر التالي مرتين، شعرت وكأن الخطاب موجه إليّ أنا بالذات، كأنه نداء من جدي أبراهام النقاوة إليّ، ثم قررت، لم يكن الأمر هينًا أن تقرر، زلزال.

"... إن جبهة التحرير الوطني التي تقود الثورة ضد الاستعمار من أجل التحرير الوطني للجزائر، تقدّر أن الوقت قد حان على كل جزائري من أصل يهودي، أن يساهم، بلا غموض، في هذه المعركة التاريخية الكبرى... إن هذا الخيار.. سيمحو كل سوء فهم، ويقتلع بذور الحقد التي زرعها الاستعمار الفرنسي...

... لأن جبهة التحرير الوطني تعتبر اليهود الجزائريين أبنـــاء لوطننا، فإنها نرجو أن تكون لقادة الجالية اليهودية الحكمـــة في المشاركة في تشييد جزائر حرة ومتآخية.

إن جبهة التحرير مقتنعة بأن المسؤولين على هذه الجالية يدركون أنه من واجبهم إدانة الاستعماري الفرنسي بلا هوادة، وأن عليهم أن يكشفوا على خيارهم للجنسية الجزائرية."

لم أكن أقرأ بل كنت أردد فقرات حفظتها عن ظهر قلب من هذه الرسالة التاريخية، كنت أرددها بيني وبين نفسي ونحن نمشي في الاتجاه المحدد، الطريق إلى الأجداد.

وصلنا الغابة فجرًا، وقد بدأت تتراجع العتمة قليلاً قليلا وتتجلى تحت ضوء الشفق الأول أشجار الغابة وتضاريس المكان، ما أن مشينا بين الأشجار بعض أمتار حتى وجدنا في استقبالنا أحد قادة الجبهة معية اثنين من مساعديه. رحب بنا، بكلام مختصر شكرنا على موقفنا الشجاع وانحيازنا إلى كفة أصحاب الحق وانضمامنا لصفوف جنود الحرية. عرّفنا على نفسه: "أنا السي أمقران"، ولم يضف شيئا، ثم أمر مرافقيه بمساعدتنا في حمل السلاح الذي جئنا به، ثم قادنا إلى مخابئ لم تكن ببعيدة عن مكان اللقاء سوى نصف ساعة مشيا أو أقل بقليل، حيث وجدنا مجموعة من المجاهدين، وجوه فلاحية قاسية، بعضهم من الشيوخ وبعضهم من الشباب، أعمار متباعدة، كانوا هم الآخرون فرحين بقدومنا وبغنائمنا من السلاح، قرأت ذلك في عيونهم.

ظللنا اليوم كله في هذا المكان، وفي اليوم التالي، وكما كان متوقعًا، وبعد أن وصلت أخبار للقوات الجوية بأننا تركنا مواقعنا في الثكنة والتحقنا بصفوف العدو، تحركت كتيبة كاملة بعددها وعدتها لاقتفاء أثرنا ومحاصرة القرى والمداشر التي مررنا بها، وإحراق غلالها وقتل ماشيتها ودوابها، وتوقيف كثير من الفلاحين

البسطاء والرعاة بحجة أنهم هم من سهّل لنا الطريق، وأمّن وصولنا بأسلحتنا إلى مخابئ المجاهدين. قصفت الطائرات ثلاث مرات متتالية مواقعنا، أصابوا بعض الملاجئ، وأضرمت النيران في جزء من الغابة. لم يسفر الهجوم عن ضحايا بشرية. ومع سقوط الظلام، جاءنا أحد الرجال بلباس مدني حاملا معه رسالة خطية، وبعد مشاورات ونقاش ما بين المسؤول الذي استقبلنا والسيد باللباس المدني الذي وصل في مهمة يبدو أنها تتصل بنا أساسًا، طلب هذا الأخير من أفولاي وأوغسطين وبعض المجندين من الأهالي الحركى الذين جئنا بهم معنا مرافقته، في حين احتفظوا بي أنا وبقية عناصر الحركى مع المجموعة التي استقبلتنا.

حين عرف بعض الجنود باسمي الحقيقي ليفي وأنني على ملة موسى، بدأوا يتحاشون الأكل معي في صحن مشترك واحد ولا يشربون من الماء الذي أشرب منه، وكانوا لا يبادلوني الكلام إلا ما قل، وما هو مرتبط مباشرة بمهمة أو استفسار عن شيء ما، وقد حاولت مرات عديدة ونحن في استراحاتنا المسائية أن أشرح لهم محاولاً إقناعهم بمصيرنا المشترك الواحد وهدفنا الواحد، وهو استقلال بلدنا "الجزائر" التي نشترك جميعنا في حبها وفي الانتماء إليها. وقد حدثتهم عن أصلي وأنني تلمساني الأصل، أي من الأهالي، وأن جدي الأول جاء هذه المدينة منذ قرون، وأن مقابرنا تشهد على ذلك. كنت أحدثهم باللهجة التلمسانية التي هي لغة أمي وأبي، وكنت أقرأ لهم خطاب الجبهة إلى الحاخام الأكبر والذي يدعو فيه المواطنين اليهود الجزائريين للالتحاق بصفوف الثورة للدفاع عن وطنهم الجزائر وأشرح لهم فحواه

بالعامية. ومع ذلك لم أتمكن من تصفية الجو ولا تحقيق الاطمئنان، وظل الجميع يعاملني بحذر، من القائد إلى الجندي البسيط.

قلت لهم: "كما في أوساط المسلمين هناك خونة وحركى التزموا جهة المستعمر، ففي أوساط اليهود خونة وحركى وقفوا ضد بلدهم الجزائر ومالوا إلى معسكر الغاصب. الخيانة لا علاقة لها بالإيمان، الخيانة هي طغيان الوعي الزائف على سلوك الفرد".

حين أخبرهم بأن محكمة الاستعمار الفرنسي بالعاصمة قد أصدرت حكمًا بالإعدام على المناضل فرنوند إيفتون، وهو أيضا يهودي مثلي، أصدرت هذا الحكم ضده لأنه كان مناضلاً في المنظمة العسكرية "مقاتلو التحرير"، التي تنشط من أجل استقلال الجزائر، وقد نفذ فيه الحكم بالإعدام بالمقصلة كما نفذ في أخيه أحمد زبانا وفي ذات السجن، سجن بربروس...

ولأنني كنت على تكوين متميز مقارنة ببقية المجاهدين من عاصر المجموعة، ولأنني أعرف جيدًا التفاصيل الدقيقة لمواقع العدو العسكرية التي لطالما زرت ثكناتها وشاركت فيها بوصفي ملازما في منطقتي تلمسان ووهران، فقد شرعت، وبالتنسيق مع مسؤولي العسكري، في التحضير لمعركة تغطية مجموعة مجاهدين مكلفين بإدخال السلاح على الحدود الجزائرية المغربية، كنت متحمسا، ربما عبر خلال ذلك كنت أريد أن أبرهن لرفاقي في هذا المعسكر بأنني لست أقل منهم إيمانًا بحتمية استقلال بلدي الجزائر.

في تلك الليلة خرجنا في مجموعة من سبعة عناصر، حاصرنا الهدف بدقة، زرعنا الألغام على المداخل والمخارج، ثم أعطيت

الإشارة وهاجمنا الهدف المتمثل في ضيعة فلاحية في منطقة تسمى البياضة بالقرب من وادي المالحة، كان قد هجّر العسكر الكولونيالي سكانها من الأهالي واتخذ منها مقرًّا لقيادة الحدود. تمكنا من فتح الطريق لتسهيل مرور كمية معتبرة من الأسلحة عبر الحدود، بمحاذاة مدينة أحفير، ونجحنا في القضاء على جميع العناصر المتمركزة فيه، وتم وصول كمية من السلاح الذي كنا بحاجة ماسة إليه بعد أن ازداد عدد المجاهدين.

فجرًا حين عدت رفقة مجموعة من المجاهدين من عملية الهجوم، وفي نشوة الانتصار ونحن حول كؤوس الشاي، وبشكل عابر، حدثت القائد عن البيان الصادر عن جبهة التحرير الوطني والموجه إلى الحاخام الأكبر للجالية اليهودية الجزائرية، والذي يذكرهم بضرورة الالتحاق بالثورة بوصفهم مواطنين جزائريين، لهم كل الحقوق وعليهم واجب الدفاع عن بلدهم الجزائر الذي ليس لهم عنه بديلاً، قرأت في عيني المسئول بعض التذمر، شعرت وكأن القائد لم يكن مرتاحًا لهذا البيان. استثقل حديثي فانسحب من المجلس، على بعد أمتار سمعته يقرأ آيات بصوت شبه مسموع. كان يؤدي صلاة العشاء.

شربت الشاي وكان مذاقه مرًّا علقمًا في حلقي، وأقفلت الحديث وتذكرت نيكول زوجتي وأفولاي وأوغسطين وحصاني فليش وتذكرت تفاصيل الحلم الذي زارني فيه جدي الأول أبراهام النقاوة معاتبا على وجودي في معسكر القوي ضد أبناء وطني من الأهالي.

الهاوية

جاءنا الخبر...

كان اليوم باردًا، والخبر صاعقة، خبر استشهاد ليفي النقاوة زمرمان في واحدة من المعارك التي قادها غير بعيدة عن القرية التي ولد فيها، قرية الحناية، ضد مفرزة من العسكر الاستعماري بمكان يسمى "جبل عصفور"، وهو الذي يعرف جيدًا تضاريس هذه المناطق، فقد عمل فيها لسنوات عسكريًا على ظهر حصانه "فليش". ليلتها بكيت كما يبكي الأطفال، أخفيت دموعي عن المجاهدين من حولي، المجاهد الثوري لا يبكي. تذكرت على الفور صورة زوجته السيدة نيكول وهي تدعوني لفنجان قهوة، وتذكرتها وهي تناديني باسم "محمد" بدلاً عن اسمي أفولاي، واسترجعت بالتفصيل ذلك اليوم الذي حسم فيه النقيب ليفي قضية اختيار الموقف والالتحاق بالثورة والانفصال عن العسكر الفرنسي، الانتقال من معسكر القوي الظالم إلى معسكر الضعيف

الباحث عن حقه في الحرية والاستقلال والعدالة. قلت في نفسي: "قد يكون أحد معاونيه السابقين من الضباط أو الجنود الذين دربهم وأشرف على تكوينهم العسكري لسنوات، هو من أطلق النار عليه فأرداه قتيلاً! الحياة عجيبة الأطوار". وفي لمح البصر استرجعت شريط حياته كما عرفته أو كما سمعتها منه أو من أوغسطين: كيف روى لنا وبكثير من الفخر والتأثر أيضًا قصة جده أبراهام النقاوة الذي جاء تلمسان منذ قرون هاربًا من محاكم التفتيش الكاثوليكية، وهو الحكيم الذي تمكن من معالجة ابنة سلطان تلمسان آنذاك المنصور، وهو الذي كان السبب في إدخال أبناء ملة النبي موسى من اليهود إلى تلمسان ليعيشوا في سلام مع إخوانهم المسلمين، وقد ظلوا لقرون محرومين من الإقامة داخل أسوار المدينة، وليؤسسوا أخيرًا حيًّا خاصًّا بهم في المدينة، هو حي الدرب، وبه تقام أول دار عبادة في تاريخ مدينة تلمسان العريقة ولا تزال آثارها قائمة حتى الآن. كان النقيب ليفي النقاوة زمرمان هو المسئول عني في ثكنة المدينة الجديدة في وهران، وكان ضابطا نزيهًا وعادلاً لا يفرق بين عسكري وآخر على خلفية عقائدية أو جغرافية، الجميع سواسية أمامه في المكافأة كما في العقاب. وكان حساسًا وشفافًا يروي قصة موت حصانه فليش برصاصات الموت الرحيم كما يرويها شاعر والدمع في عينيه، وهو العسكري الصارم الحاسم اليقظ. واشتغلت سائقًا خاصًّا له، وهو الذي أحب نيكول إلهة الشمس بالصدفة، في لقاء بمقهى في شارع جبهة البحر بوهران، وهي من أنقذته من هوس فقدان حصانه فليش، مغرمة بالأب محمد بن دوفال رئيس أساقفة

الجزائر لا لشيء إلا لأنه كان منحازًا إلى الفقراء والمظلومين، فتقاسم ليفي النقاوة مع زوجته نيكول معركة الدفاع عن القيم الإنسانية: الحرية والمساواة والأخوة.

أفكر في كل هذه التفاصيل وأنا أحاول أن أتجرع مرارة هذا الخبر، مقدرا هذه النهاية الشجاعة.

نزل علينا الخبر المؤلم ونحن في قاعدة الناظور الاستخباراتية للثورة، على الحدود الجزائرية المغربية، طلبتُ من القيادة السماح لي بالذهاب إلى جبل عصفور للوقوف على روحه وتقديم التحية له، فله عليّ دين كبير، فهو الذي قادني إلى الجبل، هو الذي أيقظ فيّ لهيب الوعي، وخلصني من جحيم التردد. وافقت القيادة على طلبي لأنها كانت أيضًا ترغب في تقرير ميداني عن أوضاع المجاهدين في هذه المنطقة، بل ربما كانت لديها بعض الشكوك حول طبيعة استشهاد الرقيب ليفي النقاوة زمرمان، وكأن موته مؤامرة من نيران صديقة. في الليلة نفسها تحركت معية أوغسطين. حين تجاوزنا خط الحدود المغربية الجزائرية عند وادي كيس، عند نقطة تسمى بوكنون، قال لي أوغسطين إنه يحمل معه لوحة صغيرة هي عبارة عن بروتريه على ورق عادي لنيكول إلهة الشمس زوجة ليفي النقاوة، لم يتمكن من إكمالها رغم أنه اشتغل عليها قرابة ستة أشهر، وتمنى لو يسمح له بوضعها على قبر النقيب ليفي النقاوة. لم أعلق على كلامه لا بالإيجاب ولا بالنفي، وجدنا مسبلاً من المدنيين في انتظارنا في الجهة الأخرى من الحدود، خرج لنا من بين رؤوس قطيع غنم كانت تسرح في المكان، لم يتبادل معنا سوى كلمة السر التي كانت

"سيدنا موسى". مشينا على أثره الليل كله تقريبًا، لم يتفوه مرافقنا بكلمة واحدة، أوصلنا إلى سفح جبل اسمه زندل، ولم نتمكن حتى من رؤية ملامح وجهه، فقد كان يصر على ستر نصف وجهه بشاش وبقبعة الجلابة الندرومية الصوفية الواسعة التي كان يرتديها، والتي يبدو أنه يخفي تحتها بحرص قطعة سلاحه، حين وقفنا عند سفح الجبل من الجهة الشرقية تركنا دون أي كلمة، فقط أشار إلينا أن نتقدم واختفى في الغابة. وعلى بعد بضع مئات أمتار تسلمتنا امرأة كانت ترتدي لباس فلاحة بسيطة، تحمل فوق رأسها حزمة حطب، يتدلى من أذنها اليمنى قرط فضي كبير، اليسرى لم يكن فيها قرط، قد يكون ضاع منها أو أنها قصدت ذلك. لم تنطق سوى بكلمة السر الجديدة "الجو بارد"، قالتها بصعوبة ربما من الخوف أو أن لسانها فيه خلل، مشينا في أثرها دون كلام وهي تشد حزمة الحطب بيدها اليمنى تارة، وبالأخرى طورًا حتى لا تفقد التوازن من فوق رأسها. دخلنا غابة بأشجار كثيفة ونباتات وحشية كثيرة، وبعد ساعتين من المشي تقريبًا، وجدنا ثلاثة من الجنود في انتظارنا. سلمنا عليهم دون كلمة السر سلامًا عاديًّا، ردوا السلام، ثم واصلنا السير قرابة الساعة، ربما أكثر. أنزلت المرأة من على رأسها جزمة الحطب، سلت منها قطعتي سلاح أعطت كل واحد منا قطعة، وعادت أدراجها دون أن تتكلم. وصلنا مقصدنا، كان الملجأ المموه عبارة عن فضاء صغير بين أشجار الغابة المتوحشة. على عجل اقتادونا إلى مكان حيث سجي جثمان ليفي النقاوة زمرمان في زيه العسكري. قال لنا مسؤول المجموعة: "لقد تأخرا في

دفنه"، كان ممددًا إلى ظل شجرة غير بعيد عن قبر كان مجهزا لاستقباله، أدينا له التحية العسكرية، لم أستطع النظر إليه وهو في موته. كان أوغسطين متأثرًا أكثر مني، يخفي دمعه عن الحاضرين. وقفت عند رأسه، في ضوء الصباح، بصعوبة تعرفت إلى ملامحه، ضمادة كبيرة حول رأسه تشد على فكيه، شاربه تقلص، قرأت فاتحة الكتاب بصمت، وتذكرت قبر جده أبراهام النقاوة الذي ظل لقرون مزارًا لليهود والمسلمين على حد سواء. وقفت مجموعة من الجنود في صف واحد، ثم أدوا التحية العسكرية الأخيرة، حين أنزل ليفي إلى الحفرة، أخرج أوغسطين بورتريه نيكول ووضعه داخل القبر إلى جانب الفقيد، ثم وري التراب على جسده دون صلاة. قضينا النهار هناك في الملجأ ومع غروب الشمس غادرنا المكان. ونحن نهم بالمغادرة صحبة عسكريين، اختليت بقبر ليفي النقاوة لبعض الثواني، وقطعت غصنًا من شجرة خضراء الأوراق لا أعرف اسمها، وضعته على تراب قبره. ودّعْنا المجاهدين، وسلكنا طريقًا آخر غير الذي مشيناه في المجيء.

في طريق العودة تذكرت فجأة الهواري السويح وصديقه إيميلي شكرون، الذي قاد إضراب عمال ميناء وهران، وكأن أوغسطين قرأ ما في ذهني؛ فبادر بالكلام: "حسب المعلومات الواردة من وهران، فالهواري السويح لم يغادر المدينة، إنه مكلف من قبل الجبهة بعمل مدني واستخباراتي داخل الأحياء الشعبية، فهو من يرسل المعلومات المشفرة إلى الثوار عن كل ما يجري في أحياء المدينة وضواحيها، وهو أيضًا من يقوم بمهمة تجنيد ما تبقى من الشباب وإرسالهم إلى الجبال. كما إنه هو من يوضع قوائم

للحركى المتورطين مع الإدارة الاستعمارية وتدقيقها، وهو من يتولى إرسال رسائل التحذير والتهديد لكل من تسمح له نفسه بالتعامل مع العدو، وإليه ترجع سلطة رفع دعوى الحكم بالإعدام على حركي ما، وهو أيضًا من يشرف ويخطط لتطبيق تلك الإحكام بمجرد وصولها إلى القيادة بالمدينة، فكم من الخونة تمت تصفيتهم في المقاهي وفي الأسواق الشعبية وفي البارات وحتى في القطارات، اغتيال الخونة أمر بسيط لأن فرنسا لا تحمي الخونة بما يكفي بل تريدهم متراسًا لها، أن يقتل عميل من الأهالي أبسط ألف مرة من الوصول إلى أي عسكري فرنسي مهما قلّتْ رتبته."

ـــــــ في عيادة "القاوري"!!

أنا الدكتور أوغسطين قيران ابن السمكري الإفريقي، ربما، أو "القاوري" كما يسميني أهل الحي.

يمضي الزمن بسرعة، لا ينتظرنا ولا ينتظر الأصدقاء، يغيرنا ويغير الخلان ويشوش على القلوب.

"أفولاي.... أفولاي... أفولاي" مبتهجًا، صحت.

نظرتُ إليه، ولست أدري لماذا في اللحظة نفسها نظـــرتُ إلى الساعة المعلقة في المسمار المثبت على حائط الرواق الضيق الـــذي يفتح على الغرفة حيث كرسي الكشف الطبـــي، الساعة تشير إلى الثامنة والنصف صباحًا، أو بالأحرى الثامنة وأربع وثلاثين دقيقـــة. العقارب الثلاثة تتراقص كالعادة، متى يا ترى بدأ الإنسان في عـــدّ الزمن؟ ما معنى الدقيقة وما معنى الثانية ومن حدد طول الساعة؟

هذه الساعة الجدارية بعقاربها التي تجري ونحن قبالتها نجري ونعدّ ونعدد ونعيد العدّ، ما معنى الواحد وما معنى الاثنين والمئة؟

وَهْمٌ على وَهْمٍ! هذه الساعة أهدتني إياها مجاهدة جلبتها معها في واحدة من عُمْراتها أو حجاتها، فعمراتها متكررة وحجاتها كثيرة، بل تكاد تكون سنوية، قالت لي وهي تقدم لي الهدية: "هذه الساعة صينية الصنع، إنتاج من بلد شيوعي، لكنها مع ذلك مباركة لأنها مستجلبة من أرض مباركة مشى عليها النبي محمد خاتم المرسلين".

سنوات قليلة بعد الاستقلال، وإذا المجاهدون الذين كانوا أيام الثورة التحريرية وقبلها مناضلين شرسين في أحزاب وطنية طليعية أو يسارية أو شيوعية، أو قياديين في نقابات عمالية سواء في المُسْتعمَرة أو في المتروبول، أضحوا لا يفكرون سوى في الحج أو العمرة أو الحصول على رخص تمنحها الدولة المستقلة، تسمح لهم بشراء سيارة من الخارج معفاة من الضرائب، أو الجري خلف بعض معارف الأمس من موظفي وزارة المجاهدين للحصول على رخص سجل تجاري لسيارة أجرة.

علقتُ هذه الساعة في هذا المسمار، كان ذلك قبل ست سنوات، صادف ذلك يومها الخامس من أكتوبر 1988، شوارع مدينة وهران كانت مشتعلة، مليئة على آخرها بالشباب الغاضب الرافع شعارات ضد النظام الذي يحكم باسم الشرعية الثورية، وضد الحزب الواحد الأحد. لافتات مرفوعة تنادي بالتعددية الحزبية وتهاجم جميع المؤسسات التي ترمز إلى النظام. من يومها وهذه الساعة العجيبة في مكانها لم تتوقف ولو للحظة واحدة، تراقب الوقت تبلعه ثانية بعد ثانية وتبلع معها حياتنا، وتتابع من مكان الصلب هذا تعاقب الفصول والأيام والليالي. أذكر أنني طلبت من

الممرضة السيدة سليمة ياحي التي تشتغل معي منذ أن فتحت هـــذه العيادة، ستة أشهر بعد الاستقلال، أن تغير بطاريتها، طلبت منـــها ذلك مرة واحدة، لست متأكدًا من أنها قامت بـــذلك، ولســـت متأكدًا أنها مرة واحدة فقط، ولكن ما أنا متأكد منـــه أن الســـاعة الجدارية لم تتوقف عن عد الزمن وابتلاعه منذ أن صلبتها على هذا المسمار، زمن من؟ زمني أنا، زمن الممرضة أم زمن المرضى أم زمن المجاهدة الكبيرة التي أهدتني إياها، أم زمن الاستقلال المشوش؟

الساعة تبلع الزمن وتبلعنا معه.

غابت الممرضة اليوم عن عملها، العيادة هادئة هذا الصباح. لقد اعتذرت لي السيدة سليمة ياحي البارحة بمكالمة هاتفية، كان ذلك متأخرًا قليلاً، نحو الساعة الثامنة ليلاً، بالضبط الثامنة وست وعشرين دقيقة. كنت أتابع نشرة الأخبار، الأخبـــار كلـــها دم وعنف واغتيالات وبكاء. كان صوت سليمة ياحي في الهـــاتف مختلفًا، لكن مع ذلك وكعادتها كانت لطيفة وبشوشة. استغربت وقت المكالمة المتأخر، اعتذرتْ لي عن عدم تمكنها الحضور غـــدا إلى العيادة لأن حفيدها سيحتفل بعيد ميلاده السادس، ولـــد في الخامس من أكتوبر 1988. تقول السيدة ياحي في الهاتف: "يوم ولادته لا أنساه، المتظاهرون منعوا سيارة ابني من الوصـــول إلى قسم التوليد بالمستشفى الجامعي، أوقفوه في منتصف الشـــارع، لولا أن تدخل شاب من أبناء الجيران تعرف إليه، فأمر الجمـــوع برفع المتاريس وبفتح الطريق في آخر لحظة بعد أن سمع صـــراخ الزوجة عاليًا. لقد دعا حفيدها إلى هذا الحفل زملاءه في القسم الثاني ابتدائي ومعهم المعلمة أيضًا...".

ضحكت في الهاتف وقلت لها: "عام سعيد لياسين، ولد هذا الطفل يوم علقت الساعة الجدراية في مكانها الذي لا تزال مثبتة فيه". حفيدها يشبهها تمامًا، تحمل سليمة ياحي باستمرار صورة له في حمالة المفاتيح وأخرى في حقيبتها، وتضع واحدة أخرى تحت الزجاج الذي يغلف سطح مكتبها في العيادة، وأخرى على شاشة جهاز الكمبيوتر. كلما فتحت الجهاز وأطلت الصورة عليها تقبلها وتصلي إلى الله طالبة أن يحميه من كل شر أو عين. سليمة الممرضة امرأة من نظام وانضباط وعفة، تعجبني فيها لغتها الفرنسية الصحيحة والدقيقة. تقرأ الجرائد وتحب الكلمات المتقاطعة وتفضل الاستماع إلى الأغاني الفرنسية الكلاسيكية. تعمل سليمة معي في هذه العيادة الخاصة للطب العام، والتي فتحتها في هذا الحي الشعبي "حي الحياة" منذ أربع وثلاثين سنة.

هذا الصباح وصلت إلى العيادة في الساعة الثامنة والربع، كما تشير إلى ذلك الساعة الجدارية التي تراقب عمرنا ثانية بثانية. أنا لا أحمل ساعة يد أبدًا، حاولت مرات ذلك وفي كل مرة كنت أشعر بأن أي سوار حول معصمي شبيه بحبل المشنقة حول عنقي. لذلك لا أتحمل ربط ساعة يدوية.

حين كنت صغيرًا، بسعادة غامرة كنت أراقب جدي الذي لا تفارق عيناه جريدة **لومانيتي**. ولكم كانت تدهشني ساعته الفضية التي تنام في جيب معطفه الخارجي الموجود في صدره جهة اليسار. يخرج جدي نظارته أولاً، ثم بهدوء ملكي يسحب الساعة من الجيب الصغير من خلال سلسلة فضية لامعة مربوطة

إلى حلقة في طرفها، بحركة متزنة ودقيقة يخرجها من علبتها النحاسية، يحدق فيها بإعجاب كأنما أخرجها ليتمتع بشكلها لا لكي يراقب أو يزن الوقت على عقربيها، لها عقربان فقط، يمرر عليها منديله الحريري الذي يخرجه من جيب سرواله الأيمن، ثم يعيدها إلى مكانها بعد أن يعلق بعبارته التي تتكرر يوميًّا: "العمر يمر سريعًا كالقطار". وكنت أتساءل ما علاقة النظر إلى الساعة "بمرور العمر سريعًا كالقطار؟". وكانت جدتي البورجوازية تعلق على عبارته قائلة: "القطار يمرّ عليك أنت وحدك وسريعا".

نظرت إليه، قلتُ هذا المجاهد أفولاي اسمه الحركي السي قادة، صديق تاريخي، عشنا معًا سنوات في الثكنة، كان أول شخص جربت معه زيارة "دار التسامح" التي عرفت فيها فتاة جميلة وعنيدة اسمها "دوجة" أو "شكيرا". كان أفولاي في مرتبة أخي، حتى إننا تعاهدنا أن لا يصعد أحد منا على سرير امرأة سبق أن نام فيه أحدنا، ولو كان ذلك سريرًا في غرفة امرأة علب الليل. وقضينا معا خمس سنوات في الثورة، وشاركنا جنبًا إلى جنب في معركة بوكانون على الحدود الجزائرية المغربية. عشنا معا تسعة أشهر في مدينة الناضور بالمغرب، حيث أقمنا وأشرفنا على مركز لاستقبال الجرحى وجثامين شهداء الحرب القادمين من الحدود الغربية جهة وجدة وأحفير وباب العسة وبورصاي، وحتى الغزوات أو نومور قبل أن ننتقل معًا إلى تونس، حيث أقمنا المستشفى الميداني على مشارف مدينة ساقية سيدي يوسف. أذكر أننا وصلنا أرض تونس عبر رحلة جوية من الدار البيضاء إلى مدريد ثم تونس. ومعًا وقفنا على قبر ليفي النقاوة زمرمان

الذي كان قائد ثكنتنا. أفولاي رجل مبادئ وثبات وحب الوطن، في البداية كان قريبا من المصاليين، ولذا كان القادة الجبهويون يحذرون منه، حتى إنهم أرادوا تصفيته ذات ليلة، أنا من أعاد الثقة بينه وبين المجاهدين في جيش التحرير، وبدد حس عدم الثقة بينهما. كان حب الوطن أكبر من حب الزعيم في قلبه وفي سلوكه، أنشدنا معًا مئات المرات بل آلاف المرات النشيد الوطني سنوات الثورة، وفي العديد من الأعياد الوطنية بعد الاستقلال، أعياد أول نوفمبر وأعياد الاستقلال وأعياد النصر وأيضًا في ذكرى استشهاد بعض رموز الثورة من رفاق الكفاح، العربي بن مهيدي وأحمد زبانا ومليحة حميدو وعميروش وعبان رمضان... وقفنا جنبًا إلى جنب في استقبال جثامين الشهداء والجرحى على جبهتي الثورة في الغرب وفي الشرق، ومعًا وقفنا جنبًا إلى جنب في الساحات العامة لرفع العلم وتحيته، ومعًا جنبًا إلى جنب وقفنا في مقابر الشهداء نعيد دفن رفات بعض رفاقنا الشهداء في السنوات الأولى للاستقلال...

كم تناقشنا ولليال طوال حول أفكار فرانتز فانون الذي لم يحتفل معنا بالاستقلال، مات قبل الاستقلال بشهور، وكم كان يسعدنا تذكر مسيرة وصلابة الرجال الشهداء من أمثال العربي بن مهيدي وزبانا وإيفتون وموريس أودان وحسيبة بن بوعلي والزوج شوليه بيير وكولودين...

كان أول خلاف نشب بيننا هو حول قضية إعادة دفن رفات الشهيد ليفي النقاوة زمرمان التي استرجعناها من قبره في الغابة. كان رافضًا دفنه في مقبرة الشهداء بحجة أنه لم يكن

مسلمًا، وقد قاد حملة لأجل ذلك بين بعض المجاهدين، وقد نجح في ذلك؛ مما اضطرنا إلى دفنه في مقبرة اليهود بتلمسان غير بعيد عن مقام جده أبراهام النقاوة.

في السنوات الأخيرة، وبالضبط منذ أحداث أكتوبر 1988، اختفى المجاهد أفولاي عن الأنظار. لقد تغير كثيرًا، ما عاد يحضر تلك اللقاءات والمحاضرات التاريخية التي تنظم بقصر الثقافة في المدينة، ولا تلك التي تنظمها الجمعية الثقافية لمدينة وهران أكفو، بدأ بمقاطعة احتفالات الأعياد الوطنية بل أصبح يعلق على مثل هذه المناسبات بعبارة غريبة: "هذه الاحتفالات من البهتان والزيف والحرام". المكان الوحيد الذي أصبح يتردد عليه صباح مساء هو مسجد الحي الشعبي سيدي الهواري الذي يقيم فيه، يستمع إلى الخطب النارية لإمامه وهو شاب متحمس مهندس خريج كلية الهندسة المدنية، إمام يحلم بأن يعيد ترتيب العالم من جديد على أسس العدالة والمساواة بتطبيق الشريعة، من ضرب يد السارق ورجم الزاني والزانية ومحاربة الكفار والعلمانيين والشيوعيين، الذين أفسدوا في البلاد وجروها إلى الهلاك والفساد الأخلاقي، والعودة إلى تطبيق قانون "أهل الذمة"، عدوه الأول المرأة التي أصبحت متبرجة تمشي في الأسواق وتسوق المركبات وتحضر الحفلات، وتتولى الشأن العمومي الذي هو من اختصاص الرجال...

أصبح أفولاي من المناضلين القياديين في الحزب الإسلامي الجديد، الذي استطاع من خلال انتخابات مزورة الاستيلاء على بلدية وهران، وذلك بشراء الذمم وتوزيع الوعود كما كانت

الكنيسة توزع صكوك الغفران. لقد وعدوا مناضليهم والمنتسبين إلى الحزب الإسلامي ونشطائه بمنحهم قطع أرضية للباء بمجرد الفوز برئاسة البلدية، وهو ما حدث فعلاً، إذ سادت الفوضى في العمران، وتشكلت أحياء عشوائية في الضاحيتين الجنوبية والغربية للمدينة أتت على جزء كبير من غابة المسيلة التي تعدّ رئة المدينة، كما منح البعض من المناضلين الإسلاميين عقود ملكية تخص الساحات العمومية بصفتها قطع أرض يسمح لهم ببناء فيلات عليها، و لم تنج حتى بعض الملاعب الرياضية وبعض ساحات المدارس والثانويات من هذا النهب، فقد شيدت عليها عمارات سكنية ومحلات تجارية... لقد عمت الفوضى العمرانية المدينة والقرى المجاورة.

حين دخلت الجزائر في دوامة العنف وجحيم الحرب الأهلية، اختفى أفولاي نهائيًّا، قيل إنه عاد مرة أخرى إلى الجبل حاملا السلاح، لكن هذه المرة ليس لمحاربة الاستعمار الفرنسي ولا لأن ساندرين قالت له: "هل ينبت لك ذنب كذنب القرد مكان فقرة العصعص؟". لقد عاد إلى الجبل لمحاربة الجزائريين، وقد أخذ على عاتقه ترأس مجموعة "جهنم" التي أصبح قائدها ومرشدها، وهي عبارة عن كتيبة متخصصة في تصفية النخبة من المثقفين والفنانين والكتاب والصحفيين والأطباء والنقابيين من الأصوات الديمقراطية، ولا ينفذ حكم باغتيال واحد من هذه المجموعة المثقفة إلا بإشارته وبموافقة منه، هو من يصوغ الفتاوى وهو من يضع قائمة المطلوبين والملاحقين من قبل الميليشيات الإسلامية لكتيبة "جهنم".

رن جرس باب العيادة، الممرضة سليمة ياحي غائبة، قمت بفتح الباب بنفسي، قلت إنه دون شـــك المـــريض الأول، وإذ وجدت نفسي وجهًا لوجه مع المجاهد الصديق أفولاي، قلت له وأنا أهم باحتضانه: "أفولاي... أفولاي... أفولاي" مبتـــهجًا، صحتُ وأنا أستقبله على عتبة العيادة.

"يوم سعيد هذا يا السي قادة، مرت سنوات يـــا رجـــل لم نلتق". دققت النظر فيه، شعرت وكأنه ليس هو أفولاي الـــذي جاءني عشية انقلاب 19 جوان 1965 باكيًا كطفل ضيع أمـــه في الزحام، قائلاً بصوت متهدج: "الثورة أكلت كثيرًا من أولادها، والاستقلال يأكل ما تبقى من مأدبة الثورة".

نظرت إليه لم يكن هو، خليلي أفولاي، ذاك الذي قرأنا معًا بعض فصول **الحمار الذهبـــي** لأبوليوس في ليالي مرقد الثكنـــة وضحكنا كثيرًا على حالة المسخ! تبادلنا معا كتاب فرانتز فانون وديوان الشعر **مجنون إلزا** لأغون **وعارنا في الجزائـــر** لســـارتر **وصورة المُسْتَعْمَر والمُسْتَعْمِر** لألبير ميمي **ونجمة** كاتب ياســـين. لست أدري لماذا تذكرت هذه العناوين وغيرها دفعة واحـــدة، وتذكرت دوجة ونيكول إلهة الشمس وليفي النقاوة زمرمـــان، والهواري والشاب خوليو، وبائع الفستق السوداني على رصـــيف شارع اللاك دوك، وتذكرت حكاية ساندرين وكْروكْ-مورْ...

كان أمامي أفولاي أو السي قادة شخصًا آخر تمامًا، بنظرة ثعلب جائع أو ضائع، بلحية غريبة تصل صدره أو تكاد، تنبعث من جسمه الذي تقوس قليلاً رائحة عرق منفرة، وهو الذي كان لا ينزل إلا معطرًا إلى "دار التسامح" ســـنوات الثكنـــة أيـــام

الاستعمار، أو إلى مقهى الكليشي سنوات الاستقلال الأولى، حيث كنا نلتقي مرتين في الأسبوع مسائي يومي السبت والثلاثاء. أذكر آخر مرة التقينا فيها في هذا المقهى، كان ذلك ليلة الاحتفال بالذكرى الأربعين لثورة أول نوفمبر. قلت له ونحن نحتسي فنجاني القهوة: "في هذا المقهى كان يجلس ألبير كامو وفيها كان يشرب قهوة الصباح، كان ذلك العام 1942 حين جاء هاربًا من العاصمة خوفًا من النازية وشرطة فيشي التي كانت تطالب برأسه. لقد أقام في شقة بعمارة لا تبعد عن مقهى الكليشي هذا سوى بضعة أمتار عن شارع العربي بن مهيدي، أو أرزيو سابقًا، كانت بلدية وهران التي قادها الأسقف غابرييل لامبير قوة سند للفاشية".

سكت قليلاً، وكأنما تذكر الصحفي الهواري سويح وهو يحكي قصة الأب غابرييل لامبير في البحث عن نبع الماء العذب لإرواء عطش الوهرانيين، وقال:

"البارحة دفنا أبي داود رشدي بمقبرة الدومة بقرية حب-الملوك. سرت في جنازته مع السائرين. كنت غريبًا، لم أشعر بأنني أدفن "أبًا". حين وضعناه في قبره بدا لي عاريا كما رأيته ذات ظهيرة مع السيدة إيزيلدا غوميز، غادرت المقبرة مباشرة إلى وهران، نسيت أن أستقبل عزاء الذين رافقوا جثمانه، ونسيت أيضا حتى أن أقف على قبر والدتي رقية بنت الخلوي".

على عتبة العيادة، حين هممت باحتضانه، دفعني بعنف إلى الداخل فاتحا الطريق لشابين كانا يقفان خلفه واللذين اقتحما المكان. هجم أحدهم علي، وضع خرقة على فمي وأخرى على

عيني. أخذ الثاني ذراعيّ ليلويهما خلف ظهري، وصديقي المجاهد أفولاي أو السي قادة يتابع المشهد. بهدوء أغلق الباب من خلفه وأطفأ نور مصباح المدخل الذي أتركه عادة مضاء كدليل على أن العيادة مفتوحة، دفع بسي الشابان إلى غرفة الحمّام.

أخرج أحدهما سيفًا من تحت معطفه الشتوي الطويل. حاولت أن أقول شيئًا، أن أنادي الصديق أفولاي، لكني لم أتمكن. تذكرت ثانية دوجة وليفي ونيكول إلهة الشمس، وتذكرت ليلة هروبنا بأسلحتنا من الثكنة الاستعمارية والالتحاق بالثورة، وتذكرت الطفلة ساندرين وحكاية الذنب الذي ينبت للعرب والأمازيغ مكان العصعص، وتفاصيل قصة مسخ الشاب إلى حمار في رواية "الحمار الذهبي" لأبوليوس.

المسخ، المسخ، المسخ...

شعرت بنصل السيف فوق رقبتي، وسمعت صوت أفولاي صديقي في النضال يقول: "الله أكبر.. الله أكبر، لا مكان للكفار المسيحيين في أرض الإسلام".

وفجأة انطفأ الضوء في عينيّ، وسقط الخليل منهما.

الجزائر في 30 مايو 2018

الخلّان

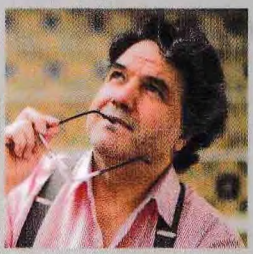

أميـن الـزاوي

روائي جزائري يكتب بالعربية و الفرنسية ترجمت رواياته إلى أزيد من اثنتي عشرة لغة، من أعماله:

- الرعشة
- شارع إبليس
- حادي التيوس

... كنت أعتقد دائمًا، وأنا طفل صغير، بأن والديّ لالة رقية بنت الخلوي وداود رشدي اللذين وُجدت في أحضانهما سيظلان معي إلى الأبد، وأنني سأجدهما إلى جانبي متى ارتحلت وحيث حللت، ومتى بكيتُ ومتى ضحكتُ، سعدتُ أو حزنتُ، وأنهما سيظلان تحت تصرفي متى احتجت إليهما...

التفت من حولي وأنا أكبر وأهوال الحياة تكبر قليلًا قليلًا لأجد أناسًا آخرين كثيرين، غرباء، يشاركونني الطريق. يركبون العربة واحدًا بعد الآخر، وقد يركبون مثنى وجماعات، يلتحقون بالمسيرة ويمشون إلى جانبي، وبعضهم يشترك معي في أيامي وفي حكاياتي، بل إنهم يحيكون بعض تفاصيل فصول حياتي هذه التي أرويها لكم، فهي جزء من حياتهم أيضًا.

الرجل حكاية شوكية ومشوكة.

كل رجل هو قبل كل شيء عبارة عن حكاية ملفوفة في ورق الأيام.

يوزن الرجل بمدى تأثير الحكاية التي هي مرآته على المرأة التي تتربع على قلبه. والرجل دون حكاية ساخنة كالجمرة ليس جديرًا بالحب.

المرأة تعشق الرجل لحكايته أولًا، لا لطوله ولا للون عينيه ولا لماله، ولكل رجل حكاية يعض عليها بأسنانه القوية، حكاية هي السر، والحكايات كالرجال بعضها باردة المفاصل كيوم شتوي قطبي شمالي، وبعضها حارة كما هي سخونة رمال صحراء الربع الخالي.

يُعرَفُ الإنسان من حكايته لا من بصمات أصابعه.

وهذه بصماتي!!

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuabdo

صدر للمؤلف عن الدار

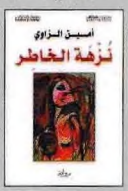

ISBN: 978-614-02-1687-7
9 786140 216877

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

جميع إصداراتنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com

تصميم الغلاف: يوسف القوتلي